Michel Bugnon-Mordant

أمريكا المستبدة

الولايات المتحدة وسياسة السيطرة على العالم (العولمة)



ترجمة: د.حامد فرزات

أمريكا المستبدة

الولايات المتحدة

وسياسة السيطرة على العالم «العولمة»

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org



Michel Bugnon-Mordant
ترجمة: الدكتور حامد فرزات

أمريكا المستبدة

الولايات المتحدة وسياسة السيطرة على العالم «العولمة»

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - 2001

L'AMÉRIQUE TOTALITAIRE

Les Etats-Unis et la maîtrise du monde

أمريكا الشمولية

الولايات المتحدة وسياسة السيطرة على العالم «العولمة»

بطاقة شكر

إلى كل من ساهم بالتشجيع وبإعداد وبتصحيح وبطباعة هذا الكتاب وخاصة اللواء موسى الزعبي والأستاذ رضوان تللو والدكتور يوسف الحاج أحمد والآنسة ريدة القنواتي وابنتي شذا.

■■

مقدمة

قـد يستغرب البعض، وخاصة المسحورين بالنظام الأمريكي، عنوان هذا الكتاب ويقولون إن مثل هذه الصفة تطلق عادة على الأنظمة الديكتاتورية. وأمريكا لم تعرف نظاماً ديكتاتورياً بل ربما كانت دائماً مثالاً لظاهرة ما يعرف بتداور السلطة. لكن سرعان ما يزول هذا الاستغراب عندما نعلم أن من يطلق هذا العنوان هو غربي النزعة والانتماء، ونكتشف كيف أن هذا الكتاب يعرض وقائع تاريخية طالت حريات وحقوق الشعوب لا يقدم على ممارستها إلا الدول المتمرسة بالاستبداد.

. لقد عملت الولايات المتحدة منذ تأسيسها كما يعرض الكاتب على فرض سيطرتها وإرادتها على دول العالم في كل المجالات الاقتصادية والعسكرية والسياسة والدبلوماسية والثقافية والفنية غير أبهة بالآخرين وبالصديق قبل العدو.

علينا ألا ننسى أيضاً أن الولايات المتحدة كانت الوريث الشرعي للدول الاستعمارية التي عرفها العالم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مثل إنكلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وهولندا، وما كادت الأمم الأوروبية تنجز انتحارها في حربين عالميتين أدتا إلى تمزيقها وإنهاكها حتى فرضت أمريكا سيطرتها العسكرية عبر جيوشها والسيطرة الاقتصادية السياسية عبر ولاء الحكومات المنهكة والمهزومة، ثم بالطبع سيطرتها الاقتصادية عبر مؤسسات دولية تحتل فيها الموقع الأساسي وشركات متعددة الجنسيات وهي ما «تفضله» على الاحتلال العسكري حيث كانت دائماً تظهر أنها لا تلجأ لأي عمل عسكري إلا تحت شعار «إقامة الديمقراطية وحماية المواطنين وحماية المصالح الأمريكية». ولا ترسل أمريكا جيوشها إلا بعد أن يصبح المتقاتلون في الرمق الأخير، كما حدث في الحربين العالميتين حيث كانت بالبدء تحتل مقاعد المتفرجين بل المستفيدين من جني المنافع فكان الأمريكيون يرسلون للمقاتلين مقابل الدفع نقداً المؤن والأسلحة، وكما فعلت بالسابق في أمريكا اللاتينية تدخلت

الولايــات المتحدة باللحظات الأخيرة للحفاظ على النظام العالمي وعلى التوازن الكونـــي وأنجــزت هذه السيطرة العسكرية والاقتصادية في الفصل الأخير من الانــتحار عندما سقط جدار برلين بعد سنوات من التيه والتخبط وعدم الوضوح في الرؤية، وهكذا ما كان حلماً أصبح حقيقة.

لقــد بــدأ الصــراع بسبب الشطط والغطرسة لدى الأمم الاستعمارية التي رفعــت شــعار فــرق تسد وانتهت بترتيب العالم على الطريقة الأمريكية التي أضافت لفنون السيطرة فناً آخر أعطي في بدايته اسم برّاق وجذاب فهو ما كان يعرف بالعولمة تارة أو بالمثاقفة تارة أخرى.

لقد فهمت الإدارات المتعاقبة على السلطة في الولايات المتحدة بأن التحكم بالعــالم لا يكفيــه فقــط امتلاك القوة العسكرية الضاربة والهيمنة على أسواقه وحكامــه بــل هــو بحاجة لوسائل أخرى تصل إلى إخضاع جميع أفراده حتى تنــتهي عمــلية الاســتلاب على وجهها الأكمل فلم تكتف بإخضاع النفوس بل أرادت إخضـــاع الرؤوس أيضاً، وذلك عن طريق محو وإبادة ذاكرة الشعوب، فطـــالت هيمنـــتها عالم الاتصالات والسينما والتلفاز واللباس والجنس والطعام والشراب واللغة......، وقد قام الكاتب بعرض هذا الجانب بأسلوب شيق.

إن تبني الليبرالية المتطرفة كعقيدة تجارية واقتصادية هو الذي فرض هذه السياســات الــتي تهــدف إلى محو ذاكرة الشعوب. كلنا نعلم أن الغاية الأولى والوحيــدة لهــذه الليــبرالية هو انفتاح الأسواق أمام البضائع الأمريكة دون أية حواجز دفاعية لحماية المواطنين المحليين، ونعلم أيضاً أن أصحاب هذه العقيدة يمــلكون هدفاً واحداً فقط ألا وهو جني المنافع والأرباح والمال، وكل الوسائل يُسـمح باســتخدامها لتحقيق هذا الهدف دون أي رادع. وخلال صعود الليبرالية الجنوني أدركت الولايات المتحدة أن التنوع السياسي والجغرافي والتاريخي في العــادات والتقاليد والمعتقدات والقوانين والثقافات يشكل حواجز وروادع إنسانية وأخلاقية أمام انتشارها فكان لابد من وضع خطط تفرض الرأي الواحد وتمحو هوية الآخرين.

لقــد تحاشــينا الكلام عن ممارسات الإدارات الأمريكية في الوطن العربي لأن تناول هذا الموضوع يتطلب كتاباً آخر ونكتفي برأي الكاتب المحايد في هذا المجـــال. ويكفـــي فقــط أن نشير كيف أن الولايات المتحدة لم تتردد بتقديم كل أنواع الدعم العسكري واللوجستي والسياسي والمعنوي والبشري والمادي لكيان غــرس فـــي خاصرة الوطن العربي، غير أبهة بأدنى مفهوم لحقوق الشعوب،

ضاربة عرض الحائط بقرارات الشرعية الدولية التي تدعي بأنها المدافع عنها. وهـي تمـارس علانية سياسة الكيل بمكيالين للدفاع عن الغطرسة الإسرائيلية واحتلال أراضي الآخرين بالقوة.

بقي أن نقول أننا لم نر في هذا الكتاب إعلان للحرب على الأمريكيين وقد يكـون المؤلـف علـى حـق حين يؤكد بأنه صرخة إنذار تدعو الشعوب إلى الصـحوة لمـا يجـري حولهـا وإلى الوعي وإلى التمسك بحرياتها وجذورها وأصـولها لأنهـا مهـددة بالاندثار لو أنها انقطعت عن عمقها وعاشت عصر السـطحية. ولكـنه قـبل كـل شيء دعوة للأمريكيين لمراجعة الذات واحترام الآخريـن مـن خلال احترام حرية الشعوب الأخرى وحقوقها واستقلالها التي يصـعب التغلب عليها وهو دعوة «لمثاقفة» و«لعولمة» حقيقية، أي بمعنى بناء الجسـور بين الثقافات عن طريق عملية التبادل والاستفادة التي كانت دائماً هي أداة الشـعوب لإغناء التجربة الإنسانية بدءاً من حضارة أوغاريت وبلاد ما بين النهريـن والفراعنة واليونان والعرب وإنتهاءً بعصر التنوير الأوروبي، وليس بمعـنى هدم الجسور بين الثقافات وإبدالها بمفهوم أحادي للعالم مصيره بالطبع الاندثار لأن أي لقاح ثقافي لا يتم إلا بالوجود الفكري المتنوع.

يجب أن يُقرأ هذا الكتاب بجميع فصوله فهو يقدم العرض التاريخي الممتع والتحليل العلمي لظاهرة تشغل العالم أجمع اليوم.

بيير سلنجر

Pierre Salinger

■ ■

تمهيد

يبدو موقف الولايات المتحدة غير مفهوم لدى كل من ليس له معرفة بشؤون العالم وحتى لدى المراقب الفطن الذي لم يدخل في متاهات التاريخ الأمريكي. هو غير مفهوم أيضاً لدى بعض الرجال السياسيين المجربين الذين لم يتوصلوا بعد كباقي أغلب المواطنين للشك بأن ديمقراطية ما وراء الأطلسي أصيبت بهوس استبدادي حاد. فهي تتبجح وتحمل بيدها القوانين والأنظمة التي صنعتها مدعية أنه يمكن تطبيقها على العالم أجمع. إن واشنطن تفرض وتأمر وتقرر وتستولي على الدول أو على الشخصيات الاعتبارية مهددة هذه الدولة بالعقوبات والأخرى بالخنق بواسطة الحظر وغيرها بالحرب الاقتصادية المدمرة دون اعتبار لأي كان، فهل لنا إذن أن نفهم بمرارة كيف لهذه الأمة الصديقة رمز الحرية والحليف الوفي في ساعات الضيق قد وصلت إلى هنا؟!!.

الجواب مدون في المسار الأيديولوجي لشعب أمريكا، ولم يتبدل قيد أنملة منذ عام 1607 يوم تأسيس مستعمرة فرجينيا، وهكذا نبتت البذرة الأولى لمقومات المغالاة الأمريكية الحالية التي هي ضروب من الصلف للبعض وغير محتملة لدى الكثيرين، وبشكل عام مثيرة لسخط عدد كبير من الناس. لقد نبتت إذن في المبدأ الأساسي للطلائع الآتية من إنكلترا واسكتلندا في السنوات العشر الأولى من القرن السابع عشر. إنه مبدأ كلفاني(★) يقول إنه إن سمح الله أن يجتمع في الأرض الأمريكية شعب من رجال ونساء اختيروا من قبل الله، ذلك لأنه مناط به (أي بهذا الشعب) مهمة حكم العالم ذات يوم. وهكذا نفهم الخطاب الموحد لأمة قامت عام 1776، وهو أن أمريكا هي النموذج الديمقراطي المختار من العناية السماوية، وهي لا تستطيع إلا أن تكون تلك الأمة التي تدل على الطريق الذي يجب السير عليه. وعليها أن تسير هي في مقدمة ركب أمم

(★) نسبة إلى «Galvin» المصلح الفرنسي المعروف.

الأرض كافة، ولم يرَ أبداً الآباء المؤسسون والنخب السياسية والباعة ورجالات العلم والثقافة غير هذه الحقيقة خلال كل العصور.

يجهد كتابنا هذا أن يسير خطوة خطوة وأن يعرض باختصار الطريق الذي مشى عليه الحجاج الآباء حتى القادة الحاليين، الذي أوصل إلى ما يعرف بأمريكا التي غالباً ما اختفت تحت القناع، وسيترك الكتاب على جنبات الطريق كثيراً من الأمور لأن العرض الشامل في هذا المجال يتطلب أن نؤلف كتاباً تتجاوز صفحاته الألفين. وإذا طُلي القناع في مرات عديدة بألوان الرفق والرحمة والتضامن – بحسابات دقيقة – فاليوم سقط القناع بعد زوال أي معارضة جدّية وكشف عن وجهٍ بملامحه الحقيقية المكونة من القسوة والصلافة والتعجرف والأنانية وهي بارزةٌ بشكل كبير بدون شك ومبالغ فيها لدرجة أن الشعوب الأقل تمرداً ستنتهي يوماً إلى رؤيتها بوضوح.

لقد آن الأوان لأن تنقشع الغشاوة عن الأعين لكي تنظر إلى أمريكا نظرة أقل مجاملة. لن يستطيع هذا الكتاب بالطبع وهو ليس أكثر من محاولة لطرح بعض القضايا وخاصة الاقتصادية، أن يكون سوى صورة مؤقتة وليس دائمة بسبب التطور المتسارع للأحداث، إلا أنه يهدف قبل كل شيء إلى تبيان الطريق الذي مشت عليه الولايات المتحدة للهيمنة بدون شفقة على العالم. نعم إنه بارقة أمل خجولة ولكننا نأمل أن تكون كافية كي تدلنا على المراحل وتثير فينا بداية المقاومة.

■ ■

الفصل الأول :

نحو قيام الأمة المشمولة بالعناية الآلهية

من أين أتت أمريكا؟

شعر الإنكليز بدورهم بالحاجة إلى اجتياز المحيط بعد أن مضى حوالي قرن كان خلاله الأسبانيون والبرتغاليون ينهبون القارة الأمريكية. ولم تكن الشؤون الحياتية بعيدة عن هذه الحاجة التي ولّدت لدى الكثيرين الرغبة بالهروب إلى الملجأ المثالي. وصف توماس مور، مستشار الملك هنري الثامن في كتاب «الوهم Utopia»، كتائب النبلاء بالذباب الذي يقتات على جهد الآخرين. وكان الأشراف العاطلون عن العمل وغير السعداء مصدر إزعاج لأنهم لا يخدمون المجتمع بشيء عندما يُسَيِّجون الحقول ليجعلوا منها مراعي لقطعانهم الخاصة بهم حارمين بذلك الفلاحين أصحاب الدخل الضعيف من الزراعة التي كانت تمارس بكل حرية في السابق، وكان الأغنياء وهم الأقلية المحتكرة يديرون الحقول لخدمة مصالح المستولين عليها دافعين بذلك الناس الفقراء نحو الجوع والعوز. فكيف لنا إذن أن نستغرب لجوء هؤلاء الناس للسرقة من أجل العيش ؟! تذرّع ريتشارد هكلوت، في كتابه «الإبحار الأساسي، رحلات واكتشافات الأمة الإنكليزية » في نهاية القرن السادس عشر، بالوضع الصعب للاقتصاد الإنكليزي آنذاك ليشجع بقوة مواطنيه لاستغلال الأسواق الجديدة في ما وراء البحار من أجل إنتاج النسيج والاستفادة من مصادر المواد الأولية، مما يسمح بالاستغناء عن المواد الأولية التي تبيعها أسبانيا بأسعار عالية، وتمكين إنكلترا من الانتقام من منافسيها بتطبيق الحصار عليها وإغلاق المنافذ مما قد يدفعها إلى الدمار ويحطم قوتها. من جهة أخرى سيقدم إنشاء المستعمرات الجديدة حلولاً للمشاكل الاجتماعية وسيسمح بإرسال المشاغبين لاستصلاح الأراضي المستولى عليها حديثاً وبأرخص التكاليف والتخلص منهم، وفي الوقت نفسه تطوير تجارة مزدهرة بين أمريكا وإنكلترا. وعندما تنشر في هذه الأماكن غير المتحضرة الكلام الطيب وتدعو إلى الديانة الحقة والوحيدة المتوحشين الذين يعيشون فيها تكون قد أضافت للعملية الكمية المطلوبة من النفحة الإيمانية.

قـام إذن اسـتعمار أمريكا منذ البداية في إطار أيديولوجي ثنائي الهدف. كـان الـبحث عـن الثروة هو بالطبع الهدف الأساسي ، ولكن أيضاً كان هناك الهـدف الآخر وهو العمل على تمجيد خلق الله. أضاف إذن المستوطنون إرادة روحانيـة لشعب يدعي بأنه شعب مختار، لإقامة مجتمع جديد مميز قادر على إعطـاء الـدروس لـباقي العـالم وجـاءت هذه الإرادة لتضاف إلى «جوعهم للأراضـي» وإلى هشاشـة أوضاعهم. يقول المؤرخ الأمريكي دانيال بورستين حـول هذا الموضوع في كتابه الموسوعي(1):«لم يكن هناك شعب في التاريخ واثق من أنه على الصراط المستقيم مثل الشعب الأمريكي».

كـان وراء اندفـاع الحمـلة الكبرى جمعية أبرشية سكروبي Scrooby وأتـباعها هم أنصار نظرية متزمتة صارمة وقاسية. ذهب أعضاؤها في عامي 1608و1609 إلى هولـندا للـبحث عن ملجأ. وحملوا معهم في حقائبهم أفكاراً متعصـبة ورؤية متشائمة قائمة على القناعة بأن الخطيئة موجودة في كل زمان ومكـان، ولكـن كان لديهم في نفس الوقت القناعة بأن لا أحد جدير أن يلتحق بطائفـتهم بحـق إن لـم يكن مكتوباً له ذلك باعتبارهم اتباع الداعية «كالفان Calvin». ولـم يكـن يسـمح لأحد بالانتساب لهم على كل حال قبل أن يقدم البرهان على استقامته في عقيدته الدينية، كما لم يكن هناك مكان للمعترضين أو المتشككين أو لأصحاب الرأي الحر.

اسـتقلوا فـي 16 أيلول المركب ميفلوار Mayflower ووصلوا في 11 تشـرين الثاني إلى (كاب كود). وفي 21 منه كتبوا ميثاق العهد ميفلوار وتركوا المركب على اليابسة في 11 كانون الأول. فاكتسبت الهجرة إلى أمريكا بالنسبة لهـم المعنى الذي عرفته لدى المسلمين، أي كانت رحيلاً موحى به من الله من أجل بناء «صهيون» جديدة فوق أراضي بعيدة.

لقد كانوا مأخوذين بقناعة ألا وهي أنهم يجسدون قدراً سماوياً ولم يكن أحد فـي كـل مدن إنكلترا الجديدة يشك بأنه عامل إلهي. أما مرجعهم المطلق فكان الـتوراة ومـنه كانوا يستمدون رؤية الواقع بشكل مشوه. فكان كل عضو منهم يرى بأن الشعب الجديد هو شعب الله، وكل خصم (كائن من كان) يختلف معهم حـول هـذا الـنموذج اعتبر عدواً لله، وتتم معاملته على هذا الأساس. وكل ما يحـدث كـان سـببه الله أو الشيطان، وراح الكتاب ورجال الكنيسة والمثقفون

---

(1) ذكرت أسماء الكتب والمؤلفين في نهاية الكتاب انظر المراجع.

والأساقفة وعلماء الأخلاق يتنافسون بالمديح.

علـــى سبيل المثال كان وليم ستوغتون (1631-1701) وهو مواطن من ولايـــة ماساشوست، يرى أن أمريكا هي أمة اختير مواطنوها بعناية فائقة. فقد عمد الله في اختياره كما يعمل الذين ينخبون الحبوب بالغربال ويفصلون الحب الجيد عن الزوان، وهكذا باستطاعة الحب الجيد أن ينمو في وسط الصحراء.

أمـــا بالنســـبة لصاموئيل سوال (1652-1730) وهو رئيس المحكمة التي حاكمت ساحرات سالم، فقد رأى أن إنكلترا الجديدة هي المكان الذي ستشاد فيه القدس الجديدة.

وآخـــر هو مايكل ويغلسورث (1631-1705) كان واحداً من أولئك الذين أدلوا بدلائهم كشاهدين على بدايات المستعمرة الأمريكية تاركين العنان لأنفسهم لهذيان قومي وروحاني.

ووصـــف ولـــيم بـــيرد (1674-1744) في مذكراته التي كتبها بين عام 1709 و1712 مســـتوطنته حيـــث كـــان يعيش فيها حياة بطريرك يسهر على قطيعه من المؤمنين، بأنها كبلاد كنعان حيث يعيش كل من فيها بسعادة.

ولـــيس هـــناك حقاً ما يعادل من حيث النوعية والجانب الحماسي، التمجيد الذي أطلقه كوتون ماثر (1639-1723) الذي كان من عائلة مثقفة وكان كأبيه لامعاً وموهوباً وعاملاً مثابراً وقد دَرَّس في هارفرد ثم ترأسها بعد عدة سنوات، بعد ذلك عمل كراعٍ للكنيسة الثانية في بوسطون حتى وفاته. أطلق العنان لنفسه فـــي الكـــتاب الذي تركه لكي يصف خارجاً عن المألوف القدر المراد لأمريكا فكان كتاباً واسعاً ومذهلاً.

وفي تركيزه على حياة جون وينثروب حاكم مستوطنة ماساشوست من عام 1629 حـــتى وفاته عام 1649 شبّهه بالنبي موسى الذي قاد شعبه المختار إلى الأرض الموعودة. ولم ينس وينثروب نفسه رغم أنه بشكل عام كان أقل مبالغة مـــن «ماثـــر» أن يؤكـــد فـــي مذكراته بأنه وأصحابه في خدمة المسيح وأنهم يرتـــبطون معـــه بعهد وأنه حَمّلهم فريضة خلق طائفة على الأرض الأمريكية تكـــون فـــي مأمن من مغريات هذا العالم خاصة بهم، فهم جميعاً أعضاء لجسم واحـــد مـــتحد وهم شعب الله. لقد كتب يقول: «سنرى بأن إله إسرائيل سيكون بيننا، وسنقيم مدينة مشادة على رابية، وكل العيون ستتجه نحونا».

عظـــم «ماثـــر Mather» مهمـــة شـــعب إنكلـــترا الجديـــدة فـــي كتابه

(The wonders of the invisible world) الـــذي نشره عام 1693. وتقوم هـــذه المهمـــة على نشر ملك الله حتى تخوم كامل الكرة الأرضية. حيث كتب يقـــول إنه قبل مجيء الحجاج الأوائل كانت أمريكا أرضاً للشيطان الذي استخدم كـــل قوته وكل حيله ليمنع استيطان المستعمرين، فإذا فشل سيعمل جاهداً على زعـــزعة اســـتقرارهم وقلعهم من جذورهم. وسيضطهد شعب الله كما فعل ذلك ســـابقاً فـــي الجهة الثانية من المحيط وبعون جماعته الذين يساعدونه. وسيثير ضدهم مؤامرة قوامها من السحرة الذين تجمعوا في جيش من الملائكة الأشرار، وقـــد ســـبق لهؤلاء الملائكة أن عاثوا فساداً في مستوطنات مجاورة وقع أهلها معـــاهدة مـــع الشيطان، اقسموا فيها أن يساعدوه في مخططه الجهنمي وهو أن يســـحر البلاد لكي يحسن تدميرها. وقد اعترف بعض السحرة بجريمتهم فأقروا أن الشيطان أقام مجموعة من اتباعه ثم التحق آخرون بهم وكان هدفهم دائماً هو إبـــادة الديانـــة المسيحية من إنكلترا الجديدة واستبدالها بالديانة الشيطانية التي لم يسبق للعالم أن عرف أسوأ منها.

ومـــن بيـــن الدفعـــة الأولـــى للمستوطنين سوف تنبثق السمّات المؤسسة للأيديولوجـــية الأمريكية، هذه الدفعة من الاتقياء في إنكلترا الجديدة التي سوف تخلـــد من خلال تعاقبها. وهكذا تأتي القناعة الجديدة بالإضافة إلى الاعتقاد بأن كـــل عـــيون الأمم ستتجه بنظرها إلى المستوطنات، وهذه القناعة هي أن الأمة الأمريكـــية تمتلك مصيراً مميزاً وبأنها قد اختيرت لتعليم العالم شيئاً ما. وتحت تأثـــير مذهـــب كالفـــان لـــم تكن هذه الصفوة تشك بأنها من عرق ذي رسالة سماوية.حول ذلك كتب جان بيرنيجه يقول بأنه «جاء زمن الكبرياء بعد سنوات كـــان الأســـاس فـــيها العمل على البقاء، لقد تبين للأمريكيين تكاثرهم ونموهم وازدهـــارهم وتوصـــلوا عـــن طيب خاطر إلى القناعة بأن ذلك هو الدليل على حماية الله لهم لأنه كان راضياً عن فضيلتهم».

لا شـــيء يمكـــن لـــه أن يعادل الشهادة على أنه كان للأمريكيين الأوائل القـــناعة بامـــتلاك الحقيقة الوحيدة كالتأكيد التالي لفرنسيس هيكنسون في كتابه (New England's Plantation) حيـــث يقـــول:«راحتـــنا الكبرى وحمايتنا العظمى هو أن نُعلّم هنا وفي وسطنا الديانة الحقة والوصايا المقدسة لله القدير» وأضـــاف يقـــول:«وهكـــذا فنحن لا نشك بأن الله معنا، فمن القادر إذن أن يقف ضدنا إذا كان الله معنا ؟»

شعب الله:

لقـد فـرض هـذا الشعور نفسه بأن الأمة الأمريكية تجسد حقيقة سياسية واجـتماعية فـي كـل مكان، وظلّ ذلك ظاهراً في تصرفاتها حتى يومنا هذا. وكانت الأمة لا تعتقد بأنها يمكن أن تكون على خطأ لأن الله يؤيدها. ولذلك كان كـل موقف معاد لها تعتبره غير مفهوم ويوصف باللاشرعية. وكان الحكم على كـل مـن لا يظهر استقامة ارثوذكسيه في عقيدته الدينية هو طرد المذنب من المجموعـة فـي الأزمـان الأولى للتأسيس، ووجب على كل من لا يريد بناء صهيون جديدة الرحيل، ولم يكن يسمح إذن لأية معارضة.

من هنا تأتي النظرة الأخلاقية لكل المسائل ولما كانت الموعظة في القرن السـابع عشـر التي لها خاصية تميز الكلام عن الكتابة علامة التعبير الصارم وجـب إذن عـند إعطاء أي موقف رسمي العمل على إصداره بشكل خطابي علـني ومنشـور وخاصـة إن تعلق بقيم معروفة ومشتركة بدهياً بين الخطيب وجمهـوره. واتفـق معظـم المؤرخين الأمريكيين من خلال أسلوب الحياة في إنكلـترا الجديدة (عادات خشنة، بساطة في اللغة تتجه نحو الفعل، أسس فكرية) عـلى اعتـباره تجسيداً للطريقة الأمريكية في العيش أثناء القرون السابقة. أما المضـمون لم يلتفت إليه أحد بكل بساطة، وهكذا خلقت تلك الفكرة من الجمعية الرهـبانية بـأن الـرابط الذي يجمع بين البشر المشتركين بعدد من المعتقدات ينشـيء مفهومـاً ديناميكياً للعلاقات الاجتماعية يميز بين الذين يتقاسمون نفس المعتقدات عن أولئك الذين لا يتقاسمونها.

ومـن هـنا قـام مفهوم «النادي» الذي نراه اليوم في منظمات حديثة مثل الحلف الأطلسي ومجموعة الدول السبع ومجلس الأمن التابع للأمم المتحدة.

وأوجـدت الشـرعية الموجهة ميزة أخرى لمفهوم التزمت استخرجت من المعتقدات المشتركة من أسلوب الحياة قوانين يمكن تطبيقها فيما بعد على الواقع المعاشـي، ولـم يكن أمام المتزمتين في إنكلترا الجديدة أي صعوبة بإيجاد نسباً مـريحة ذات نيـة مبيته من خلال التعاليم التوراتية التي كانت تحكم تصرفاتهم ومـن خلال التشريع الإنكليزي الذي كان يؤلف الشكل التوافقي لحياتهم. وكان المفهـوم الـذي يطبق النص القانوني على وقائع عملية هو من الطبيعة نفسها للمفهوم الذي يسمح لقانون الولايات المتحدة وخاصة منذ المذهب الفقهي لمونرو عـام 1823 أن تفسر الوقائع الدولية على ضوء مصلحتها فقط. وظهرت عدة

تأثيرات تركت جميعها بصمتها في عقلية البلد مع امتلاء الأراضي بالناس.

تدين حديث العهد ، وتعنت فكري:

كـان نشـوء جماعة أصدقاء المجتمع (الأخوة البروتستانت) واعداً بسبب روح التسـامح فـي معتقدهم وقد ساعد الميثاق الذي منح عام 1681 لوليم بن عـلى نشـوئهم فجاؤوا إلى بنسلفانيا، ولكنهم لم يلبثوا أن أضافوا للإيديولوجية الأمـريكية بعـض العناصر الأقل تقديراً. فإذا كانت نظرة المساواة المبالغ فيها والظاهـرة فـي بسـاطة لباسهم وفي طريقة كلامهم قادرة على جذب تعاطف الآخـرين، إضـافة إلى تعـاطفهم مع الهنود فإنها كانت تتعارض مع الطريقة الوحشـية التي يتعامل بها معهم المتزمتون. وإذا كان لابد لحيويتهم التي أثبتوها من أن تشد الإعجاب وخاصة إذا ترافقت مع شجاعتهم ومثابرتهم إلا أن دعوتهم للشهادة وصلابة فكرهم كانت على عكس ذلك. فنـزوعهم لترك الأماكن حيث يمارسون فيها كهنوتيتهم بسلام من أجل أن يذهبوا إلى أماكن أخرى كان تعنتهم لا يسبب لهم إلا الرفض والإذلال. وهو ظاهر في أيامنا هذه وبشكل خاص في السياسة الدولية الأمريكية تحت شكل معارضة لكل حل وسط.

وتعمـد الحكومات الأمريكية على تمرير وجهة نظرها دون تنازل، وبكل تعـنت ومن دون أي تأثر بوجهات نظر حلفائها مع تمسكها بسلوك يبدو لها أنه الوحيـد القـادر على إيصالها للهدف غير آبهة بالمعارضة وبالانتقادات الأكثر شـرعية. وقد ساهمت القناعة المشتركة التي كانت موجودة لدى المتزمتين في إنكلـترا الجديـدة ولـدى الأخوة البروتستانت في بنسلفانيا بأنهم يشكلون شعباً مميـزاً، بدعـم شـعور الشعب الأمريكي المستقبلي بأنه شعب مختار من قبل الإرادة السـماوية، ومن هنا شعر أنه مُخَوَّلٌ بأن يفرض وجهة نظره على العالم أجمـع. فمـن «شـرطة الإنجيـل» إلى الأخوة البروتستانت تدرجت بعد ذلك الولايات المتحدة بشكل طبيعي حتى وصلت إلى لعب دور «شرطة الكوكب».

غموض نفسي وغياب لكل اعتبار:

إذا كـان مشـروع تأسـيس مستوطنة جورجيا عام 1730 قد اعتمد على رجـال كان لديهم التصميم على رفض فساد وأنانية العالم القديم، فإنه لم يتوان أبـداً هو أيضاً عن إبراز سلبية الروح الأمريكية. فالرغبة بالعمل الصالح التي

تبناها رجال ذوو مشروع غامض ومبهم وجامد في آنٍ واحد قد انتهى إلى الوصول إلى لا واقعية غامضة وساهم بتعزيز الأيديولوجية الأمريكية بوجهها الأكثر عناداً وغير المتسامح والذي لا يحترم كل من لا يتعايش معه. وإذا انتهت مستوطنة جورجيا بالغرق ضحية نظرية الوصاية وعدم استعدادها لكنها لم تتأخر أن تطبع أمة المستقبل بطابع نفسي مبهم ورغبة جامحة بفضل التبرعات والمساعدات البرلمانية باتباع الصرامة عند وضع بعض المبادئ التي تخلت عنها عند مواجهة الواقع بعد أن كلفت الكثير وأدت إلى الخيبة.

حكم الأقلية و«الذرائعية»:

المستوطنة الأخيرة التي ساهمت بشكل معبر بتكوين العقلية الأمريكية هي مستوطنة فرجينيا.

رغم أنها كانت قائمة منذ بداية القرن السابع عشر إلا أنها رسخت قواعد تميزها في أواسط القرن الثامن عشر، كانت فرجينيا مستوطنة أرستقراطية والأرض المفضلة للإنكليز الميسورين الذين كانوا يبحثون عن مكان ليتابعوا حياة النبلاء ملاك الأراضي، الذين تضرروا بتطور المجتمع الإنكليزي الذي جعل مستقبلهم غير واضح. وكانت فرجينيا قد أصبحت ملكاً لحوالي مئة عائلة تقاسمت الأرض والثروات وكانت هذه العائلات تتناقل الثروة عن طريق الزواج فيما بينها ضمن طبقة اجتماعية مغلقة. وبما أن أرستقراطية فرجينيا قائمة على المال أكثر من قيامها على التكاثر البشري فقد جسدت عناصر النفسية الأمريكية وشكلت الواقعية والتشبث بالعمل الشاق والنزعة لإقامة المشاريع والميل للدراسة ذات السّمة البراغماتية وروح المسؤولية وجوهها الإيجابية. إلا أنه تم تعديلها عن طريق التمثيل الرأسمالي والنزعة التجارية وما يحملانه من إفساد دنيء.

وأضحت الواقعية مضاربة والنزعة لإقامة المشاريع اتجهت كلياً نحو البحث الجامح عن الأرباح أينما وجدت ومهما كانت نتائجها ووضعت الدراسة والثقافة نفسها ضمن منظور التطبيق الصرف من أجل زيادة المداخيل والأرباح. فزالت بشكل خاص الحدود بين السياسة والاقتصاد، وأصبح المزارع رجل سياسة ولم تعد تُحكم الجماعة بغية تحقيق النفع العام. ولكن أصبحت تدار كما تدار المزارع مع التركيز على نفع المحكومين الذين هم في وقت واحد

المقـــررون والمســـتفيدون من الإجراءات المتخذة لأن بأيديهم السلطة والأرض والمال.

انشـــغلت طبقة العائلات الحاكمة بشكل كلي بالنضال ضد المنافسة الدولية وبامتلاك الأراضي ذات الأبعاد غير المحدودة، كما أنها اعتادت على التصرف بـــالأموال العامـــة حســـب مصـــلحتها المباشرة كما رأينا ذلك في حالة جون روبنسون رئيس الديوان وأمين الخزينة في فرجينيا الذي أقرض عند وفاته عام 1776 أكثر من 100 ألف جنيه من المال العام إلى أصدقائه. لهذا لم تفكر طبقة العائلات الحاكمة بتغيير أو زعزعة البنية الاجتماعية القائمة التي لم يصبها أي تعديـــل جـــدي بيـــن 1680-1750، وإذا كان كبار أهالي ولاية فرجينيا أمثال (واشـــنطن وجفرســـون وماديسون ومنرو) قد ساهموا بنجاح هذه الأمة بفضل صـــفاتهم الجديـــة وحكمـــتهم وحذرهـــم وفصاحتهم ونبلهم، إلا أنه بقي الفعل محصـــوراً بـــتأمين نجاح الثورة في الهدف الأساسي من أجل الحفاظ على نمط من الحياة ألا وهو نمط الصفوة الفرجينيية فأعطوا البلد نموذجاً اجتماعياً سياسياً كان لابد من المحافظة عليه.

إذا كـــان واشـــنطن من بين الآخرين قد انكب على العمل لتوسيع أملاكه الشخصـــية وهو الذي وصفه دوغلس فريمين بـــ «صياد الأراضي»، حذر في هذه الأثناء جفرسون مواطنيه ممن أسماهم بـــ«الأرستقراطيين المشوهين». فهو يقـــول بأنه يوجد نوعان من أشكال الأرستقراطية، ينبع الأول من سمو طبيعي ويضم أفراداً أصحاب أخلاق ومواهب الذين هم الثروة الأكثر أهمية التي يمكن أن تهـــبها الطـــبيعة للناس. والنوع الآخر هو مصطنع يقوم على الثروة وعلى الـــولادة دون أن يعـــزز بأية فضيلة وموهبة لذلك هذا النوع يجسد على عكس الأول خطـــأً خطيـــراً. ولقد ضاعت الأمة بسبب تدخلهم في الحكم. و يجب أن يحمـــي الشـــعب نفســـه مـــن هؤلاء «الأرستقراطيين المشوهين» كما يسميهم جفرســـون مـــن أجل ذلك يكفي أن نتركه ينتخب الحكام بحرية فإذا كان الشعب حراً يعرف كيف يختار بروية.

هذا الغموض بل هذه الازدواجية بين الخطاب الأخلاقي وبين أفعال الطبقة الحاكمة المغلقة استمر طيلة التاريخ الأمريكي.

الأمة الأمريكية:

كرست الثورة التي أدت إلى إعلان الاستقلال عام 1776 وإقامة السلام مع إنكلترا (1782-1783) قيام أمة متماسكة بشكل كاف حيث نستطيع أن نؤكد أن شعبها قد كون كياناً متماسكاً ليس هذا فقط ولكنها كرست أيضاً عقلية مؤلفة من شبكة عناصر أيديولوجية لم تتبدل جوهرياً. وعلى رأس هذه العناصر القناعة المترسخة أكثر من أي وقت بأن الدولة الجديدة قد اختارتها الإرادة السماوية ومن هذا الخيار نتج فيما بعد الشعور بواجب القيام بهذه المهمة الكونية بجدارة.

الصفح التاريخي:

بعد أن اتخذ الأمريكيون بعدهم الشخصي عن الوطن الأم السابق إنكلترا، لم تتأخر الفكرة التي وضعها الأمريكيون لمتابعة المسيرة من أن تتخذ طريقاً لها. هذا التباعد لم يكن فقط سياسياً بل أصبح أيضاً ثقافياً، فمنذ عام 1770 حيث تمت القطيعة على الصعيد الفكري كان واضحاً للجميع بأن الهجرة إلى قارة شمال أمريكا ستؤدي لقطيعة نهائية تماماً كما حدث بالسابق مع الأنكلوسكسونيين الذين تركوا شواطئ البلطيق واتجهوا إلى الشواطئ الإنكليزية، أو كما حدث مع العبرانيين الذين وصلوا إلى الأرض الموعودة. وبسرعة فائقة كانت القطيعة الزمانية والمكانية واقعة. واعتبر الأطلسي هذا الحيز المكاني الشاسع الذي لا يعود لأحد كحدود طبيعية على الصعيد النفسي وكذلك شجع العزلة المكانية. أما بالنسبة للزمان فيندرج رحيل الطلائع الأولى للمهاجرين من أوروبا في الإطار المنطقي لتاريخ سماوي، تاريخ ميلاد أمة جعلها الله أمته من أجل أن تكون أداة لإرادته.

من هنا برز غموض أساسي بل ازدواجية في المفهوم الذي جعلته الولايات المتحدة لقدرها. غموض وصف بدقة من قبل اليز مريانسترس Elise Marienstras. فقد أرادت لنفسها أن تكون خارج الزمن وخارج التاريخ ولكنها في الوقت نفسه أرادت أن تكون وريثة الحضارة الأوروبية التي حملت منها المشعل. لذا كرست الأمة الأمريكية نفسها لهذه الثنائية في خطابها وفي الصورة التي أعطتها عن ذاتها. إذ لم تنتج الثنائية عن مفهوم ثقافي ولا عن

مفهـــوم تـــاريخي ولا عن مفهوم دولة الأمة حسب رؤية هيجل ولا عن مفهوم جـــان جـــاك روسو لها، فهي شيء من كل هذا، فكلها مفاهيم تضافرت للتواجد فيها.

بلا إنها روسويه طبقاً لمنشئها التعاقدي حيث أنه يفرض استمرار وجودها طالمـــا لا تنفصم العلاقة القائمة بين المواطنين. بالطبع هي مصطنعة قامت من إرادة الأفـــراد الذين شكلوها لذا تندرج ضمن إطار كيان جديد قام على أرضية وضـــعت جانـــباً كـــل مـــوروث فكري (الصفح) ولكن وبعيداً عن هذا التوافق المفـــترض يضـــاف إلى هذه الثنائية في المفهوم مفهوم آخر له طبيعة تاريخية وعرقية في الوقت ذاته.

وبالرغم من إعلان مؤسسي الولايات المتحدة قطيعتهم مع إنكلترا وأوروبا وبـــأنهم أنقيـــاء من أي خلفية تاريخية أو أي استمرارية زمنية إلا أنهم اعتبروا أنفســـهم استمراراً للغة ولثقافة ولتقاليد قاموا باعتمادها وأرادوا عن طريقها أن ينصبوا أنفسهم مرجعاً مطلقاً لباقي العالم. وبما أنها ذات هوية عضوية مختلطة الأجـــناس لذلـــك كانت الأمة الأمريكية ملاذاً مفتوحاً للجميع، وقامت في الوقت ذاتـــه باســـتبعاد كل من لا ينتمي إلى تعريف اثني ضمني: إنها الأمة البيضاء الأنكلوسكســـونية البروتستانتية التي شكلت «عرقا» مميزاً، وينبغي أن ينصهر في قالبه كل راغب للانتساب للأمة حتى يصبح المنتسب جزءً منها. ومهما فعل الســـود والهـــنود فهم إذن بطبيعة الحال مستبعدون من الأمة، إلا إذا تخلوا عن هنديـــتهم وعـــن زنجيتهم. وفي نهاية المطاف وعلى كل المستويات فإن الأمة الأمـــريكية تقوم على الاستبعاد والعنصرية، رغم أنها تنفي ذلك بقوة. الاستبعاد أولاً هـــو اقتصـــادي لأن السلطة الحقيقية مصادرة من قبل طبقة المالكين رغم وجـــود نوع من الحركية الاجتماعية بسبب تعظيم فكرة تشجيع إقامة المشروع التي ظهرت بشكل كبير أثناء الانقضاض على حقول تبر الذهب وعلى أراضي الغرب. ولكن الاستبعاد ليس فقط اقتصادياً، فقد استقرت في العقول رؤية للواقع ثـــنائية القطـــب حيـــث نميز من جهة الجانب الحضاري (المسيحية والأوروبية الغـــربية) ومـــن جهة ثانية الهمجية (الهنود ثم السود). أمام الضرورة التي كان عـــليهم إثباتها من أجل تبرير قيام الأمة بحث الأمريكيون عن طريقة يتمكنون فيهـــا أن يـــتميزوا عن الشعوب التي تعيش معهم على الأرض نفسها، ولكنهم يختـــلفون عن الصورة التي أعطاها الأمريكيون لأنفسهم كأوروبين ، فهم حسب ما كانوا يصرحون به على درجة أعلى منهم ومكلفون بمهمة مقدسة.

تتجسد هذه الثنائية القطب في صورة معقدة تتألف من وجه إيجابي ظاهر للعيان وآخر مظلم مخبأ ولكنه مع ذلك محسوس. وإضافة لكونها أمة تعاقدية فهي أيضاً عضوية لأنها متوارثة من هنا جاء تقديس المؤسسات واللغة الأم وتعظيم مكانة الأبطال المؤسسين. إنها الأرض التي طلبت الحرية والتسامح ولكنها أيضاً أرض الاستعباد الاقتصادي والاتني، ورغم كونها خارج التاريخ والزمن إلا أنها لم تكن أقل ارتباطاً بالتاريخ عن طريق أصل شعبها وعن طريق الرسالة التي كان هذا الشعب يعتقد أنه مكلف بها. ورغم أنها شيدت على قيم أممية إلا أنها انفردت بعدد لا يحصى من القيم المصطنعة، أما ادعاؤها بأنها تشكل مزيجاً متجانساً فقد قام على حساب قسم من الشعب نحي جانباً لأنه مختلف.يكفي الموقف من الهنود وحده لإظهار وجهها غير المتسامح والعنصري والمستبد. أصبحت الحادثة الأولى أسطورة تتكلم عن العلاقات ما بين الهنود والمستوطنين، إنها حادثة جون سميث الذي نزل في فرجينيا عام 1606 وأسره الهنود ثم أنقذته الأميرة بوكاهانتس. كتب سميث يقول:«إن الله القدير قد دب الرحمة في قلوب هؤلاء البرابرة القساة وجعل قلوبهم ترق». ووصفت ماري رولندسون التي وقعت أسيرة أيضاً بأيدي الهنود بين 10 شباط و 2 أيار 1676 اللحظات التي قضتها معهم ولاحظت منذ الليلة الأولى زئير وأناشيد ورقصات وصراخ هذه المخلوقات السوداء في الليل التي جعلت من المكان أشبه بجهنم، ولم تكن ترى فيهم إلا وثنيين قد رأى الله الرحيم أنه من المفيد الاحتفاظ بهم فكانوا تحت سيطرة الشيطان حتى أثناء تدخينهم التبغ الذي كان خدعة يستعملها إبليس لكي يذهب بعقولهم. وقد ذهب «كوتان ماسر» إلى أبعد من ذلك فقال:«إن الشيطان قد درب الهنود واتى بهم إلى هنا ليمنعوا أصحاب الإنجيل من تهديم سلطته المطلقة عليهم».

لقد كان الموقف من الهنود على درجة من العدائية فيما عدا الأخوة البروتستانت (الكوارتز) ورجل ذو فكر متنور وهو روجيه وليامز الذي فر إلى رود إيزلند ليهرب من ملاحقة المتعصبين، مما أدى إلى وجود هوة واسعة بينهم وبين البيض. فإذا كان الهنود يشكلون حضارة تمتلك ثقافات متنوعة وتعرف الطب ولديها رؤية حقيقية سياسية ورؤية كونية وديانة وأدب شفهي يحتوي على أساطير وكان هذا غريباً بشكل كامل عن رجال تمسكوا بالوحدانية التي استقوها من الديانة التوحيدية غير المتسامحة وكانوا لا يرون أي تنظيم بشري غير تنظيمهم ولم يكن الأسبانيون والبرتغاليون أكثر انفتاحاً على شعوب أمريكا

الموجودة قبل عصر كولومبس.

ورأى الأمـــريكيون أيضاً في الهنود قبل كل شيء فوضى عالم واقع تحت سـيطرة الشيطان والتقوا بسبب طبيعتهم الفاسدة مع كل الوثنيين وكل الشعوب غيـر المسيحية، وضربوا عرض الحائط بالإرادة الإلهية وعاشوا حسب قانون الطـبيعة لينشـروا الفساد. إنهم إذن قناصون أي متمردون على الحضارة لأن الـرجل المتحضـر هو الذي يفلح الأرض ويستثمرها ولا يكتفي فقط بالجلوس فوقها.

ولخصـت أليـز مريانسـترس فـي كتابها الأكثر شهرة حول الأساطير المؤسسـة لأمـريكا المواقف الأربعة الرئيسية للبيض تجاه الهنود. أولاً الفكرة القائـلة بأن الهنود هم سيئون بطبيعتهم لأنهم أتباع الشيطان ويجب بكل بساطة القضـاء عـليهم. وكـان هـذا موقف المتعصبين وموقف رجل اسمه هنري بركـنريدج (1748-1816) وهـو إسـكتلندي هاجـر إلى أمريكا عام 1753 وشارك بتأليف قصيدة المدح The rising glory of America (بعث النهضة الأمريكية).

الموقف الثاني هو أكثر اجتماعيةً وقد نتج من مفهوم مختلف بين الطائفتين لأمـور اقتصـادية. فبالنسـبة للـبيض هـناك أفضلية إجبارية للفلاحين على الصيادين.

الموقـف الـثالث يـندرج ضـمن إطار الرؤية الزمنية. فحسب المفهوم المسـيحي للـتاريخ يبدو هذا الأخير ذو اتجاه مستقيم ويفرض نمواً ثابتاً باتجاه الحضـارة. والهـنود موجودون كما يبدو في مرحلة لا تزال بدائية إذن متخلفة عن هذا النمو.

الموقـف الـرابع هو أكثر ذرائعية: فالهنود يعيشون على أرض يحتاجها البيض ولا يمكن تصور الملكية المشتركة، إذن أمام الهنود خياران هما الهجرة أو الزوال.

سـيأتي زمـن يتمتع فيه الهندي بصورة إيجابية، وذلك فقط عندما تصبح صـورته أداة جذابة بالنسبة لأوروبا، وستبصر النور حينها أسطورة «الهمجي الطيـب» الـبريء الذي يعيش حياة مسالمة يحسد على مصيره أكثر من الفلاح الأوروبي. ولكنه يبقى جاهلاً وبدائياً تعيساً وبربرياً بالنسبة للمواطن الأمريكي. وهكـذا أصـبح الهـندي حكيماً وشجاعاً ومحباً للحرية ونموذجاً لكل الفضائل الـبدائية بالنسبة للأوروبي المسحوق، وباختصار وكما ذكرت مريانسترس «لقد

استخدم الهندي في الكتب إلا أنه رفض في الواقع».

ومـــع مرور السنين وازدياد الحاجة الماسة للأراضي أخذت العدوانية نحو الهنود تتبدل إلى كراهية. إن المستوطنين الذين لم يُتَحْ لهم بالغالب البدء بمتابعة الحيـــاة لـــولا مســـاعدة الهنود كانوا يفكرون بأنهم ليسوا مدينين نحوهم، وليس عليهم أي واجب تجاههم، ولم يعاملوهم على صعيد المعتقد إلا بالاحتقار، وعلى صـــعيد التصـــرفات كانوا يعاملونهم بعدم الاحترام بعيداً عن التسامح. وقد حكم عـــليهم بأنهم على نقيض هذا الزمن وليس لديهم أي تنظيم سياسي أو اجتماعي. أمـــا المســـيحية الـــتي رفضـــها الهـــنود لأنها غريبة عنهم فقد برّرت المذابح والخيانات والجحود والسلب. لقد كان المستوطنون يعتقدون أن الله يحميهم بإبادة الهـــنود بكل أنواع الأمراض الوافدة من أوروبا، فالشعب المختار يفتخر بالقيام بالحـــرب ضـــدهم التي انتهت بإبادة البيكو وشَكَرَ المستوطنون الله الذي ساندهم بشـــكل رائـــع بعد حملة 1637. وقد وقّعوا مع الهمجيين بعض الاتفاقات ولكن تعطشهم للأراضي كان قوياً، لذلك كانوا يتخلون عن التزامهم.

كان المصير الذي وصلوا إليه أخيراً معبراً. لقد كتب أيف هنري نويلهات يقـــول:« أما بالنسبة للهنود وبعد أن أخذت منهم أراضيهم أخذ شعبهم يتناقص. لقد انتهت الحروب الهندية مع بداية القرن العشرين، وفي عام 1910 كان عدد الهـــنود لا يزيد عن 220 ألف وقد كانوا 600 ألف نسمة عام 1776 معظمهم كـــان يعيش في مقاطعات على أراضي فقيرة جداً لجذب الوافدين الجدد البيض. لقد جُردوا تقريباً من كل شيء» وبقي لهم 90 مليون أكر (الأكر يساوي 4آلاف مـــتر) من أصل 137 مليون أكر كانت لهم عام 1887وحصلوا في عام 1924 عـــلى المواطنية الأمريكية إلا أنه كان عليهم التخلي عن كل ما يمت بصلة إلى (هنديـــتهم). واليـــوم لا يحســـدون على وضعهم فثلثهم يعيش تحت عتبة الفقر وحذرهـــم مـــن البيض بقي على حاله. يؤكد رافن سلفا وهو معد أحد البرامج الإذاعيـــة لـــلكلام عن شعبه واسمه « دائرة الأمم الحمراء» بأن الأمريكيين لم يحاســـبوا ضـــمائرهم ولن يفعلوا هذا أبداً. لقد قال: «أمريكا هي آخر مكان في العـــالم يعـــترف بأخطائـــه. هذا البلد مصاب بفقدان ذاكرة جغرافية وتاريخية، فأمـــريكا تخترع تاريخاً لها خلال حقب منتظمة وهوليود تستخدم كسحر نفسي أمـــريكي ودولي». لقد منح الكونغرس الأمريكي الهنود حرية ممارسة معتقدهم الديـــني عـــام 1976 وهـــم الآن عام 1997 لديهم شكوك حقيقية حول إمكانية متابعة العيش.

لــم يكــن الســود أوفر حظاً من الهنود إذ إنهم لم يتمكنوا من أن يصبحوا جــزءاً مــن الأمة الأمريكية. ورغم أنه كان هناك في كل زمان رجال يرثون لحال السود العبودية إلا أنه لم يحدث الاعتراض على هذه العبودية بشكل جدي إلا مــع منتصف القرن التاسع عشر. قبل ذلك حسب ما كتبت مريانسترس كان الأسود يعتبر «كأحد عناصر الاقتصاد الغربي بمجمله». إنه وسيلة وآلة لم يفكر أحــد بشكل جدي بالتخلي عنه. « السود هم كتلة غامضة وبضاعة وقطعة أثاث جــيدة»، وأخــيراً طرحت فكرة اعتاق العبيد نتيجة التمازج بين التيار الإنساني المسيحي والأيديولوجية التحررية وأدت في النهاية إلى منع أمة تشملها العناية الآلهــية ألا وهي أمريكا من قبول قيام مؤسسة موجودة على أراضيها بحرمان بعــض بني البشر من حريّتهم. ولكن كل هذا لم يصل إلى إدخال السود كأحرار إلــى مجموعة المواطنين. كان البديل إعادة السود إلى أفريقيا أي من حيث أتوا أو إعطــاءَهم أرضــاً فــي الغرب الأمريكي الذي لا يزال غير مأهول. المهم الأبعــاد النهائــي لفكرة الاندماج الحقيقي. فالأسود وهو بطبيعته كائن أدنى من الأبــيض وسيبقى دائماً كذلك. ذكرت مريانسترس كاتب أمريكي مثل سان جون توكــر الذي تقبّل فكرة عتق العبيد أي إلغاء الرق كونها ضرورة ولكنه عارض كــل فكرة تدعو إلى مساهمة السود في الحياة السياسية للبلاد. «وكذلك لم يؤمن جفرســون أنــه مــن الممكــن إدمــاج كائنات إنسانية لم تتلق شيئاً من الإرث الأنكلوسكســوني في الديمقراطية الأمريكية. وكان جون توكر مقتنعاً بأن متعة الحــرية كمــا هــي موجودة في الولايات المتحدة لا يمكن أن يستوعبها السود المحــررون». والواقع الفعلي الذي أتى بعد ذلك مع التحرر سنة (1863) يتكلم عــن نفسه. ففي كل ولايات الجنوب أعطي السود بشكل عام سنة واحدة لترك أراضي الولايات الجنوبية، ولكن بما أن الولايات المجاورة أقفلت حدودها بوجه الســود انــتهى الأمر بهم أن يعودوا إلى وضعهم السابق كعبيد. لذا وضمن هذا الواقع كان التمييز العنصري هو النتيجة المنطقية منذ سنة (1883).

اســتحالة دمجهم في الأمة تجد منبعها في الأيديولوجية التي كانت العامل الرئيســي في تأسيس الأمة. تُوَضّحُ مريانسترس وتقول: « أن تفتح الباب للسود وقبلهم الهنود بالدخول إلى المواطنية هذا يعني إدخال مفهوم التعددية إلى حد قد يــبدل بشــكل عميق صلب النظام» ويكون ذلك غريباً بشكل كامل عن المفهوم الــذي لــدى الأمريكيين عن طبيعتهم كشعب مختار لديه رسالة. «كذلك لم يكن المســتوطنون يستطيعون قبول المجتمع المتعدد الأعراق حيث يمكن للخلاسيين

أخـــذ مكان وسيط كما أن مواطني الجمهورية الجديدة لا يستطيعون قبول وجود عناصر مختلفة في المجتمع المدني.

يجب على الأمة الأمريكية أن تكون موحدة العرق. «تُعرف الأمة بانتمائها للعـــرق الأبـــيض وبلحمـــتها حول المصلحة المشتركة ويجب تحاشي التسلسل والثنائية أيضاً لأنه علينا الاحتفاظ بالسود خارج المجموعة عن طريق العبودية وتركهم في الوقت ذاته ليلعبوا دورهم كأدوات اقتصادية فمن الجانب النظري لم يحصــــل الأســـود الأمريكـــي الذي تمَ الاعتراف به ككائن بشري على أيٍّ من الامتيازات التي اعترفت بها الأيديولوجية السارية المفعول كحق للبشرية في كل مكان من هذا الكون».

علينا أن ننظر إلى هذا الموقف على ضوء واقعتين تاريخيتين على الأقل. أولاً يجب الاعتراف أن طرد شعب بواسطة شعب آخر يملك الأكثرية في بلد ما لـــم يكـــن حينها شيئاً جديداً ولا الظاهرة الأكثر تطرفاً للواقع القائم. وثانياً علينا الإشـــارة هـــنا إلى درجة كراهية استعباد السود لدى قسم من الشعب الأمريكي وهـــذا الأمـــر لا ريب فيه. وما كان دانيال بورستين قد اسماه «بالجزيرة» أي الجـــنوب العبودي أخذ مع مرور السنوات يلاقي عدم تفهم من قبل عدد متزايد مـــن المجموعات البشرية في الاتحاد غالباً خارج الجنوب ولكن أيضاً في داخله كمـــا أن دور الوســـيط اللندني المزارع قد اضمحل أمام دور الوسيط الفرجيني الذي أخذ على عاتقه كل الهموم الإدارية، وهكذا تلاشى التطور الذي كان يميز الملاكيـــن في الجنوب مما أدى إلى أفول في الرأسمالية الجنوبية التي كانت قد حجـــرته.وأمـــام الهـــوة الإجتماعية المنحدرة من أصل قديم التي كانت تفصل العـــائلات عـــن مئات الألوف من المهاجرين السود الذين أتوا من أفريقيا دون إرادتهـــم وقـــف الرجل النبيل غير مبال مستسلماً لسبات مريح. ولم يأخذ بعين الاعتـــبار الســـود حتى كمهاجرين لأنه حكم عليهم بأنهم غير قابلين للانـــدماج فمن كتاب بنجامين لندي Genius of universal Emancipator الذي نشره عام 1821 إلى إبراهام لنكولن مروراً بالحركة الأمريكية ضد العبودية (1833) والمقـــالات الحماسية لليبرالي وليم لويد غارسون عام 1831 لم تتوقف الموجة المعادية للعبودية عن التضخم والازدياد.

الأمة الثنائية الوجه:

أمــريكا الــيوم هي أقرب ما تكون لأمريكا الأمس، أي أنها ذات وجهين، فمــن جهــة هناك الوجه الذي تحاول أمريكا بكل قواها إبرازه للعالم. وبما أنها أرادت لنفســها أن تكــون ابتكاراً شاملاً وتجديداً كاملاً وإعادة بناء انطلاقاً من خطــة إلهية لذلك وجدت في نفسها مكان اللقاء مع الفردوس حيث بدء التكوين، الفــردوس الضــائع الــذي طالما تكلم عنه الأدب الأوروبي. هو المكان الذي يمــارس الناس فيه نقاوتهم حيث يعيدون أمجاد العصر الذهبي، أما الناس الذين ســيقيمون فــيه سوف يجدون البراءة الأولى محاطين بهالة من السلام والوئام المــلازم للطبــيعة المعطــاء قبل العقد الاجتماعي. أمريكا هذه هي إذن القدس الجديــدة، الكون الموجود خارج التاريخ نتيجة تضافر إرادتين: الإرادة السماوية وإرادة الشــعب الذي اختارته السماء لتنفيذ هذه الإرادة. وسوف يوضح جورج واشــنطن هذه الفكرة عن التدخل الإلهي بواسطة تصور مشهور استعاره بدون شك من آدم سميث فقد قال في مقالته Inaugural Adverse « لا يوجد شعب في العالم أكثر من شعب الولايات المتحدة مطالب أن يشكر الله ويعبد اليد الخفية التــي سيرت قضايا الناس. فكل خطوة سمحت له بالسير على طريق الاستقلال القومــي كانــت تحمل علامة التدخل السماوي». أما بالنسبة للرئيس جون أدمز (1735-1826) فــإن الولايات المتحدة هي المكان الذي قدر له أن يكون الحيز الــذي سوف تتحقق فيه سعادة العرق البشري. أما بالنسبة لكل الأمريكيين كانت أمــريكا المكــان المخصص مسبقاً والملجأ الذي تنتقل إليه الحضارة من مرحلة انــتقال نحــو الأممية وتحرر الكرة الأرضية بمجملها. هنا سوف تتحقق حقوق الإنسان وهذا الإنجاز سيؤدي لولادة مجموعة دولية يقودها الشعب الوحيد الذي يســتحق هذا الشرف. أمريكا هي الرحلة المثلى لتحقيق مبدأ الأمة الذي سيتوطد بواســطة نصــوص مقدســة (إعلان الاستقلال و الدستور) وبواسطة المشاعر الوطنية في كل مكان. وحكومته هي الوحيدة التي لم يسبق لله أن أيد مثلها.

ومــن جهــة أخــرى هــناك الوجه المستتر لأمريكا الذي حاولت إخفاءه وإنكــاره، الــذي يقابل بالرفض في كل مراحل تاريخها. إنها أمريكا الاستبعاد، أمــريكا العنصــرية التي تحلم بعالمية في المستقبل معنوية وغير مجسّدة عنها وهــي قانونــية صرفة. إنها تلك التي تريد أن تزوّد العالم بمؤسسات ذات وجه واحد قادرة في كل مكان على فرض حضارة قائمة على نموذج واحد ترى أنه

النموذج الشرعي، وهذا النموذج هو نموذجها. فهو شرعي لأنه أعلى من كل النماذج الأخرى، فأمريكا هي أمة مصطنعة وقياسية وعقلية إذن هي الأمة المثلى. قلدتها مثل جوزيه ومثل النبي موسى هم وسطاء بين المواطنين والإرادة الإلهية. ومن هنا قام مفهوم اعتبار الأبطال المؤسسين كأولياء. فواشنطن وجفرسون وفرانكلين والآخرين اعتبروا أفراداً فوق البشر وغير قابلين للفناء. وقد تغذت هذه الفكرة الأساس من التوراة ومن معتقدات المتشددين وربما أيضاً من الفلاسفة لأن الأيديولوجية لها أيضاً وجهان مثل قطعة النقود المعدنية (وجه وخلف).

الوجه هو التصوف والتدين والتعلق الهذياني بفكرة الأمور السماوية والعالم الآخر. والخلف هو الليبرالية الاقتصادية وقاعدتها الفلسفية. ونحن نذكر أن مختلف المستوطنات كان لها أيضاً مؤسسون وقد برر هؤلاء استيلاءهم على الأراضي بالميثاق الذي كانوا قد حصلوا عليه من الملك كميثاق شركة إنكلترا الجديدة أو ميثاق شركة فرجينيا. آخرون كانوا «لوردات» ملاك أراضي من الطبقة الارستقراطية في ميرلاند وفي نيويورك وبنسلفانيا بعد نكسة شركة الهند الغربية الهولندية ونيوجرسي والكرولينتين وجورجيا. هؤلاء الناس لم ينسوا بالطبع أنهم جاءوا لإقامة مملكة الرب ولكنهم لم ينسوا أبداً بأن عليهم أن يقيموا مشاريع ويكسبوا الأموال. وفي عالم الأعمال لا يصعب علينا المزاوجة بين الواجب الإلهي وكسب الثروات المادية. هذا التزاوج كان من طبيعة الأشياء. فكل متمسك بالدين يعلم باعتباره كان قد قرأ ما كتبه «دانيال دفوه» أنّ من يقيم منشأة منتجة تدر له الأموال، وبالتالي فإن النجاح المالي هو دليل على أن الله يوافق على ذلك، وأن نعمته هذه هي مكافأة على الجهود وقد أنعم بها على من جنى الأموال. في رواية روبنسون كروزوه يبرهن دفوه بأنه لا توجد علاقة سعيدة بين الناس إلا إذا تعاملوا كشركاء جيدين... الله نفسه قدم كشريك لكل عمل تجاري. كل الأباء المؤسسين من فرانكلين إلى جفرسون إلى واشنطن كانوا قد قرؤوا دفوه ولكنهم قرؤوا أيضاً آدم سميث وديفيد هوم وأرموند بورك وجون لوك ومرجعهم التاريخي كان الثورة الإنكليزية عام 1688. وكان دفوه قد أدعى قيام عصر جديد عصر التجارة والحس السليم. وكان على نخبة هذا العصر ممن كانوا يعرفون بالعباقرة والموجهين من قبل العناية الإلهية لإقامة عالم منظم ومريح.

المهمة الكونية:

كانت أمريكا بالطبع أمة الانفصال ولكنها كانت أيضاً أمة الإعادة والتجديد. إن الأمـــة الأمريكية التي كانت مشعل البشرية والتي وضعها الله على الأرض مـــن أجـــل إقامـــة الجمهوريـــة الوحيدة المشمولة بالعناية الآلهية والتي أعلنت استقلالها عام 1776 مدعومة بأيديولوجية لا تتزعزع، هذه الأمة كانت مستعدة لتـــنظر إلى أبعد من أفقها المباشر. بنجامين فرانكلين رأى أن الولايات المتحدة ســوف تلد مجتمعاً شاملاً يعمّ الكون. فالمؤسسات والعادات والمبادئ الأمريكية مكرســـة لكي يتم تطبيقها في كل مكان. ولكي تلغي كل خلاف مهما كان نوعه بيـــن الناس، وباعتباره بلداً نموذجياً كانت أمريكا بالنسبة لمواطنيها تسمو على كـــل الأمم الأخرى، ومن أجل ذلك كانت مدعوة لكي تحل في نهاية الأمر محل تلك الأمم بشكل نهائي.

إضـــافة لهـــذه المهمة المثلى المطموسة الأثر كان هناك ضرورة التوسع بالأراضي. ولكي نفهم جدياً تصرف الولايات المتحدة حتى في أيامنا هذه علينا أن نعـــرف مفهومهـــا للأرض وللحدود. هذا المفهوم ليس نفس مفهوم القانون الدولي. بالنسبة إليهم الحدود القومية هي مبهمة متحركة ودائمة القابلية للامتداد. فالكـــرة الأرضـــية المقســـمة إلى دوائـــر مـــتحدة المركز انطلاقاً من الأرض الأمـــريكية متســـعة نحو الخارج كانت موضع رهان كبير على رقعة شطرنج. ورغم أنها ليست عسكرية فهذه القابلية للامتداد قد تمت بطريقة مرتبطة بالثنائية الأيديولوجيـــة فهـــي المثال لكيفية الفتح الإلهي من جهة ومحو كل بنية سياسية واجـــتماعية لكل كيان غير أمريكي بواسطة جعل الوسائل التجارية ليبرالية من جهـــة أخـــرى. في خطبة الوداع عام 1796 كان جورج واشنطن واضحاً إزاء ذلك وفي الوقت نفسه كان مؤسساً فقد أكد «بأن قاعدة سلوكنا الكبرى تجاه الأمم الأجنـــبية يجـــب أن تعتمد على بسط وتوسيع علاقاتنا التجارية، ولكن يجب أن يكـــون لدينا علاقة سياسية أقل ما يمكن معها { ..... } ويجب ألا تعتمد سياستنا الحقيقيـــة عـــلى علاقـــات دائمة مع أي جهة في العالم». فما كان أعتبر بشكل خاطئ رغبة في الحياد ما هو عملياً إلا تعبير لإرادتين. الأولى هي الحفاظ على الانعزالية التي تسمح لليد أن تبقى طليقة وتحافظ على تأثيرات خارجية بطبيعتها غيـــر المـــرغوب فيها لأنها تساهم بعملية «الأمركة» السماوية ثم الحفاظ على انفتاح في كل الاتجاهات وعلى السريان في عروق الكرة الأرضية الشيء الذي

سيسمح للولايات المتحدة من التوسع بمصالحها الاقتصادية.

من التوسع الجغرافي إلى السيطرة الاقتصادية:

مـــا بين الثورة الأمريكية وحرب الانفصال كان على الولايات المتحدة أن تعمل لإنشاء وتثبيت أقليم أرضها القومية.

السيطرة على الدائرة الأولى:

تمـــيز بعـــض التواريخ مراحل هذه السيطرة. في عام 1785 أعطى صك بيع أراضي الغرب البداية الرسمية لتملك الأرض حتى المحيط الهادي مما جعل جـــاك بورتس يقول:«إن التوسع الأمريكي في النصف الأول من القرن التاسع عشـــر كان قبل كل شيء شكلاً من أشكال الاستعمار». في عام 1803 امتدت الأمـــة إلـــى لويزيانا التي تم شراؤها من نابليون، وتوطدت عام 1810 آليات الموقـــف المستقبلي الإمبريالي عندما أصبحت فلوريدا الغربية «ملكية» أي ملكاً أمريكـــياً «عن طريق الاستيطان والثورة المفتعلة» حسب رأي جان برنجه وفي عام 1819 بواسطة «التدخل والضغط في منطقة فلوريدا».

فـــي عـــام 1823 حدد الرئيس مونرو من جانب واحد كما سنرى النظرية التي ستحمل من ذلك الحين فصاعداً اسمه، كتب جان بيرنجيه يقول بأن رسالته إلـــى الكونجـــرس «حددت القارة الجديدة كأرض ذات وحدة متكاملة والولايات المـــتحدة هـــي الحامـــي المميز لها». ومع مرور الزمن أصبحت نظريته هي عصـــب الدبلوماســـية الأمريكـــية ومـــن حينها لم يعد مستغرباً أن نرى رجال الأعمـــال الأمريكييـــن أول من اهتم بهذه النظرية لمونرو، فالتجارة مع أمريكا اللاتينـــية نشيطة وبدأت رؤوس الأموال استثماراتها فيها. لقد كانت الرغبة في توسيع الأرض والنفوذ في وقت واحد باتجاه الجنوب جامحة مما يفسر كيف أن الأمريكيين لم يقاوموا هذا الانجذاب الذي مارسته المكسيك.

المكسيك المغتصب:

المـــراحل المختلفة للنضال من أجل استقلال المكسيك وهي بلاد على صلة مباشـــرة مع الولايات المتحدة معروفة بشكل كاف. فعندما وصلت المفاوضات بيـــن أوتربيد زعيم الخلاسيين والفيريرو زعيم الثوّار إلى إعلان الجمهورية في عـــام 1823 تصارعت فصيلتان على البلد: المعتدلون أو المودرادوس (وسط)

الذيـــن اســـتهواهم الـــنظام الجمهـــوري على الطريقة الفرنسية ضد البيروس (الفيدراليـــون) الذين تطلعوا باتجاه الولايات المتحدة. دام الصراع حوالي ثلاثين عامـــا ونـــتج عنه بروز قادة عسكريين طامحين وأبرزهم سانتا أنا عام 1833 الذي أصبح ديكتاتور المكسيك وجابه استفزازات الأمريكيين باحتلاله قلعة ألامو Alamo عام 1836.

ســـوف تشـــكل تكســـاس الأداة الرئيسية في الاستراتيجية الأمريكية تجاه المكســـيك وبمـــا أنها كانت ضمن الأراضي المكسيكية بعد أن حصل المكسيك عـــلى اســـتقلاله فقد تم الاعتراف بها كجزء لا يتجزأ من هذا البلد في معاهدة أدامـــس-أونـــس عام 1819 ولكن منذ عام 1821 جاء مستعمرون أمريكيون بقيادة ستيفن أوستين وأقاموا في تكساس وبشكل سريع أصبحوا يشكلون الأغلبية وأقـــاموا دولـــة تســـتخدم الـــرق وأساليب العبودية وتعتمد على زراعة القطن. وفرضـــوا شكلاً من الحكم الذاتي على الحكومة المكسيكية، ورفضوا الانصياع لـــلحكومة عـــندما رفضـــت أن تعطيهم ذلك وأدت ثورتهم إلى مذبحة آذار عام 1836 وولدت رغم ذلك وفي الثاني من آذار من السنة نفسها جمهورية تكساس فســـارع مباشـــرة الـــرئيس جاكســـون للاعـــتراف بها. وبعد تسع سنوات من الاســـتقلال الفعـــلي ورغبة من الرئيس تيلر بدعم مطالب الجنوبيين الذين كانوا يـــرون في تجارة القطن بين تكساس والدول الأوروبية (خاصة فرنسا وإنكلترا) عقـــبة لتوســـعهم قام تيلر وبكل بساطة بضم تكساس نزولاً عند رغبة الأغلبية التكساسية التي قدمت من الولايات المتحدة وأصبح ذلك أمراً واقعاً تحت الولاية الرئاسية لجيمس بولك في الأول من آذار 1845.

فـــي ذلـــك الحيـــن كان الديمقراطيون لا يزالون واقعين تحت تأثير مقال الصـــحفي جون أوسليفان الذي نقل إلى قرائه في صحيفة يوناتيد ستيت ومجلة الديمقـــراطيين ما كان جون هافر يسميه «إمبرياليته العدوانية». لقد طالب فيما اشتهر بعد ذلك بمبدأ «المصير الجلي» مبرراً بواسطته المطامع التوسعية لجزء كبير من الرأي العام الأمريكي.

ولـــم تقـــف حكومـــة المكســـيك مكتوفة الأيدي أمام ضم تكساس مما دفع بأوسليفان أن يرى في ذلك فرصة متابعة «توسع الولايات المتحدة حتى المحيط الهـــادي» هـــذه الإرادة قـــامت ليـــس عـــلى «الحاجة للأراضي بل على فكرة الاســـتعلاء الثقافي للأنكلوسكسونين وعلى احتقار واضح للحضارات الأخرى». ضـــمن هـــذه المقولة زحف الجنرال زكاري تايلور (1784-1850) على ريو

الكـــبرى عـــلى رأس أربعـــة آلاف مـــتطوع وأشـــاد قلعة برون مقابل مدينة متاموروس عام 1846. ثم استولى على المدينة بعد أن هزم الجيوش المكسيكية فـــي معـــارك بالوالتو ورساكابلما في 8 و 9 أيار. في أيلول قام بأسر مونتري ومن ثم احتل فكتوريا رغم العقبات التي وضعها في طريقه الرئيس بولك الذي كان يتحرز من هذا المنافس القوي. وانتهت الحرب عام 1848 بالاستيلاء على مكسيكو. فأجبرت المكسيك على التخلي عن كاليفورنيا ونيو مكسيكو والأريزونا ونيفـــادا والوتـــا، أي ما يوازي نصف أراضيها. ارتفعت في الولايات المتحدة الأصـــوات ضـــد «حـــرب الغـــزو» هـــذه حتى أن بعض الكتاب المشهورين والوطـــنيين، مـــثل أرفـــنغ ومـــلفيل وتورو، أدانوها كما هاجموا مذابح الهنود واســـتمرار العبودية. كتب تورو يقول:«يجب على الشعب الأمريكي أن يتوقف عن امتلاك العبيد وعن الحرب ضد المكسيك» وقد دعمه في ذلك أحد الأنصار المتحمســـين لإلغـــاء العـــبودية وهو ج.ر.لويل أما ملفيل فقد رأى في «أمريكا الحـــرة» بلداً «عنيداً دون مبادئ وسفيهاً ولصاً ذا مطامع غير محدودة لها وجه حضاري في الظاهر ولكنها متوحشة في أعماق قلبها».

فـــي هذه الأثناء كان الاستيطان الأمريكي في المكسيك يسير على خير ما يرام. كان في البداية اقتصادياً بشكل أساسي بفضل الليبراليين الذين طردوا عام 1855 ســـانتا أنا وقضوا على المودرادوس. في عام 1856 أحدث قانون ليردو نظام السوق فضاقت المسافة بشكل ملحوظ لقدرة الدولة على إمكانية التدخل في المجـــال السياسي مما سمح لرؤوس الأموال الأمريكية أن تغرق البلد. وهكذا لم تبق فرضيات نظريات مونرو حبراً على الورق فاندلعت الحرب الأهلية ودخل بنيتوخواريس بدعم من الليبراليين إلى مكسيكو عام 1961 وخلال بضع سنوات جابه الحملة الفرنسية بقيادة مكسميليان الذي أصبح عام 1863 ملكاً ولكنه تلقى إنذاراً بعد ثلاث سنوات من حكومة الولايات المتحدة التي دعته إلى ترك عرشه والى ســـحب قواته. في عام 1867 أعدم مكسميليان رمياً بالرصاص بتحريض من واشنطن، فدخلت السيطرة الأمريكية في المكسيك بعداً آخر.

فـــي نهاية القرن التاسع عشر كانت النتيجة معبرة كثيراً. تقدمت الصناعة فـــي الـــبلاد تقدماً كبيراً، ولكن بأي ثمن ! فأكثر من 65% من رؤوس الأموال كانت من أمريكا الشمالية والجزء الأكبر من المبادلات التجارية المكسيكية كانت مـــع الولايات المتحدة. أما القطاع الزراعي الذي خنقه الرأسماليون الساحليون بذكـــاء عن طريق ترك مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية دون أن تستثمر

لم يعد يكفي لتغطية حاجات السكان. لذا بدا من الضروري استيراد القمح: قمح الجار الذي عمل بكل جهده لإنتاجه. من جهة أخرى قامت مجتمعات مالية كان عليها الزحف على الأراضي العامة حسب طريقة النسيج التي وفرت في إنكلترا بالسابق الثروة لكبار الملاك الأراضي معجلين بذلك قدوم البؤس إلى طبقات الشعب. بالمقابل حصلت هذه المجتمعات التي كان معظمها من أمريكا الشمالية على ثلث المساحات وسيطر المضاربون على ما تبقى. ولم يعد بإمكاننا إلا أن نستشهد هنا بما قاله بورفيرو دياز رئيس المكسيك من عام (1876-1880) ثم من عام (1884-1911) فقد قال:«مسكينة أيتها المكسيك فأنت بعيدة عن الرب وقريبة جداً من الولايات المتحدة».

مرحلة خارجية عارضة:

بعد أن خاطرت الإمبريالية الأمريكية بنفسها وذلك بالتدخل للمرة الأولى خارج منطقة نفوذها الثانية أقحمت نفسها بالسير وراء الإنكليز عندما فتح هؤلاء الباب أمامها بإجبارهم الصينيين على توقيع معاهدة نانكين في 29 آب 1842. فقد شاركت الولايات المتحدة عام 1844 في إخضاع الإمبراطورية الوسطى واستفادت مادياً من أرباح تجارة الأفيون.

في عام 1854 وصلوا إلى اليابان وتحت تهديد المدافع أجبر الكومندان ماتو غالبوث بري - (1794-1858)الذي اشترك في الحرب ضد المكسيك- اليابانيين على ترك أسطوله أن يحط مرساته أمام مدينة أدو، خيار أدو لم يكن وليد صدفة. بالنسبة للباكوفو وهي حكومة ومؤسسة إدارية واسعة مؤلفة من وزراء من الصف الأول والثاني ومن المفوضين، كانت أدو مركزاً حيوياً اقترح الأمريكيون قصفه أو إغلاقه بالحصار. وبما أنهم أجبروا على الإذعان فقد تنازل اليابانيون ووقعوا الاتفاقيات التجارية الأولى مع الولايات المتحدة، ولم يسبق لليابان أن قدمت مثل هذه التنازلات إلى أجنبي. أما الولايات المتحدة التي تشجعت بسبب الانتصار الإنكليزي والفرنسي سنة 1858 فقد عمدت إلى السير قدماً فيما حصلت عليه، فمعاهدات التبادل التي تم التفاوض عليها بالابتزاز والتهديد بالحرب من قبل القنصل توسن هاريس بدت أنها مجحفة بحق اليابان. وفي عام 1864 خفضت رسوم الجمارك إلى 5% من القيمة مما أدى إلى سلب سيادتها، أما الغربيون الذين لحقوا بالأمريكيين المستفيدين الرئيسيين بذلك فقد حققوا أرباحاً كثيرة عن طريق المضاربات في التعامل بمبدأ الذهب والفضة الذي لم يكن ذاته في اليابان. واستفاد بشكل أساسي من ذلك الولايات

المتحدة فأصبحت المورد للأسلحة وللسفن التي كانت تغذي الصراعات الداخلية. وساهمت زيادة الأسعار الناتجة عن استبدال النسيج المحلي بالنسيج الأجنبي والمحاصيل المخيبة للآمال نتيجة التكاليف الباهظة بارتفاع البطالة وبالضياع الاجتماعي في أرخبيل اليابان. وأمام هذا الغبن لن يتأخر اليابانيون بالتعبير عن ردة فعلهم.

الغرب يتمم الإنسان الأمريكي:

لم يجلب الزحف نحو الغرب أكثر من بضعة كيلومترات مربعة إضافية للأمة الأمريكية، ولكنها عمّقت ودعمت التيار الأيديولوجي الذي كان يميز العقلية القومية والذي وصفه بعض المؤلفين بالإنسان الأمريكي الذي أخذ شكله النهائي خلال أحداث القرن التاسع عشر. وأكثر من أي وقت مضى كان هذا الإنسان يمتاز بالحركة. لقد ترك المهاجر الطليعي بمفرده أو ضمن المجموعة عند رحيله الماضي خلفه واستعد لمواجهة المغامرة ومهما تكن صفته كمحدد للموقع أو كطليعي، أوكواعظ أو كتاجر، أو كباحث عن الذهب أو كمستصلح للأراضي، فهو يخضع قبل كل شيء للقانون الضمني لأول مستوطن ويكون مستعداً ليقتل من أجل الحفاظ على ما يملك أو من أجل الاستيلاء على ما يملك غيره.

وباعتباره عَجول بأحكامه وشرس في عملية الكسب ومنظم واستغلالي كان المهاجر الأمريكي يستغل الفرص ويبني المدن ويستثمر أي وسيلة نجاح أو أي أرض ثم يذهب ولا يعود ثانية، ويعاود الكرة في مكان آخر، وكانت العربات والقوارب والقطارات وسائل هذا النشاط وكانوا هم أنفسهم موضع صراع مستميت من أجل التفوق المادي، والسلطة التي يتيحها ذلك الصراع.

هذا الرجل العجول دون أي ارتباطات والمعتدل بتردده كان يتحول بالغالب بدوره إلى رجل أعمال ومضارب مالي ولسارق اختراعات ولحديث النعمة ولمناور. مفهوم رجل الأعمال نفسه قد انحط، فرجل الأعمال الإنكليزي الذي يكرس نفسه للأمور العامة يتبدّل ويصبح مخترع أعمال، حيث يتحول كل شيء إلى منفعة نقدية. إن ذلك هو تأكيد دون أي مواربة لمفهوم «التسويق» فكل شيء يشرى ويباع وهو هدف للمضاربة. إنه التأكيد الصارخ للمبادئ الموروثة عن الليبرالية الاقتصادية التي نشأت بواكيرها في أوروبا وظهرت بقوة في نفس الوقت في الجزر البريطانية.

الضمانة الليبرالية:

كـــان لوك بخاصة المحرض الأكبر على هذا الموقف الليبرالي. الخطوط العريضـــة لفلســفته كانت معروفة وهذا تلخيص موجز لها: قبل نشوء المجتمع وجـــدت مرحلة الطبيعة التي كان يعيش الإنسان فيها بسعادة انسجاماً مع قوانين الطـــبيعة. جاءت بعد ذلك فكرة تكوين بنية اجتماعية ليس لأنها بدت ضرورية ولكن لأن الإنسان رأى فيها ضماناً إضافياً لحماية وجوده وللحفاظ على الملكية الخاصـــة. وولـــد المجـــتمع عـــن طـــريق عقد بين الأفراد وبين أولئك الذين يحكمونهـــم، ولم يقم الحكام إلا بتقديم الخدمة العامة ثم بعرض ما يفعلونه بشكل إجمـــالي على المتعاقدين معهم. فإذا فشل الحكام في مهمتهم كان للمجتمع الحق بإقالـــتهم. يشير جورج بوردو بأن الناس في المجتمع المدني «لا يتنازلون عن حقوقهم لصالح السلطة إلا بجزء من استقلالهم الأساسي غير المنسجم مع وجود الـــنظام الاجـــتماعي أمـــا ما يحتفظون به من حريتهم الطبيعية يشكل ما يسمى بالحقوق الفردية. هذه الحقوق الناتجة عن الحرية التي تولد مع الإنسان لا تدين بشـــيء إلى الدولة لا في منشئها ولا في ثباتها، وباعتبار أن هذه الحقوق وجدت قـــبل الدولـــة فهي تتعارض معها.في البدء كان دور الدولة احترام هذه الحقوق ومن ثم عليها أن تضمنها». إنطلاقاً من هذا المفهوم نشأت بنية عقلية لوّنت فيما بعد الولايات المتحدة.

لقـــد اختـــلط الازدهـــار الاجتماعي (العام) بالازدهار الفردي (الخاص)، فـــالمدن ووسائل النقل والأراضي ووسائل الإعلام والكتب والنتاج الفني وأماكن الســـكن والمؤسســـات التعـــليمية والديانة أصبحت كلها بضائع تطرح في سوق واســـع. وأسســـت معظم الجامعات من قبل الطوائف حيث تتم ممارسة التسامح ليس بدافع المرونة الأيديولوجية ولكن بهدف جذب الطلاب أي (الزبائن) ونظراً لهذه الضرورة لم يكن للحجج الأيديولوجية إلا ثقل بسيط.

أصـــبحت القـــارة بأكملها أشخاصاً وحيوانات وأرضاً وأفكاراً دون تمييز عبارة عن سلعٍ تعرض للبيع بالمفرق. فَقُطِعَتْ أراضي الغرب بقرارات تصدر عـــن العاصمة وقُسِّمَتْ حسب مخطط عام تقسمه خطوط مستوية. هذه التقنية لم تكـــلف المنـــتفعين غالياً ولكنها درت عليهم أرباحاً طائلة. واستفاد إنشاء السكك الحديديـــة وكـــل مشروع رأسمالي مهيأ أن يدر الربح الكثير على صاحبه من مســـاعدة المال العام الفيدرالي أو المحلي لأنه وحسب القاعدة الليبرالية ما يمكن أن يعـــود بالفـــائدة على ثروة الفرد يمكنه أن يدر بالفائدة للجميع. هذا الارتباط

التبعـــي بمســـاعدات المال العام لم يمنع تطور نوع من روح المنافسة الذي هو الأداة الرئيســـية للأيديولوجـــية الليبرالـــية، أي نوع من الداروانية الاجتماعية الاقتصادية قبل اكتمال تطورها.

نحـــن نعـــرف عن كبار مفكرّي الجمهورية الأمريكية أنّ لديهم مرجعيات تاريخـــية وأيديولوجـــية محـــددة. فلـــم يكن واشنطن أو فرانكلين أو جفرسون وكثـــيرون غيرهم يجهلون في أي نسق زمني يسيرون. وأمام الخيار بين نظام اقتصـــادي منفتح أو منفلش وبين نظام أكثر مركزية همه النفع العام فقد اختاروا ومنذ البداية الخيار الأول. هذا التعارض ليس إذن بجديد بل هو يعود إلى عصر اليونان القديم.

أمـــام التبادل الحر وحرية الاقتصاد الذي نادى بها السفسطائيون كما يقول جان بونكر وهنري تومان حذر أفلاطون من ذلك في جمهوريته وقوانينه ودعم بالمقـــابل الـــنظام الـــذي يقـــوم على خلود النفس. «يجب على الحياة على هذه الأرض أن تتـــنظم بشـــكل أكـــثر عدالة من أجل تأمين خلاص النفوس. فعمل الفيلســـوف يعـــتمد إذن علـــى البحث عن القوانين التي تضمن سيادة العدالة في المديـــنة». بالنســـبة للسفسطائيين تتوافق العدالة مع قانون الأقوى. ففي مجتمع المنافســـة الأفضـــل هـــم الذين ينتصرون. وفي وجه هذه العقلية دافع أفلاطون عـــن مفهوم العدالة الذي يقوم على«إعطاء المهمة الاجتماعية لكل فرد يستحقها حســـب مواصـــفاته الأخلاقـــية أو الذهنية أو الجسمية» فهو يقترح إذن رفضاً لمنطق المساومة ويؤيد المنطق الاجتماعي والعودة إلى اقتصاد الطبيعة».

اقـــترح أرسطو رؤية أخرى توفيقية إلى حد ما معترفاً بأنه يجب أن تنشأ في المدينة ثروات وأعطاها دوراً حاسماً في تحسين الحياة الاجتماعية. إذن كان مـــع اقتصاد السوق بالطبع ولكن على هذا الاقتصاد أن يراقب وإن يكون غير قـــادر على الضرر. وإن كان قد دافع عن مثل هذا النظام لأن الملكية الخاصة والتـــبادل الســـلعي عـــن طريق النقود بدا له أنهما ذوي فعالية مهمة من أجل الإثـــراء الجماعي، وإن كان قد اعترف بأن اكتساب الأملاك بهدف الاستهلاك المنزلـــي هـــو قضية شرعية إلا أنه أدان كل اكتساب لا يهدف إلا إلى تكديس الأموال غير المحدود.

استمر التعارض بين وجهتي النظر المتعلقتين من جهة بالاقتصاد المفتوح وغـــير المقـــيد بالقواعد ومن جهة ثانية بالاقتصاد المراقب والمحدود في حرية التـــبادل، وقـــد اســـتمر ذلـــك حتى مطلع القرن التاسع عشر مع بعض الإبهام

المحســـوس بشـــكل أو بآخر. وإذا كانت المدرسة المركنتيلية (1550-1850) المعروفة بالروح التجارية الجشعة قد كرست الأسبقية للمفهوم المنفتح فإنه كان يجــب انــتظار مطلع القرن الثامن عشر حتى يتخذ هذا المفهوم الاتجاه الطليق بشــكل صــريح. عظم أنطوان مونتكرستيان عام 1619 دور التاجر في كتابه حــول الاقتصــاد السياســي موضــحاً أنه يوجد بين السلطة السياسية والسلطة الاقتصــادية التقاء مصالح، وأن تحقيق مصالح السوق لابد من أن تعود بالخير عــلى الدولة. وقد أكد بأن القدرة السياسية ترتكز على خزينة مهمة من الذهب والفضــة. ثــم جاء جون لوك ليؤكد في الإطار نفسه في كتابه «وجهات نظر حــول نتائج انخفاض الفائدة وارتفاع قيمة العملة» (1691) بأن هذه الخزينة لا يمكن تغذيتها إلا بالتداول النقدي الواسع، أي أن فائض الدخل في تدفق المعادن الثميــنة يتجاوز فائض الصرف، لذا فإن الاحتياط النقدي المتداول على الصعيد القومي يتجمع ويتزايد هذا الشيء يكون لمصلحة نشاط السوق.

ودافــع جون لوك، ولكن كذلك من سبقه، أمثال بواسغبير (1646-1714) و«كنيتون» (1680-1734) و«كيسني» (1649-1794)، عن فكرتهم مفضلين عــلى الروح التجرية (المركنتيلية) التي كانت بنظرهم كثيرة التدخل إنشاء نظام طبيعي أو ليبرالي «لأن الاقتصاد يدار بواسطة آليات طبيعية وبسبب ذلك يجب ألا يكون هناك عوائق أمام هذه الآليات». وقد نصب جون لوك نفسه في إنكلترا كمدافع عن هذه النظرية الجديدة وكان همه أن يجد الناس في كل مرة (إن كان هــذا ممكــناً) الموقع الذي كانوا يتمتعون به أثناء «مرحلة الطبيعة (2)» وإلى جانب الحرية الدينية فقط طالب بحق الملكية وبالتبادل الحر.

فيمــا بعــد شــكلت طــروحات لــوك نقطة ارتكاز لقيام النظام الليبرالي الكلاســيكي. وقد وضع له آدم سميث (1723-1790) حجر الأساس. في عام 1776 نشــر كتاب الأبحاث حول طبيعة ثروة الأمم وأسبابها حيث وضع المبدأ الأول لــنظرية التبادل الدولي. المبدأ بسيط وهو «من العبث أن نصنع في بلدنا مــا يمكــن أن نحصــل عليه بسعر أرخص من بلد آخر فمن الأفضل إذن أن نشتري بسعر أرخص البضاعة من الخارج وندفع ثمنها، حتى تستطيع صناعتنا إنــتاجه بسعر أقل وأفضل». نستطيع أن نستنتج منطقياً بأن بلداً يصنع مجموعة من المنتجات ذات نوعية جيدة وأرخص من الخارج ليس له إلا مصلحة ضئيلة

---

(2) هذا المفهوم أقرب للأسطورة، لأن مرحلة الطبيعة هي شريعة الغاب.

بالتبادل الدولي وهذا ما صلحه ديفيد ريكاردو (1772-1823) في كتابه مبادئ الاقتصـــاد السياســـي والضـــريبة (1817). فـــإن كان آدم سميث قد اعتمد في نظريـــته عـــلى الـــتكاليف المطـــلقة؛ فإن ريكاردو اعتمد على نظرية التكاليف النســـبية. فقانونـــه للمنافع المقارنة يقول:أنه حتى لو كان البلد قادراً على إنتاج عدد كبير من السلع بسعر أفضل وبنوعية متفوقة فمن مصلحته أن يلجأ للتبادل، وإنجـــاز ذلـــك من مصلحة البلد ، فذلك يساعد البلد على أن يختص بنوع معين مـــن المنتجات يقوم بتصديرها ويستورد المنتجات الأخرى إن أراد حتى لو كان ينتجها بنفسه.

لقـــد حمـــلت هذه المبادئ نقاط ضعف سواء التي دافع عنها سميث أو تلك الـــتي قدمها ريكاردو، ومنذ إعلانها أشير لهذه النقاط بالبنان. وكان الحال كذلك لمـــبدأ لـــوك الذي سبق أن أشير إليه، والذي يقول بأن الاقتصاد يتطور بشكل طبيعي حسب عدد من خطوط القوة ويكفي أن ندع هذا التطور يتابع مساره لكي يكـــون كل شيء على ما يرام. فلتتم إذن لعبة التنافس في السوق وبذلك يتحقق الازدهـــار العـــام. وحـــتى لـــو كان كل فرد لا يهتم إلا بمصلحته فاليد «غير المـــنظورة» للسوق تدعم آلية التصويب والتي يستفيد منها الجميع. هذا المفهوم اللاعقلانـــي المـــأخوذ مـــن التوراة والذي يقول بأن اليد غير المنظورة للقدرة الإلهيـــة الـــتي تدير الشؤون البشرية كان يكفي لتبرير الخضوع الكلي للقوانين المغلوطة للسوق. أما بالنسبة لقانون المنافع المقارنة عند ريكاردو فإن حدوده قد وضـــعت تحت الضوء بواسطة جون ستار ميل (1806-1873). فقد أكد هذا الأخيـــر بـــأن الـــدول لا تحصل كلها على المنفعة نفسها بالتبادل الدولي. فمن يصدر أكثر ويستورد أقل يربح أكثر بكثير من الآخرين حتماً.

السيطرة على قارة أمريكا الشمالية:

منذ البداية عرفت الولايات المتحدة كيف تستغل نقاط القوة ونقاط الضعف للنظام الاقتصادي الليبرالي وخاصةً أنها لم تكن بعد تتصور تنظيماً سياسياً آخر غير تنظيمها القائم على رؤية مسيحية للعالم تحت هيمنة العرق الأنكلوسكسوني الأبيـــض يستبعد منه بالطبع السود والهنود. فهل تستطيع الولايات المتحدة إذن تصـــور نظـــام اقتصادي مختلف، نظام يقوم على فكرة الانفتاح الكلي للأسواق حيـــث مـــن يســـتطيع تشكيل القوة التصديرية الأكبر يكون الأقدر على كسب الغلـــبة؟! هـــذا النظام لا يستطيع إلا أن يخدم الأهداف الكونية للولايات المتحدة

ضـامنة حسب هذا المنظور امتلاك الدائرة الأولى المؤلفة من القارة الأمريكية مـن الشـمال إلى الجنوب. وبما أن الحدود الشمالية قد حددت (فالخارطة التي أعدهـا جفرسـون أمـلاً أن تنجح حرب 1812 لضم كندا لم تتحقق) فقد بقيت عمـلية التوسع عن طريق الابتلاع المباشر أو غير المباشر لأكبر جزء ممكن للقسـم الجنوبي. وقد أعلن جفرسون أيضاً عام 1809 بأن على كوبا أن تنضم للاتحـاد. وفـي عام 1819 صرح جون كوينسي أدمز – الذي كان في حينها وزيـر خارجية مونرو وعلى أغلب الظن كان الملهم لنظريته – بأنه مقتنع بأن الأراضـي الواقعة تحت السيطرة البريطانية في الشمال وكذلك الأراضي التي بيد الإسبان في الجنوب سوف تكون يوماً جزءاً من الولايات المتحدة الأمريكية. والحق يقال أنّ قليلاً من الأمريكيين من كان يشك بأن أمريكا الشمالية والولايات المتحدة ستشكلان قريباً كياناً واحداً.

طـبقاً لهـذا المسـار للرؤية السياسية فإنه من السهل إدراك أحداث القرن التاسـع عشـر، لقد شكلت رسالة الرئيس مونرو إلى الكونغرس في 2 كانون الأول 1823 نقطـة تاريخية رئيسية. في البداية كانت ذات طابع دفاعي موجهة ضـد كل تدخل لقوة أجنبية في شؤون القارة الأمريكية وبعد عام 1850 سمحت هذه النظرية لتفسير جديد بَدَّل قليلاً من روحها. وحول هذا الموضوع كتب أيف هـنري نويهـات يقـول«ادعت الولايات المتحدة مهمة الدفاع عن القارة ضد تدخـلات القـوى الأوروبيـة، إنكلـترا وفرنسا في أمريكا الوسطى والمكسيك والكاريـبي، وفي الوقت ذاته استخدمت هذه النظرية كعامل للتوسع الجغرافي». بعـد ذلـك وخاصـة تحت تأثير البروز الإمبريالي للمنظرين العسكريين مثل «ماهـان» (الذي كان يشيد بتفوق العرق الأبيض وبخاصة الأنكلو-سكسون) أو للسياسـيين أمثال تيودور روزفلت فقد فرضت النظرية بأنه وبدءاً من هذا اليوم الولايـات المتحدة وحدها لها حق النظر في شؤون الأمريكيين، وحق النظر في أمـريكا اللاتيـنية تعـني بعـبارات واضحة خضوع أمريكا اللاتينية لمصالح ولقـرارات الولايات المتحدة، وهذا يجسد التوسع خارج المركز وقد أشرنا إليه سـابقاً. والإبعـاد عن طريق الإبادة الخالصة أو عن طريق الاستبعاد السياسي والاجـتماعي للعناصـر غيـر المناسـبة (الهنود والسود) الذين يشكلون عائقاً للسـيطرة الشـاملة على أكبر قسم ممكن من أراضي أمريكا الشمالية أي حتى حدود كندا والمكسيك هذا الإبعاد ضمن الدائرة الأولى إذن والتي أمكن الانطلاق مـنها لغزو أكبر قسم ممكن. أما الدائرة الثانية أي أمريكا اللاتينية فقد خضعت

عبر مراحل. وقد شكلت التأكيدات المستمرة لنظرية مونرو المرحلة الأولى. فقد تـم عـن طريق المزج الذكي للدعاية ذات الدلالة الإنسانية وللتصريحات حول الـنوايا الحسـنة وللضغوط من كل الأنواع وللاستخدام الحاذق للدولار تحويل الحـيز المكانـي الواقع بين الأراضي القومية الفعلية والأطراف الجنوبية للقارة شيئاً فشيئاً إلى كيان المحمية.

الاستيلاء على الدائرة الثانية:

بـدأ «غزو» الولايات المتحدة لأمريكا اللاتينية عند منعطف القرن الثامن عشـر. وقـد كـان لاستقلال المستعمرات الأمريكية صداه بين نخبة المهجنين ودفعهم للصحوة، وشكل هذا عاملاً فعالاً نظراً لأنه ساعد على عودة الوعي في الإمبراطورية الإسبانية. وقد اتخذ ميرندا صانع أول محاولة للثورة في فنزويلا عـام 1806 القـرار فـي مشـروعه لتحرير أمريكا اللاتينية خلال إقامته في الولايـات المتحدة عام 1783. ومنذ ذلك الوقت وبفضل المبادلات التجارية بين المرافئ الأمريكية ومدن أمريكا الجنوبية حدث تأثير ثقافي واضح وأصبح فيما بعد أقوى بواسطة انتشار النموذج المستوحى من الثورة الفرنسية.

في عام 1795 اضطرت إسبانيا للتوقيع على معاهدة بال بعد هزيمتها أمام فرنسا التي أعلنت عليها الحرب عام 1793. واتجهت نحو إنكلترا فقطعت على عدوهـا الجديد طريق مستعمراتها في ما وراء الأطلسي. في 18 تشرين الثاني 1798 أجبرت على فتح مرافئ أمريكا الجنوبية أمام سفن الدول المحايدة ومنها الولايـات المتحدة. وخلال بضع سنوات شهدت العلاقات الاقتصادية كالعلاقات الثقافـية بيـن البلديـن تطوراً ملحوظاً. وأقامت الولايات المتحدة في كل مكان وكـالات وقنصليات، وانتشرت معها نصوص انقلابية مثل (common sense الإحسـاس المشترك) لتوماس بن في حين كانت هناك محاولات لتقليد الدستور الـذي كتبه جفرسون والذي سنجد أفكاره الرئيسية بعد بضع سنوات منتشرة في دساتير دول أمريكا الجنوبية.

بيـن أعـوام 1808 و1823 لم تعد الوحدة الوهمية لقارة أمريكا اللاتينية تسـتطيع مقاومـة الـنمو العام للعقليات فكان هناك انتفاضات مسلحة أدت إلى انهـيار الصـرح الاسـتعماري الإسـباني وفي كل مكان قامت المواجهة بين

الجماعـــات المتنافســـة والمؤسسة الاستعمارية(3) للفوز بالسلطة. أما المولدون الذيـــن أبعـــدوا عـــن الســـلطة بواسطة الإدارة الإسبانية وكانوا يشكلون نخبة اقتصـــادية وسياسية فقد عانوا حينها من القيود التي فرضت عليهم. وفيما بعد وتحـــت تأثـــير الحافز الأمريكي والفرنسي بعد الانتفاضة الأخيرة ضد نابليون قـــاموا بالثورة. وفي الخامس من تموز 1811 أعلنت فنزويلا استقلالها وتبعها الإكـــوادور فـــي كانون الأول من السنة نفسها، وكان ذلك بعد عام من رفض الأرجنتيـــن القبول بنائب الملك الجديد. وفي عام 1811 أيضاً تحررت بدورها تشـــيلي بشكل مؤقت. وهكذا اتخذت الأفكار القادمة من الشمال طريقها في كل مكـــان. فـــي عـــام 1823 عندما تم عملياً استقلال دول أمريكا اللاتينية قدمت الولايـــات المتحدة لهم دعماً غير مجرّد من القصد والغاية. فأرسلت لهم السلاح والوسائل المالية التي طلبها سيمون بوليفار وفي عام 1822 كان الرئيس مونرو قد اعترف بكولومبيا الكبرى وبالمكسيك.

ومهمـــا تكـــن الدولـــة المعنية فطريقة وضعها تحت الوصاية كانت تقريباً متشابهة وكانت رؤوس الأموال الأمريكية تصب الزيت للدولاب الاقتصادي في البرازيل وفي تشيلي وفي كولومبيا وفي فنزويلا ولكافة الأمم الأخرى. فحاكت الـــثروات المعدنية وحقول البترول والممتلكات العقارية والمالية والاستثمارات بـــالدولار شـــبكة معقـــدة تربط الحكومات والمصالح الأمريكية وغالباً بموافقة الحكومـــات أو بموافقـــة الطبقة الطفيلية المالكة. ومع مرور السنوات استبعدت تدريجـــياً بريطانـــيا العظمـــى التي كانت تحتل في الجزء الأسفل للقارة موقعاً مصـــيرياً. ففقدت بشكل نهائي مكانها بعد حرب 1914-1918. ولم يعد السوق الداخلـــي الأمريكـــي قادراً على امتصاص الإنتاج الصناعي القومي فأصبح من الضروري إذن فتح أسواق أخرى، وعن طريق لعبة عقد المؤتمرات بين الدول الأمريكـــية تعاظمت هيمنة وسيطرة الولايات المتحدة، السياسية وانطوت القارة كلها تحت سيطرتها وأصبحت ما لم يتوان أولئك الذين لا يملكون أي خجل من تسميتها علناً بدارهم الخلفية.

ولـــيس هنالك شيء يوضح الطريقةالتي جرت بموجبها استعمار تلك الدار الخلفية أكثر من الحالة التي جرت في هاواي والكاريبي وأمريكا الوسطى.

---

(3) تجاوزت الأحداث الهنود فكانوا غير فاعلين.

احتلال هاواي:

هذه الجزيرة تثير الشهية لأكثر من سبب كونها محطة عالمية في الطريق إلى الصين إضافة إلى أنها تتمتع بمياه غنية بالأسماك. وقد تعودت السفن الأمريكية أن ترسو في موانئها منذ عام 1820 وفي العام ذاته عين الرئيس مونرو ممثلاً دائماً لأمريكا في هونولولو. ولم تتأخر الإرساليات البروتستانتية بإقامة مراكز دعوة لها في كل مكان من الجزيرة، وعملت هذه الإرساليات بنشاط لدعوة السكان إلى الدين المسيحي مرفقة بحملة دعائية لصالح أمريكا على المدى الطويل. في الفترة ما بين 1820-1840 أكثر من 400 مركب صيد كانت تتردد سنوياً على مرافئ هاواي. وقامت تجارة ثلاثية الأطراف بين المرافئ الأمريكية على المحيط الهادي وهونولولو والصين وكان خشب الصندل لجزيرة هاواي مطلوب جداً، وكذلك منتجات الشرق الأقصى التي تصدرها الإمبراطورية الوسطى. ومنذ عدة سنوات كان المستوطنون الينكي قد اختاروا هذا الركن من العالم وسط الأمواج العالية حيث استولوا على مزارع قصب السكر وكان السوق الوحيد المفتوح أمامهم بالطبع هو سوق الوطن الأم. ومع مرور الزمن حيكت الأواصر الضرورية من أجل ضم الجزيرة مستقبلاً. فالإرساليات أبهرت العقول والمستوطنون أمنوا الإنتاج وتم توقيع معاهدة للتبادل التجاري بين الملك كالاكاوا والرئيس غرانت عام 1875. حسب نصوص هذه المعاهدة تسمح للمنتجات في هاواي أن تدخل بحرية إلى الولايات المتحدة كذلك تم تأمين استعمال مرفأ بيرل هاربر أمام سفن العم سام.

مع بداية عام 1890 لم تعد أبداً تواجه رياح الإمبريالية أي نوع من الضوابط لدى الرأي العام الأمريكي، لذلك رأى المستوطنون في هاواي أن الوقت أصبح مناسباً لتحقيق الضم. في عام 1893 اصطنعوا ثورة وخلعوا الملكة ليليوكلاني وطالبوا بالارتباط بالولايات المتحدة. رفض الرئيس كلفلند Cleveland وهذا لم يمنع أبداً المستوطنين من إعلان جمهورية هاواي وتشكيل حكومة لها نالت فوراً اعتراف واشنطن. وفي 7 تموز 1898 وتحت تأثير موجة انتصارهم على إسبانيا قام الأمريكيون بموافقة الحكومة المحلية بإنجاز عملية الإلحاق التي كانت مخططة منذ زمن طويل.

كوبا الثمرة الناضجة:

مع فجر حركة التحرر الشاملة للمستعمرات الإسبانية وُجدت في كوبا طبقتان: المزارعون الذين حققوا ثروات طائلة على حساب صغار الملاك، ثم طبقة البؤساء. ومع مطلع القرن التاسع عشر تضمنت طموحات الولايات المتحدة في القارة كوبا، وهذا ما أكده جفرسون. واتبع جون كوينسي أدمز الذي كان وزيراً للخارجية ثم أصبح رئيساً للولايات المتحدة سياسة ما أسماه استراتيجية «الانتظار الصابر». في عام 1823 قال:«توجد قوانين جاذبية في السياسة كقوانين الجاذبية في الطبيعة، فكما أن التفاحة التي انفصلت عن الشجرة تحت تأثير قوة الريح فهي لا تستطيع أن لا تقع على الأرض حتى لو أرادت ذلك وكوبا التي قطعت الصلة التي تربطها بإسبانيا عليها بالضرورة أن تنجذب نحو اتحاد أمريكا الشمالية». والمخطط الذي طبق غالباً كان بسيطاً فهو يبدأ بإثارة السخط الاجتماعي ثم الانتفاضة وتتبعها بعد ذلك الثورة، وعندما تقوم الثورة تأتي فرصة التدخل تحت حجة ما للاستيلاء على الجزيرة. ترافقت استراتيجية «الانتظار الصابر» خلال السنوات العشر التي سبقت الغزو حالة صامتة للهيمنة على الاقتصاد الكوبي، فقد كانت الاستثمارات الأمريكية في معامل السكر تهدف إلى الحصول المكثف على السكر غير المكرر. وعندما تم هذا كان يكفي أن تنتظر الولايات المتحدة نتائج سياسة فرض الرسوم الجمركية المرتفعة على المنتجات الكوبية مع تلازمها تأثيرات المنافسة الأوروبية المريعة، ولم تتأخر أسعار السكر الكوبي عن الانهيار وكان باستطاعة الشركات الأمريكية الحصول مقابل حفنة من الخبز على المزارع بشكل غير محدود واستطاعت أيضاً أن تحتكر الشبكة المنتجة. فيما بعد واجه السيجار ثم القهوة المصير ذاته مما أدى تحت تأثير الانتكاسات الاجتماعية إلى إثارة الأزمة المنتظرة.

بعد انتفاضة أولى بين أعوام 1868 و 1878 انتقلت البلاد إلى حرب التحرر. ومن 24 شباط 1895 إلى شهر تشرين الأول 1898 أودت المعارك بين الثوار الكوبيين وبين الجيش الإسباني بحياة الآلاف. فرأت الولايات المتحدة بذلك الفرصة التي تنتظرها.

وعينت إسبانيا على رأس جيشها قائداً دون رحمة ولا رأفة وصعب المراس يدعى الجنرال وَيْلِر Weler فقامت صحافة الولايات المتحدة بحملة

ضـــده وراحـــت تدين وحشية أساليبه بعبارات حماسية. وبحجة واجبهم بحماية مصالح الصناعيين الأمريكيين والمستثمرين وكذلك حماية حياة مواطنيهم أرسل الأمـــريكيون فـــي 25 كانون الثاني 1898 السفينة الحربية (مان Maine) إلى مـــرفأ هافانا. في 15 شباط انفجرت الباخرة فوجدت الحجة بل الذريعة للتدخل وتحـــت تأثير اللوبي الإمبريالي المتعاظم والذي كان من أعضائه الرئيس المقبل تيـــودور روزفلت والدعاية التي قامت بها الصحافة أرسل الرئيس مكنلي جيشاً «للـــتحرير» إلى الجزيـــرة، واستولى في طريقه على الفليبين(4) وبورتوريكو وجزيرة غوام. وحدثت سلسلة من ضربات القوة الأمريكية وأدت دون معارضة ذات قيمة من الأمم الأوروبية إلى توقيع معاهدة باريس عام 1898(5).

مـــا كـــادت فرق الجيش الأمريكي أن تحط في الجزيرة من أجل «حماية المصـــالح الأمـــريكية» حتى تم مصادرة مكاسب الثورة الكوبية. في 20 نيسان 1898 صدر قرار أمريكي (فرمان) يقضي بأنه للكوبيين الحق بتقرير المصير، إلا أن الحكومـــة الأمـــريكية ســـتبقي سيطرتها على الجزيرة طالما لم تنته بعد «عمـــلية السلام(6)» في الجزيرة. أما مدة هذه العملية وطبيعتها فهما خاضعتان للـــتقدير التعسّـــفي لجيش الاحتلال، ولذا وضعت كوبا تحت قيادة الجنرال وود Wood كمـــا انـــه لم يتم الاعتراف بالحكومة التي نتجت عن الثورة، وتم رفع العـــلم الـــذي يحمـــل الـــنجوم عـــلى الساريات الرسمية. وعندما أعلنت أخيراً الجمهوريـــة فـــي عـــام 1901 كـــانت قد اتخذت جميع الاحتياطات، فقد تبنى الكونجـــرس فـــي الـــثاني مـــن آذار عام 1901 قراراً بتعديل أعده السيناتور هيتشـــكوك بـــلات يقضي بإعطاء حق التدخل للحكومة الأمريكية في أي وقت تتعرض فيه مصالح وحياة المواطنين الأمريكيين وكذلك استقلال كوبا للخطر.

عـــند دراسة طبيعة العلاقات التي فرضتها الولايات المتحدة على كوبا منذ

---

(4) *ذهب الرئيس مكنلي لتبرير ضم الفليبين إلى حد اختراع حجة الوحي الإلهي الذي خلال أحد صلواته شجعه على القيام بعمله.*

(5) *نذكـــر هنا مع ذلك بأن بعض الصحف ومنها ليلّوستراسيون **L'Illustretion** لم تخف انزعاجها أمـــام الموقف الانتصاري والصلف للولايات المتحدة وأدانت دون مواربة سياسة الأمر الواقع وقانون الأقوى، وكذلك تخاذل وغياب تضامن الأوروبيين فيما بينهم.*

(6) *التشـــابه بـــين اللغة الصماء الأمريكية مع اللغة ذاتها للاتحاد السوفيتي السابق هو كبير مما يتيح لنا أن نتســـب هـــذا الاستخدام لنفس هذا المجال اللغوي الدلالي كوسائل متشابهة مثل «التطبيع» وسياسة «الوضع تحت الوصاية».*

نهايـــة القـــرن التاسع عشر حتى قيام ثورة فيدل كاسترو نستطيع أن نفهم بشكل أفضـــل كيـــف ســـارت ديناميكية الهيمنة الأمريكية التي تقوم على دفع الحدود القوميـــة المـــرنة بشـــكل دائـــم إلى الأمام بهدف التوسع. لقد كانت التدخلات العســـكرية أحد الوسائل المستخدمة لهذا الغرض ولكن كان هناك وسائل أخرى ذات فعالية أيضاً وأقل ظهوراً.

الهيمنة على الاقتصاد هو المثال على ذلك:

استطاعت الولايات المتحدة بواسطة المجموعات الاقتصادية والمالية القوية وعـــن طـــريق المعاهدات التي أعطت الحصة الكبرى للرأس المال الأمريكي الشـــمالي الحصـــول عـــلى الســـيطرة الكاملة على الدائرة الاقتصادية القومية والإقـــليمية. في هذا الإطار يؤكد جان لامور بأن معاهدة التعامل بالمثل في 17 كـــانون الأول 1903 تنص على«أن عدداً من الأصناف الكوبية (المسجلة على قائمـــة خاصـــة) تستفيد من التخفيض عن السعر العادي بنسبة 20%، في حين تســـتطيع المنـــتجات الأمـــريكية (المسجلة على القائمة) أن تدخل كوبا بتعرفة مفضلة تقل بنسبة 25-40% من التعرفة العادية».

فأشـــادت الولايـــات المتحدة على هذه الأسس التي هي لصالحها نظاماً من السيطرة والاحتكار كان محركه نمو الاستثمارات التي انتشرت في كل القطاعات الاقتصادية الكوبية. فمنذ عام 1899 قامت شركة السكر الكوبية - الأمريكية التي أصـــبحت بعـــد أحد عشر عاماً شركة عظمى حقيقية وأصدرت اثني عشر مليون سهم وفي عام 1902. اشترت شركة التبغ الأمريكية عدة أصناف ومصانع للتبغ، أما في قطاع المناجم فقد اشترت شركة بيت لحم للأعمال في بنسلفانيا عدة مناجم عـــام 1889. وعمـــلت الميـــزة التوسعية لزراعة قصب السكر على إقامة علاقة وطيـــدة بيـــن استثمارات السكر المباشرة وتوظيف الأموال بهدف تطوير السكك الحديديـــة مـــن أجـــل خدمة صناعة السكر. فتم تأسيس الشركة الكوبية المركزية للســـكك الحديديـــة المحدودة عام 1899 والشركة الكوبية الشرقية للسكك الحديدية عـــام 1908. أمـــا البـــنوك فقد حققت تدخلاً ومشاركة أكثر حذراً. لذا انتظرت المجموعة الأمريكية الشمالية حتى عام 1920 كي تنشط تحت اسم مصرف كوبا الوطـــني Banco national، أمـــا مصرف الشركة الجديدة Nova Scotia فقد نشط في عام 1906 ولكن التوسع الحاسم لم يتم فعلاً قبل عام 1915 واستمر حتى سنوات الجمود الاقتصادي بين الأعوام 1920-1930.

استغلال ظاهرة مسبقة:

فـــي هــذه السنة 1898 تمت السيطرة على كوبا عن طريق المجموعات الكـــبرى (الشركات الكبرى والتكتلات) أمام لامبالاة المجتمع الدولي وتبع ذلك ضم هاواي التي شكلت للأمريكيين نجاحاً أساسياً خارج دائرتهم الأولى وهذا ما شـــجع علـــى المعاودة. ولم تتأخر الولايات المتحدة عن ذلك فدفعت بورتوريكو الثمـــن فـــي نفـــس العام ثم الفليبين في عام 1899. وقد شهدت السنوات التالية اتساع الإمبراطورية الأمريكية بالقضم المنظم.

بورتوريكو:

فـــي غمرة السيطرة على كوبا التي فوجئت بها هذه الجزيرة الأخرى من جـــزر الكاريبـــي التـــي حصـــلت مؤخراً (1897) من إسبانيا على حق إنشاء مجلسين للشعب تحت إشراف حاكم عام فقامت الولايات المتحدة بغزوها. حصل هـــذا الغزو أيضاً بموافقة معاهدة باريس. نصبت الولايات المتحدة في الجزيرة حكومـــة عسكرية ثم عزلتها (مرسوم فوراكر) ووضعت مكانها في أيار 1900 حكومـــة مدنـــية تحـــت سيطرة الرئيس الأمريكي. في 15 تموز 1909 أوجد مرسوم (أولمستد) إدارة تنفيذية مكلفة بتسيير شؤون الجزيرة. بعد ثماني سنوات نـــص مرســـوم (جونـــيس) علـــى أن بورتوريكو هي من الآن فصاعداً أرض «مـــنظمة وليســـت مضمومة»، إلا أن سكانها هم من مواطني الولايات المتحدة مرتـــبطون بالحـــاكم وبالسلطات التنفيذية التي كانت تحت تصرف الرئيس في البيـــت الأبيض. ورغم التنازلات الشكلية التي حصلت فيما بعد فقد عين هنري تـــرومان عام 1946 مواطناً من بورتوريكو حاكماً، وفي عام 1947 تم تعديل مرسوم (جونيس) من أجل السماح للشعب بانتخاب الحاكم، أما خضوع الجزيرة للولايات المتحدة وحتى بعد التصويت على الدستور (1952) كان أمراً لا يمكن الـــرجوع عـــنه. وكانـــت الســـيطرة وخاصة الاقتصادية أمراً جلياً للعيان. فقد اســـتولت الشـــركات الأمريكـــية الكبرى على المرافق الاقتصادية الأساسية في الجزيـــرة. والتـــنوع الـــذي كان يميز بورتوريكو قبل بداية القرن وخاصة في الصناعة الغذائية المزدهرة تتخلى عن مكانها للقهوة وخاصة للسكر تحت تأثير الاســـتثمارات الكثـــيفة والســـوق الأمريكـــية المفتوحة لهذه التجارة التي تعود بالأربـــاح العملاقـــة للشـــركات المتعددة الجنسية. بالمقابل وجد سكان الجزيرة

أنفســـهم مجبرين على استيراد الغذاء من الولايات المتحدة بنسبة 50% وكذلك اســتيراد عـــدد كـــبير من المنتجات المصنعة يدوياً وكان حكمهم الذاتي النسبي مرتـــبط بأســـعار الســكر التي كانت تصعد أو تهبط بقدر انصياعهم لقرارات واشـــنطن ولمـــزاجها. أمــا الميزان التجاري فكان يميل بشكل واضح لصالح الولايـــات المتحدة ونتج عن عدم التوازن هذا اضطرابات اجتماعية. وبدءاً من أعوام التسعينات نمت وتزايدت تجارة المخدرات وأعمال العنف والخطف بشكل لم يكن له أي مثيل في السابق.

الوعد المنقوض:

فـــي ســـياق حـــركة الاستيلاء الناجمة عن الحرب الإسبانية – الأمريكية زحفت الولايات المتحدة حتى وصلت إلى تخوم بحر الصين. في الأول من أيار عـــام 1898 ترك الأميرال دواي هونغ كونغ واتجه إلى خليج مانيلا حيث دمر الأســـطول الإسباني. وتعهد للثائر «اغينالدو» أن يساعده على استقلال الفليبين مقـــابل مســـاعدته ضد المستعمر الإسباني. وبهدف المكافأة منع الوفد الذي كان برئاســـة اغيـــنالدو من الاشتراك في مؤتمر باريس. ونتيجة ذلك كانت المفاجأة المـــزعجة للأمـــر الواقع: تخلت إسبانيا المهزومة عن الفليبين للولايات المتحدة وفـــي 10 كانون الأول ومقابل تعويض قدره 20 مليون دولار اعترفت إسبانيا بمـــلكية المنتصـــر للأرخبيل. في كانون الثاني 1899 أعلن اغينالدو رغم ذلك اســـتقلال بـــلاده كردة فعل مباشرة على ذلك وبعد حملة استمرت حوالي ثلاث سنوات كان عليه أن يستسلم ويخضع للعبودية.

تميـــزت ســـنوات 1920–1930 بصعود النضال الوطني وبشكل موازي وبســـبب الخوف من منافسة المنتجات الفليبينية وتدفق اليد العاملة المتطلبة قليلاً على صعيد الأجور وظروف العمل طالب الفلاحون والنقابات الأمريكية بالتخلي عن الأرخبيل. في عام 1934 منح الرئيس روزفلت مهلة عشر سنوات انتقالية قـــبل الاســـتقلال (قـــانون تيدنيكز– ماك دوفي) ونتيجة لذلك خضعت البضائع الفليبيـــنية المســـتوردة إلى الولايات المتحدة للرسوم المعتادة، في غداة الحرب العالميـــة الـــثانية بعد الاستيلاء من جديد على الأرخبيل على حساب اليابانيين تحقق الاستقلال. إلا أن الطابع الأمريكي لم يكن بالإمكان إزالته، واختيار تاريخ الرابع من تموز كيوم لإعلان استقلال جمهورية الفيليبين في عام 1946 لم يكن وليد الصدفة. الدستور هو أيضاً يحمل بصمة المحتل القديم فالرئيس ينتخب لمدة

أربعــة سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة (حديثاً تم تعديل المدة إلى ست سنوات غيــر قابلة للتجديد) والكونجرس ثنائي التمثيل (مجلسان تشريعيان) إضافة إلى وجود المحكمة العليا. كما أن اللغة الإسبانية استبدلت باللغة الإنكليزية و النظام التعــليمي نســخ عــن الــنظام المعمول به في الولايات المتحدة مما دعم قيام جمهوريــة ذات طــابع أمريكي عميق. كذلك الفشل الاجتماعي والسياسي كان فاضحاً. فلم تتصور الطبقة البرجوازية التي نشأت في القرن التاسع عشر والتي تمتــلك الــثروة الأساســية أي نــوع من الإصلاح وظهرت أنها حليف مميز لواشــنطن واســتمرت بإدارة البلاد. وأول رئيس منتخب كان مرشح الولايات المــتحدة الــتي اســتطاعت فيمــا بعد أيضاً تأمين انتخاب رئيس من المقربين المخلصــين لهــا. وقد اعترف مرسوم (بيل ترد) بأن للمواطنين الأمريكيين في الأراضي الفليبينية نفس الحقوق التي يتمتع بها أبناء البلد. من جهة أخرى استقر العســكر الأمــريكيون فــي ثلاث وعشرين قاعدة. وبقي ذلك سارياً حتى عام 1992 عــندما تــم إزالــة أخر قاعدة عسكرية أمريكية تحت ضغوط الأوساط الوطنية والمظاهرات الشعبية المعادية.

إن الإرث الأمريكي لا يزال ظاهراً حتى يومنا هذا. فقد جعلت البرجوازية وخاصــة العقاريــة التي اعتمدت الولايات المتحدة عليها (ترك ماركوس آثاراً عميقة) كل مشروع إصلاحي صعباً. والأرقام في هذا الصدد معبرة: 70% من الشعب يعيشون تحت عتبة الفقر في حين أن 15% من الملاك يتوزعون ملكية 65% مــن أفضــل الأراضي. ولم تتقلص أبداً التبعية تجاه المحتل السابق رغم محــاولات تخفيفهــا. فالشــركات المتعددة الجنسية لها جذور متينة في ميدان الأراضي وتقف عائقاً أمام أي إصلاح زراعي. ويسيطر دل مونت ودول (عن طــريق الشــركة الفليبينية ستانفلكو) وبونتو برانتز على سوق الموز والأناناس وأسواق أخرى ويتصرفون على هواهم بالقوانين الأخيرة حول توزيع الأراضي عــن طريق إبرام العقود مع أصحاب الملكية الخاصة. وقد أعطت الأفضلية في التصــدير إلى المــواد الغذائية بالاتفاق مع الفريق الليبرالي المتطرف مما يبقي الســكان تحت رحمة تبدلات الأسعار الدولية. وتحول الأرخبيل الذي كان يحقق الاكــتفاء الذاتــي مــن مادة الرز، إلى بلد يعاني اليوم من نقص حاد في هذه المــادة، الشيء الذي يحمله على استيرادها من تايلندا. أما الدين فهو يعزز أكثر تبعية البلد لصندوق النقد الدولي وللبنك الدولي أي للولايات المتحدة.

شحذ الهمم للاستيلاء على أمريكا الوسطى:

أتاحت حملة كوبا للأمريكيين إنجاز خطتهم التي استخدمت في باقي القارة الأمريكـية اللاتينية، وخاصة كما قال آلان دستكسهي في أمريكا الوسطى فيما عـدا كوسـتاريكا. ومنذ القرن التاسع عشر كانت الولايات المتحدة موجودة في كـل مكـان وكانت تتدخل غالباً عن طريق الشركات المالية أو الصناعية مثل شـركة الفواكـه المـتحدة United fruits co. (المعروفة حالياً بـ United Brands) التي وضعت تحت يدها قطاع الموز بكامله فشركات الموز وخاصة UF Co. (شركة الفواكه المتحدة) أصبحت «دولاً داخل الدولة» وأطراف فاعلة بشـكل كامل في اللعبة السياسية عن طريق مساندتها للأحزاب التقليدية. ثم عن الدخـول الكثيف لرؤوس الأموال مع وصول الأجانب الذين أشرفوا على جزء مهـم من التجارة الخارجية ساهم كل ذلك باستمرار عملية تحديث البلاد مقابل الهيمنة الخارجية النامية.

الهندوراس:

إن حالـة الهـندوراس شكلت في هذا الصدد نموذجاً على ذلك. هندوراس التـي حصـلت على استقلالها منذ عام 1838 رأت أن هذا الاستقلال مهدد من قبل البريطانيين. في نهاية القرن التاسع عشر وتحت تأثير المنافسة بين طبقات الأقلـية المحلـية الحاكمة وقعت البلاد في قبضة الشركة المتحدة للفاكهة، التي اسـتولت علـى مـزارع المـوز الكبيرة مما ساهم بوصول شخصية مخلصة للمصالح الأمريكية إلى السلطة هذا الرجل هو تبروسيوكاريس أنديتو.

كتـب ديستكسـهي يقـول «لم تساهم سيطرة شركات الموز الكبرى فقط باخـتفاء المنتجين الوطنيين للموز ولكن الشركات الأمريكية أشرفت على كامل السـكك الحديدية ومجمل الموانئ وعلى الأسطول التجاري وعلى أهم مصرف وعلـى الهواتـف وعلى الكهرباء» كان الخيار بشكل عام سهلاً فإما أن تنحاز الحكومة مع واشنطن مما يتيح لها الاستمرارية المريحة في الغالب أو أن تثور وتحـاول جـاهدة إصلاح الأخطاء الصارخة وتكون النتيجة هي حدوث انقلاب عليها بشكل أو بآخر. وينجم عن ذلك قيام حركة قمع الثوار مما يؤدي من جهة أخـرى إلـى نشوء الراديكالية. وتصبح الانتخابات عبارة عن سخرية مهمتها

الوحـيدة «إعطـاء الوهـم الديمقراطـي وإضفاء الشرعية على الحكومة على المسـتوى الوطنـي والدولـي وإتاحـة الفرصة المثالية للاتصال بين السلطة والمحكومين الذين يصبح لديهم بهذا الشكل فرصة لتلبية مطالبهم ولكنها قبل كل شـيء تؤمـن مجـال تنافسي محدود بين الجماعات التي تدور في فلك السلطة وتبعد الطبقات السياسية الخطيرة».

ومصـلحة الولايات المتحدة هي أبعد من أن تكون لها اقتصادية فقط لأنها أيضـاً استراتيجية. فكونها تستطيع أن تحكم دون شريك مجمل أمريكا الوسطى فـإن ذلك بدا لها منذ البداية قضية حيوية لسببين: أولاً بسبب قناة بنما حيث يمر الجـزء الأكـبر مـن صادراتها إلى اليابان والبرازيل كذلك يعبر منها أسطول الحـرب الأمريكـي عـندما ينـتقل من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي وبـالعكس. وثانياً بسبب منطقة الكاريبي – أمريكا الوسطى حيث يعبر منها 50 % مـن الـواردات البترولية و40% من التجارة الخارجية الأمريكية.وبالمقابل شـكل هذا الشيء وضعاً كارثياً لأمريكا الوسطى و«للبحر المتوسط الأمريكي» حـول ذلك يعلق دستكسهي فيقول:«فقر وبؤس وتهميش اجتماعي وظلم وتبعية خارجية وقمع واستدانة... وقائمة السوء التي يعاني منها المضيق تطول».

غواتيمالا:

بـرزت أيضـاً الهيمـنة على أمريكا الوسطى بواسطة الشركات المتعددة الجنسـيات في أغلب الدول الأخرى. فمنذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى عام 1920 أخـذت الشـركة المتحدة للفاكهة UF Co. تحيك شباكها في غواتيمالا. ولكـن كان علينا الانتظار حوالي نصف قرن لترى الولايات المتحدة مضطرة نفسـها في هذا البلد حيث أن حكامه لم يفكروا بالإضرار بمصالحها. إلا أنه في عـام 1951 وصل إلى السلطة العقيد أربنز Arbenz وهو من أصل سويسري فـأطلق إصـلاحاً زراعياً ضرورياً ولكنه أصاب مصالح المتحدة للفواكه ونزع منها أراضي بمساحة 160 ألف هكتار من أصل ممتلكاتها التي بلغت 220 ألف هكـتار فقـام فـي 17 حزيران 1954 انقلاب على أربنز بتدبير من الولايات المـتحدة وغـزت غواتـيمالا فرقة عسكرية أتت من السلفادور بعد أن تسلحت وتدربـت على أيدي السي.أي.آيه ووضعت حكومة على رأس البلاد فألغت هذه الحكومـة كـل فكـرة للإصلاح وخضعت لرغبات واشنطن. وأمام الاستيلاء والـبؤس اعـتمدت سياسـة القمع منذ عام 1979 ضد أحزاب الوسط واليسار

وتعـاظم القمـع فـي عـام 1982 ونـتج عنه أكثر من 50 ألف ضحية. أما الإجـراءات الخجولـة والمتذبذبة للعدالة الاجتماعية التي اتخذها الرئيس فنيسو سـرزو فقـد أثارت كراهية منظمات أرباب العمل. فقامت عليه حركة انقلابية فاشـلة عـام 1988 بعد أن كادت أن تنجح. في الوقت الحالي دخلت غواتيمالا التي يرأسها الفارو أرزو Alvaro Arzu والذي انتخب عام 1996 في مرحلة مـن المفاوضـات مع الثوار، مفاوضات أفشلتها التصرفات الرعناء الفالتة من القصـاص لرجال الجيش، والشرطة المسؤولة وحدها عن ربع انتهاكات حقوق الإنسان في هذا البلد.

بنما:

لا يمكـن أن يوجد نموذج صارخ لإطلاق يد الولايات المتحدة في السيادة علـى أمـم أمريكا الوسطى أكثر من سيطرتها على بنما في 18 تشرين الثاني 1821 حيـث تم إعلان أرض قناة المستقبل أرضاً حرة مستقلة، ثم ألحقت عمداً بجمهوريـة كولومبـيا. تلا ذلك اكتشاف الذهب في كاليفورنيا مما أعطى هذه الأرض موقعهـا كممـر. ومع مرور السنوات وتنامي أنانية بوغاتا التي بات الآخـرون يشـعرون بها، أصبحت الوصاية الكولومبية أمراً غير محتمل. أما فكـرة حفر قناة في هذا المكان فهي فكرة قديمة. بين أعوام 1868 و1876 أخذ الأمريكـيون يفكرون جدياً بذلك، ولم يتردد الرئيس غرانت Grant وتحت اسم المصـير الحتمـي أن يؤكد بأن هذا الإنجاز المستقبلي يجب أن يكون أمريكياً. وأدت المحـاولات الفاشـلة الفرنسية بالحفر بين 1875 إلى 1901 إلى اتفاقية (هاي –بونسفوتHay - Pauncefote) التي أزالت الحظر الموجود في معاهدة (كليـتون–بولـورClayton-Bulwer) عام 1850 بامتلاك أي جزء كان من القناة. في 22 كانون الثاني 1903 وطبقاً لمعاهدة (هاي–هران Hay-Herran) حُملـت كولومبـيا على التخلّي عن كل الحقوق المتعلقة بالحفر إلى الأمريكيين لمدة مئة عام إلا أن الكونجرس الكولومبي رفض الموافقة على هذا الاتفاق. في 3 تشـرين الثانـي وفي لحظة وجود بارجات أمريكية في موانئ كولون وبنما طالبـت طغمة عسكرية بالانفصال فحاولت السلطات الكولومبية إستعادة ملكيتها إلا أن الجـيوش الأمريكـية التـي كانت على ما يظهر مستعدة لهذا الاحتمال طردت الخصم. وفي 6 تشرين الثاني اعترف البيت الأبيض بدولة بنما. في 18 من نفس الشهر جاءت معاهدة (هاي–بينو–فاريلا) لتعمق عبودية الدولة الجديدة

حيال الولايات المتحدة. فقد صاغ الموفد البنمي بينو-فاريللا الاتفاق الذي أملاه عليه وزير الخارجية الأمريكي هاي هذه المعاهدة التي وصفتها بنما بحق بالـ«الخزي القضائي» أعطت لواشنطن تنازلاً مؤبداً عن المنطقة المجاورة للقناة تتراوح بين 10 كيلومترات إلى 10 أميال. فكان للأمريكيين الحق أن يمارسوا السلطة الصحية والسلطة البوليسية، يضاف إلى ذلك حق التدخل في أي وقت وقد سمي هذا الحق بحذر «بضمانة الاستقلال»، وتحت تأثير إجراءات التخويف الأمريكي صادقت بنما على نص المعاهدة.

استمرت أعمال الحفر من عام 1904 إلى عام 1914 في هذه الأثناء تمسك الأمريكيون بقوة بمنطقة مساحتها 1435 كم2 التي تقسم بحذق جمهورية بنما إلى قسمين، وأصبح حاكم منطقة القناة الذي يسميه البيت الأبيض رئيساً لشركة القناة التي ليس فيها إلا مساهم وحيد ألا وهو وزير الدفاع الأمريكي. في عام 1946 أنشأت الولايات المتحدة في بنما المدرسة الأمريكية المشؤومة ثم نقلت في عام 1984 إلى فورت بنينغ في جورجيا حيث كان يتم التدريب على الحرب وعلى العمليات البوليسية وقد تعلم فيها أكثر من 60 ألف عسكري وشرطي من أمريكا اللاتينية خلال سنوات عديدة فنون القهر والتعذيب والاغتيال وعمليات الكومندوس ومنهم كومندوس الموت ضد أطفال الشوارع.

لم يتأخر البناميون في اكتشافهم أنّ قسمة أرباح القناة غير العادلة في القناة، فإذا ربحت بنما سنوياً ما يقارب 2 مليون دولار بالمقابل أكثر من 55 مليون دولار تذهب إلى كيس النقود الأمريكي. الرأس المال المستثمر قد استرجع عدة مرات في الوقت الذي أصبحت فيه الأرض «فندقاً فخماً في محيط الفقر». في عام 1936 حمل الرئيس روزفلت على إعطاء أول تنازل بإجراء أول تعديل لمعاهدة التخلي. في عام 1955 أعطت معاهدة أيزنهاور-رمون تنازل آخر (اغتيل الأخير بشكل غامض بالكاد قبل بضعة أيام من المصادقة على المعاهدة) واستمرت الاضطرابات والاعتراضات وقطع العلاقات الدبلوماسية وإعادتها طالما غابت المراجعة الحقيقية للاتفاقيات. في عام 1946 وعدت الولايات المتحدة بدراسة الموضوع، ولكن بدلاً من أن تنجز الوعد فضلت أن تضع في السلطة رجلاً تابعاً لها ألا وهو نورييغا الذي عملت صلاته مع السي.أي.آيه التي كان يديرها جورج بوش - كما يشير إلى ذلك فريدريك كمب - إلى دفعه إلى راس الدولة البنمية. وباعتباره رجل دون رادع وقد جمع ثروته عن طريق تجارة المخدرات فقد رهن أنه مساعد

ممتاز لواشنطن، ولكنه يوم أراد إبراز عدم الانصياع أصبح شخصاً مزعجاً لأنــه يعــلم أمــوراً كثيرة وأخذ يهدد بإفشائها، كان لابد من أن يكون هدفاً لهجــوم مــنظم لــلزمرة الأمريكية عام 1989. وبحجة الدفاع عن «قضية عادلــة» أرســل الــرئيس بــوش 25 ألف جندي مما أدى – بسبب أخطاء تكتيكية لرئيس أركانها – إلي موت 3 آلاف بنمي معظمهم من المدنيين. فقد تــم قصف حيين الأكثر فقراً في العاصمة، فاشتعلت النيران وحفرت القبور الجماعيــة وارتكبت المخالفات (عشرات من المارينز قتلوا سهواً برصاص رفــاقهم) ولم يتوقف كل ذلك إلا بوضع الرئيس إندارا **Endara** الذي عاد مع الجنود الأمريكيين على رأس بنما.

فــي 31 كــانون الأول 1999 وحســب بنود معاهدة كارتر – توريوس الموقعــة في 7 أيلول 1977 والتي ألغت معاهدة 1903، سوف تعاد القناة إلى دولة بنما. وأمام ارتياحها لعودة هذه المنطقة إلى سيادتها بدأت بنما تشعر بهموم مادية، فرحيل العسكريين الأمريكيين سيفقدها حوالي 180 مليون دولار سنوياً، وبهدف تعويضهم أخذت الحكومة تبحث عن طريقة لجذب الاستثمارات الأجنبية وخاصــة الآسيوية. وسبق لتايوان أن ردت إيجاباً على ذلك ومن المتوقع إقامة مجمعــات صناعية تؤمن 7 آلاف فرصة عمل. وربما لم ينس الشعب الماضي القريب ويفضل الأمن المادي على الاستقلال، ألم يحصل في عام 1995 وخلال عمــلية الاســتفتاء أن 70% مــن الشعب أعطى أصواته لصالح تمديد التواجد الأمريكي في البلاد ؟!!

الظهور الإمبريالي:

جــاءت تلك الأحداث المعاصرة من غزو كوبا إلى بداية عمليات السيطرة عــلى مجمل قارة أمريكا اللاتينية في خضم الظهور الإمبريالي. فبرزت أهداف الولايــات المــتحدة كضــوء الشمس. في نهاية القرن التاسع عشر كان هناك وثيقــتان ضمنتا للولايات المتحدة القاعدة الأيديولوجية والستراتيجية في نظرها تبرير توسعها الذي لم تعد تخفيه.

وتذكرت الولايات المتحدة النقاط الأساسية لنظرية مونرو (1823) المتعلقة بحــرية الــتجارة البحرية في الأطلسي وحرية الدخول إلى الأسواق الأوروبية لبضــاعتهم وحــرية الــتجارة والاستيلاء على كامل القارة الأمريكية، مما دفع

المتحمسين للسيطرة الكونية الأمريكية إلى الدعوة لحملة صليبية شاملة. في هذه السنة لعام 1898 أكد السناتور البير ج. بفريدج بأن «على التجارة الدولية أن تكون وتصبح لنا وسيكون لنا ذلك. سوف نغطي البحار بأسطولنا التجاري وسنبني أسطولاً يكون على مستوى عظمتنا، وستقوم مستعمرات كبيرة تابعة لنا وتحكم نفسها بنفسها وستجول سفنها التي سترفع علمنا والتي ستعمل لحسابنا كل طرقاتنا التجارية، وستسير مؤسساتنا خلف بيرقنا على خطى تجارتنا وسوف يصل الحق الأمريكي والنظام الأمريكي والحضارة الأمريكية والعلم الأمريكي إلى شواطئ لا تزال حتى الآن دامية ومؤسفة ولكنها ستصبح قريباً بعون الله مزدهرة». من جهة أخرى ضمنت معاهدة كليتون -بولفر (1850) لبريطانيا العظمى وللولايات المتحدة السيطرة على قناة المستقبل التي ستشق من جهة إلى أخرى برزخ أمريكا الوسطى. في السنوات العشر الأخيرة للقرن التاسع عشر كانت العقلية الإمبريالية وخاصة في الولايات المتحدة في أوجها، أشار بيار ميلزا لذلك فقال:« زالت الحدود وزال معها صمام الأمان الذي كانت تشكله الفضاءات الشاسعة الفارغة لوسط الأمم المتحدة وراحت تبحث الروح الطلائعية للشعب الأمريكي خارج حدود الدولة المتحدة عن أراض أخرى للعمل، فبعد أن تم إعداد البلاد بشكل جيد بدأ رجال الأعمال التفكير بمسألة المنافذ الخارجية. لم يكن الأمر يتعلق بإلحاق الأراضي على الطريقة الأوروبية بل كان يهدف أكثر إلى البحث عن تأمين مناطق تحجز بواسطة دبلوماسية الدولار».

وتوالت المواقف من حرب المكسيك إلى غزو هاواي وكوبا مروراً بالوصاية على كامل أمريكا اللاتينية فكانت برهاناً من أجل شرعية الإمبريالية الأمريكية. وجاء الصدى من المثقفين والشعراء والكتاب فطغى الشعور حتى عند الكتاب المعروفين بقلة حماسهم الكلامي بأن الولايات المتحدة هي الأفضل وتشكل المرجع الإجباري للجميع، فقد أقامت نظاماً مثالياً كما أكد ذلك توماس بيّن فقال:« إن في النصف الثاني للقرن الثامن عشر لم تشرق الشمس ناصعة على قضية ذات موقع سام كما كان الحال في الولايات المتحدة».

الشاعر أمرسون Emerson والذي كان غالباً ما ينتقد وطنه لم يتوان عن التصريح بأن الولايات المتحدة هي الأمل المعقول للبشرية التي لم تكن وفية لعهودها حتى الآن، وأن روح الشعب الأمريكي هي الأكثر حكمة في العالم كله. أما لونجفللو Longfellow فقد اعتبر أن الولايات المتحدة هي اتحاد قوي وكبير والبشرية مع كل مخاوفها وأمالها في السنوات القادمة باتت مرتبطة

بانبهار بمصير الولايات المتحدة.

أمـــا الصوت الوجداني الهادر والحماسي لكوتون مَثر Cottom Mather جـــاء مــن خلال صوت ولت وايتمان Wolt Whitman في قصائده الطويلة. يـــتابع وايتمان ما بدأه مؤلف أمريكا المسيحية العظمى (Magnolia Christi Americana) لقــد كـــتب يقول أن أمريكا «هي بالأساس أكبر القصائد وهي ليست فقط أمة بل إنها أمة الأمم» ، وعرقها هو «أعرق الأعراق»، «ومن بين كـــل الأمم تسير إلى الأمام وعروقها مليئة بعصارة الشعر، إنها بحاجة للشعراء ولكـــن من المؤكد أنه سيكون لديها يوماً ما أعظمهم وستعرف كيف تستخدمهم بعظمـــة»، وســتعلم «للكون درس الوفاء الأمريكي»، وسيشرق نظام جديد قائم عـــلى رجال سيكونون أئمة البشرية وسيولدون في أمريكا وستستجيب الأرض قاطـــبة لهـــم. أمـــا فـــي اللغة الأمريكية فقد رأى وايتمان « لغة الحس السليم وســـتتكلمها أعـــراق فخورة وحزينة وستكون خطاب كل أولئك الذين يطمحون لـــلحاق بهـــم ليعـــبّروا عما يصعب وصفه»، لأنه «ما من أحد يستطيع تحاشي الغريـــزة الغيورة والمحبة للأعراف الأمريكية»، وبسبب «أن طبيعة أمريكا هي قدر محتوم يسير إلى الأمام لا يقاوم ولا ينخرق في وسط التهديدات وصياحات المـــناوئين». وفي الشعر كما في غيره سيتجاوز الشباب الأمريكي منافسيهم، ثم يســـتنتج وايـــتمان فيقول أن الولايات المتحدة «هي بلد الأعمال الكبيرة» ميلفل نفسه رأى أنه جاء الوقت الذي سينافس الأمريكيون فيه شكسبير.

فـــي أواسط القرن التاسع عشر بلغ الشعور الوطني الأمريكي ذروته، كان الشـــعور العـــام كان التفاخر بأن يكون المرء من الولايات لا يوصف لأن البلد يشكل أمة مميزة، وأنّ المهمة التي رأى الله أنها جديرة بحملها جعلتها أمة فريدة فـــي التاريخ. وفي وسط أسوأ الصعوبات الاجتماعية حدث الإجماع، فالنقابات وأربـــاب العمـــل أعلـــنوا موافقتهم على اعتبار الديمقراطية الأمريكية أنها هي الأفضـــل رغـــم الفساد الظاهر بين الأحزاب بسبب المال والمشاريع. وبما أنها الأفضـــل يجـــب إذاً تصـــديرها، وقـــد عبر عن هذه الفكرة جون أدمز الرئيس الأمـــريكي الـــذي خـــلف واشنطن فقال في 27 تشرين الثاني 1775 «إن بناء إمـــبراطورية كـــبيرة بـــات ممكـــناً حالياً، وحتى بالنسبة لغير المؤمنين» وفي الفيدراليســـت Federalist وفي نفس الفترة حلل الكسندر هملتون قدر الولايات المـــتحدة واعتـــبره «قـــدر إحدى الإمبراطوريات في العالم مع الفوارق الأكثر أهمية».

في عام 1848 خلال الحرب المكسيكية وفي الوقت الذي استنكر فيه معظم الكـــتاب العدوان الأمريكي تبنى وايتمان موقفاً واضح الأنانية ومبالغ بالوطنية. فمثل جميع أعضاء الحزب الديمقراطي برر الحرب وجعل من الرئيس زكاري تايــلور بطلاً لأن مهمة الولايات المتحدة هي «أن تنشر في العالم الجديد شعباً مـــن العـــرق النـــبيل(7)» خلال هذه السنوات العشر لم يتردد بعض المصلحين بـــتحديد الأهـــداف الكونيـــة لبلدهم. والكلام الذي استخدموه أيقظ لدينا في نهاية القـــرن العشـــرين هذا صدى ليس غريباً. لقد قالوا أن « على الولايات المتحدة إقامة السلام في العالم» وسيتوصل إلى تحقيق ذلك بواسطة محكمة دولية تطبق «قانون دولي جديد» من أجل تحقيق المجتمع المثالي.

أصـــبحت الإمبريالية الأمريكية واعية لنفسها في وسط القرن التاسع عشر ولـــم تخـــبئ ذلك، فإن كانت تحمل في نفسها منذ البداية بذرة الاستبداد فإن هذا ليـــس فقـــط بسبب أنها بدافع دولي تدعي الهيمنة لأسباب دينية واقتصادية. إن مشروعها بالطبع هو قيادة مجموعة أمم الكرة الأرضية إلى مجتمع مثالي الذي أتخـــذ شـــكله طـــبقاً لمواصفات أمريكية وأخيراً عن الطريق المفضل ألا وهو التجارة.

لـــنذكر هـــنا بالمعـــنى الـــذي تتخذه كلمة حدود في قاموس الأيديولوجية الأمـــريكية، فالحدود هي خط متحرك بشكل دائم ويتغير دون توقف وهي رمز للتملك المتطور واللامحدود في آنٍ واحد. فالأرض الوطنية ليست أولاً جغرافية بـــل إنها قبل كل شيء ذهنية. الشيء الذي تبرزه دراسة موثقة معاصرة لغزو كوبا يبرر الضرورة للولايات المتحدة بامتداد سيطرتها.

فـــي كـــتاب يحمل عنوان «المصلحة الأمريكية في قوتها البحرية» يصف القبطان أ.ت.ماهان ما يجب أن تكون عليه البحرية الأمريكية وما هي مهمتها. إن طـــرح ماهـــان بســـيط، في البداية يؤكد فكرة بفريدج ويطورها فيقول على الولايـــات المـــتحدة مد تأثيرها التجاري على كامل الكرة الأرضية لأن السوق الداخـــلية لم تعد تكفي، فالطاقة الواسعة للإنتاج للولايات المتحدة التي هي إحدى المكونـــات الـــثلاثة لكل توسع (مع وجود الأسواق ووسائل النقل الجديدة) هي بحاجـــة ماسة للمنافذ، ولكن للولايات المتحدة أيضاً مهمة من بين مهمات أخرى

---

(7) هـــل نفهم من ذلك أن شعوب دول أمريكا الأخرى في الشمال كما في الجنوب ليست من «العروق النبيلة»؟

وهـــي أن تقطع الطريق على أهداف الإمبريالية الأوروبية. الدول المعنية بذلك هي جزر ساموا وهايتي وبرزخ أمريكا الوسطى وهاواي وجزر المحيط الهادي بشـــكل عام حيث أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تتحمل أي تدخل، فبدون قوة بحـــرية بمستوى الرهانات لا تستطيع الولايات المتحدة الإشراف على الكاريبي وأمريكا الوسطى. من جهة أخرى لا يمكن للقناة المستقبلية التي ستصل المحيط الهـــادي والمحيط الأطلسي أن لا تكون تحت السيطرة الأمريكية لأي سبب من الأســباب. فـــنظرية مونرو ترى أن على الولايات المتحدة أن لا تقبل في هذه المنطقة في العالم أي نفوذ غير نفوذها. فهل بسبب تضيق الخناق كان عليها أن تتجه إلى الخارج مما تطلب ليس فقط تقوية سواحلها بل بناء بحرية حربية قوية لدعـــم الإدارة السياســـية المعلـــنة ألا وهي عدم قبول أي تدخل خارجي بعيد 3 آلاف مـــيل من سان فرانسيسكو داخل حلقة تضم هاواي والكلاباغوس وساحل أمـــريكا الوسطى. تستطيع الولايات المتحدة أن تستلهم العبر من النموذج الذي أثبت جدارته ألا وهو النموذج البريطاني. في هذا الصدد يؤكد ماهان بكل جدية بأن الأمتين يحركهما الحس نفسه بالعدالة وبالحق.

حلـــل ماهان نظرية مونرو موضحاً أن لها جذور سبقت حرب الاستقلال وتعـــود إلـــى زمن حاول فيه المستوطنون منع الفرنسيين من غزو كندا. وهكذا فـــرض الهـــدف نفســـه اســـتراتيجياً على مجمل السياسة الخارجية في أمريكا الوســـطى وفي الكاريبي مدفوعاً بالمصلحة الوطنية وحدها، لذلك لم يكن يعرف أي حدود له. كان على الولايات المتحدة إذاً أن تدخل في مصاف الدول العظمى فـــي منطقة الباسفيك بما في ذلك العمل على بناء قناة المستقبل. وتقوم المصلحة القومـــية المعلـــنة بجوهرها على ربط السيطرة الأمريكية بمناطق تمتد إلى ما وراء البحار. وقد رسم ماهان بمهارة هذه المصلحة القومية وإرادة الهيمنة التي أطغـــى علـــيها الصفة الأخلاقية. ثم يؤكد بأن على الولايات المتحدة أن تضمن لدول القارة الأمريكية وللدول الأخرى إذا اقتضى الأمر إمكانية التطور وتقرير مصيرها السياسي والاجتماعي خارج كل تدخل. ولكي تؤدي بشكل جيد مهمتها هـــذه علـــى الولايـــات المتحدة أن تكون جاهزة للحرب التي رغم كونها عنيفة واســـتثنائية هـــي فعـــل سياسي كأي فعل آخر. وكون الولايات المتحدة «ممثلة للمســـيح» و«مملكـــة الحـــق» فهي لا تستطيع استخدامها في كل مكان يتطلب تدخلها.

النقطة الأولى التي شرحها بالتفصيل ماهان وهي السيطرة الاقتصادية عن

طريق الهيمنة على التجارة الخارجية أوجدت ظاهرة عائلية. فالماضي قد برهن كـيف أن الدخـول للأسـواق الخارجـية قد كان في الغالب لصالح المصالح الأمريكية كون أن الحدود كانت تسمح بالتسرب للصادرات المنافسة. بين أعوام 1816-1828 أوجـدت الإدارات المخـتلفة بتشجيع من أوساط رجال الأعمال نظام حماية فعال سمح لصناعة القطن والصوف أن تحقق أرباحاً مرموقة. ومع مـرور السـنوات أقامت الولايات المتحدة سوقاً مشتركة واسعة خاصة سمحت بدءاً من العام 1861 ليس فقط بتخفيف حدة المنافسة بل أيضاً أصبحت الولايات المتحدة الممول المفضل للعالم كله بالبضاعة وبالمنتجات. في القرن العشرين لم يتـناقص هذا الاتجاه بل وبعيداً عن ذلك تم تدعيمه وأصبحت الحركة التجارية من الولايات المتحدة إلى أوروبا أكثر كثافة(8).

إلـى جانـب الإرادة بضـمان السـيادة الاقتصادية أضيف كالعادة البعد الأخلاقي والديني، فقد حان وقت التبشير ذو الطابع الانتقامي بالشكل الذي دافع عـنه جوزيا سترونغ قائلاً أن: «الإيمان الديني الحي يستوجب مجتمعاً إمبريالياً وعدوانياً لأن الحياة بحد ذاتها بناء». وكصدى بدون شك لمطالب غوردن بنت Gordon Bennett كتـب فـي عـام 1845 يقـول «إن طلائـع الحضارة والمؤسسات الأنكلوسكسونية الحرة تطالب الآن بأرض بعيدة تمتد حتى شواطئ المحيط الهادي. وأنه من الواضح لكل إنسان يتمتع بحس سليم بأن على جيوشنا أن تستولي قريباً على نصف الحركة الأرضية من الأراضي الموحشة المتجمدة إلى المناطق الخصبة والسعيدة في الجنوب». وبعد الأزمة الدينية لأعوام 1840 جاءت الصحوة الثانية (التي كانت جواباً على الأولى التي كان محركها جورج وايـت فيلد قبل قرن) وتوالت الحشود الجماهيرية في المخيمات في جميع أنحاء البلاد ووعدت الحركة نفسها أن تفعل كل شيء لاستعجال حكم الله، ليبدأ العصر الذهبـي الذي يترك في الأنفس تأثيراً عميقاً. فتكاثرت الفرق الدينية التي كانت جمـيعاً تهيـئ مجيء المسيح، مهمة أمريكا كانت إذاً أن تدل باقي العالم على طـريق التوبة والطهارة الكبرى والإصلاح الاجتماعي والمعركة ضد الخطيئة. قبل ذلك في عام 1828 تم وصف أندريه جاكسون الذي أصبح رئيساً بأنه الأداة الجـيدة للعناية الإلهية والمهمة الكونية للولايات المتحدة، وعندما اغتيل لنكولن

---

(8) أعطى بول بيروش الحق لحجج المنظرين الحدثيين لليبرالية الجديدة موضحاً كم كانت الفترات العظمى للثراء وللنجاح الاقتصادي القومي مرتبطة بفترات أنظمة الحماية الاقتصادية.

عـــام 1865 بكت الولايات المتحدة فيه «المسيح الجديد» الذي ضحى من أجل بلاده وكان شهيد الشعب المختار.

توسع وإثراء وضمير صالح:

اختلطت الديانة والاقتصاد والسياسة والأعمال العسكرية بشكل مبهم ومعقد بحيــث لا يمكـــن الفصل بينها في أيديولوجية واحدة غير محددة الأطر، ولكن أهدافهـــا كـــانت راســـخة. إن مفهوم «القدر الظاهر» الذي يعلن حتمية التفوق الأنكلوسكسوني ويدعو الولايات المتحدة لحكم العالم سيطر بشكل أو بأخر على كـــل العقـــول. هـــذا المفهـــوم دمج في آنٍ واحد النوايا الحسنة والعقلية النفعية والتوســـع الكوني، ولقد اختلط الاقتصاد والمسيحية في كيان واحد لائق لا يمكن انتقاده.

مـــن بيـــن العوامل الاجتماعية الثقافية التي ضمنت نجاح الثورة الصناعية الأمـــريكية تـــبرز ظاهرة لا يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر الأخلاقية وهو عمل الأطفال. من أحد الأمثلة: قرية بوتكت Pawtucket (ثلاثة آلاف نسمة) الواقعـــة بيـــن رود أيسلندا وماساشوست، هذه القرية كانت تؤمن ازدهارها من الحديـــد ثم من القطن. أندريه كسبي يؤكد بأن «اليد العاملة عام 1820 تشكلت فـــي ثلـــثيها من الأطفال وكان بعضهم يستخدم في منازلهم» إلا أنه كنا نراعي بعكـــس إنكلترا وفرنسا نشر ذلك على الملأ عن طريق لجان التحقيق والتقارير المقـــلقة بدافـــع إنساني. ولكي يتم تحرير هذا الاستغلال بشكل غير مرئي قمنا باخـــتراع وخاصة على الشاطئ الشرقي المفهوم المريح وهو «أخلاقية العمل» الـــذي يجمع ما بين مفهوم الحشمة حسب العقيدة الدينية والرغبة بتحسين العمل مع ضمانة النفع المادي.

ففـــي شركة بوسطن للصناعات اليدوية قام مؤسسها عام 1813 فرنسيس كبوت لوفل بتشغيل فتيات من المنطقة التي أنشأت فيها المصانع. كانت الفتيات يعمـــلن مـــن الفجـــر حتى الغزوب ويعشن وينمن في مراقد حيث يرتحن قليلاً وينتجن الكثير من المال ولكن دون أن يهملن أبداً الذهاب في الصف إلى المعبد يـــوم الأحـــد. وهكـــذا كانت الأخلاق والأرباح مؤمنة. على هذا النحو يستطيع النموذج الرأسمالي والصناعي الأمريكي أن يعطي للعالم صورة واضحة ونقية

والــذي اســتقبل مــن المالكيــن في القارات الأخرى برحابة صدر لأنه يخدم مصــالحهم المتشــابهة. وبمــا أنـــه بالنسبة للولايات المتحدة لا يمكن أن توجد حضارة خارج هذا النموذج المسيحي الغربي فقد عملت التجارة والضمير الحي معــاً على تأمين استيلائها على العالم. لا يهم وجود هذا الفارق ما بين الخطاب الكلامي والواقع بين المثل لحق الأصول (الذي لم تتوقف المناداة به)وبين الواقع الاجتماعــي الاقتصادي العملي القائم على الاستعباد وعلى مبدأ النفع فإن «أمة الينكــي الكونــية» تسير نحو بلوغ هدفها بشكل كامل. لن يستنكر أحد حتى في الولايــات المــتحدة نفســها المســاوئ التـــي يتضمنها هذا الخليط السياسي – الاقتصادي – الديني دون تحاشي عثرات التناقضات.

عــالم الطبيعة والباحث التجريبي هنري ديفيد تورو (1817–1862) مثلاً بــارك القــدر الذي منذ انحطاط أوروبا التي سقطت عليها اللعنة وهب أمريكا الفكــر القوي والرائع للكاتب الإسكتلندي تلندي توماس كارليل Carlyle احدى ظواهر الوعي الاجتماعي البريطاني عند منعطف القرن التاسع عشر الذي كان وبــخ فــي كــتاباته الــبرجوازية المالكة التي أسست طبقتها النبيلة ليس على الواجــبات المفروضـــة عليها تجاه الشعب ولكن على الامتيازات التي خصلت علــيها نتيجة الثروة. ورأي تورو أن فكر كارليل يجد العذر «لخطايا التجارة». بالفعل هناك خطيئة لأن «الغني يبيع نفسه على الدوام للمؤسسة التي جعلت منه غنياً، فكلما زاد المال تقل الفضيلة لأن المال يقف بين الإنسان وأهدافه يُسهل له الحصـــول عليها». نفس تورو هذا الذي طالب بنظام حيث تكون أحسن حكومة هــي تلك التي لا تحكم أبداً، لأن كل حكومة حسب قوله ليست أكثر من ذريعة تســتعمل غالــباً كأداة من قبل بعض الأفراد، وعلاوة على ذلك فهي تشكل في كثير من الأحيان عقبة لنشاط الشعب والتجارة والتبادلات.

يختفــي التــناقض عن طريق تأثير متبادل بين الدائرة الاقتصادية والدائرة السياسية ليتجسد بذلك كابوس أفلاطون القديم وهاجسه. ومنذ بداية القرن التاسع عشــر أصــبح من الصعب أكثر فأكثر التمييز بين الاثنين. وخضعت الحكومة الفيدرالية أكثر فأكثر لضغوط عالم الأعمال. فهكذا كانت الحال عند نهاية حرب الانفصـــال عندما انتهى فجأة عصر إعادة البناء حوالي نيسان 1877 وغادرت الجيوش الفيدرالية الجنوب تاركة مسألة اندماج السود دون حل دائم. وقد يكون حالـــة الشعب المنهك بعد عدة سنوات من الكفاح وراء ذلك ولكن كان لأوساط رجال الأعمال السبب الأول فيه.

فـــي مرحـــلة إعـــادة البناء كان المنتصر الأكبر بكل تأكيد هو الرأسمالية الصـــناعية. وهذا انتصار لقانون الغاب وقانون الأقوى. كان النموذج هو رجل الصـــناعة الذاتيـــة وهـــو المقـــاول المغامر وبدون رادع الذي ظهرت صفاته الـــنموذجية أولاً لـــدى مؤســـس بناء الرأسمالية الإنكليزية. بالتأكيد لم يكن لدى نظيره الأمريكي في عدة مجالات ما يحسده عليه وإلا كما أشار دانيال بورستين بـــأن بعـــض الصـــفات تـــأكدت وعمقـــت بواسطة فظاظة الطقس والظروف والنضالات النموذجية الأمريكية. ويأتي جون د. روكفلر مثال على مدار الزمن للرأســـمالية الأمـــريكية. إنـــه صائد للأعمال وليس لديه أي رادع فعرف كيف يقتـــنص بشـــكل رائع من كل فرصة سانحة في تجارة الحبوب وتجارة اللحوم وتجارة البترول. وجاءت الأزمة الاقتصادية التي تلت الحرب المدنية (1867-1868) ليســـتفيد بشـــكل رائع منها من كان له مثل مواهبه. فصعد المنافسة مع خصـــومه وحملهم على المجابهة بعضهم على بعض فركز واستغل ولم يتراجع لا أمام التهديدات ولا أمام القسوة ولا أمام التجسس (اشتبه به البعض بأنه يلجأ إلى قتل أعداءه) والمثال على ذلك كان سيسل رودس ذو الميل الإنكليزي والذي اســـتعمل الحماسة الدينية والشراسة في عالم الأعمال. وبشكل مبهم وفي الوقت الـــذي لـــم يوفـــر فيه أحد طرح نفسه كمدافع عن الفقراء وعند موته بنى هذا المتقشـــف الـــذي لا قلب له عن طريق الدمع والدم شركة الزيوت وبنى أيضاً معهد روكفلر للبحث الطبي (1901) ومؤسسة روكفلر (1913).

لـــم تكن مساهمة روكفلر ورفاقه قليلة في إيجاد البنية التي أصبحت تمثل التصـــرف الاقتصـــادي الأمـــريكي فـــي القرن العشرين. ولأنه قوي ومتسلح بالإيمـــان الـــذي يدفعـــه إلى العمل، فقد خدم «الرأسمالي» الأمريكي قضيّتين: قضـــيته الخاصة في الإثراء والنمو العضوي الأقصى، ولكن أيضاً قضية بلاده الـــتي كـــانت مهمـــتها الإلهيـــة تقضـــي بنشر بنى الولايات المتحدة السياسية الاجتماعية الاقتصادية الثقافية في كل أنحاء الكرة الأرضية.

■ ■

الفصل الثاني :

خضوع الدائرة الثالثة

وجدت الولايات المتحدة نفسها في موقع جيد من أجل الوصول إلى السيطرة على العالم عند مطلع القرن العشرين.

أول دائرتين أصبحتا تحت هيمنتها. حدود أراضيها الشرعية (الدائرة الأولى) لم تكن موضع نقاش، وسيطرتها على أمريكا اللاتينية (الدائرة الثانية) باتت أقوى من السابق، وفيما عدا الشريحة المعدمة من عامة الشعب لم يكن هناك أحد على المستوى الدولي يعترض على هذا الواقع اعتراضاً جدياً. فالاستغلال الوقح لهذا الجزء من العالم من قبل الإسبانيين والبرتغاليين والاحتقار الذي عومل فيه السكان الأوائل ولا مسؤولية الأرستقراطيين المحليين أثناء وبعد الثورات عند بداية القرن التاسع عشر ساهمت جميعها في تسليم القارة إلى جار الشمال. وقد عملت الفوضى الاقتصادية والسياسية والصراعات بين الأخوة إضافة للغفلة على جعل أمريكا اللاتينية التي تخلصت من مستعمريها القدامى، فريسة سهلة. أما نموذج جفرسون الذي طبع معظم الدساتير الوطنية وثنائية التمثيل في المجالس والسلطة التنفيذية القوية كل هذا المأخوذ حرفياً عن الولايات المتحدة سهل دخول اليانكي. وخاصة أن معظم البلدان حافظت على الأرستقراطية العقارية (ملاك الأراضي) التي لم تجد الولايات المتحدة صعوبة بإقناعها بأن مصالحها تلتقي بالضرورة مع المصالح المالية لأمريكا الشمالية. وهكذا تقاسمت الأنظمة التي تديرها الأقلية الحاكمة مع أقطاب الصناعة في أمريكا الشمالية السلطة والمنافع ولم يعد أمامهم عند فجر القرن العشرين سوى المحافظة على الأمور على ما هي عليه.

تمت السيطرة على كوبا وبورتوريكو من قبل الولايات المتحدة، وبنما أوجدت هيكلية جعلت منها ملكاً لأمريكا وفي عام 1916 وقعت هاييتي في أحضان خزينة الولايات المتحدة التي استولت عليها فيما بعد عام 1934 عسكرياً ولم تتركها حتى عام 1957 بعد أن ضمنت ولاء الديكتاتور (دوفليه) الذي وضعته في السلطة. ثم جاء دور (سان دومينغ) عام 1924 حيث وضعت على رأس الدولة عام 1930 أحد أعتى طغاة المنطقة وهو (تروجيلو Trujillo) الذي دام نظامه الديكتاتوري حتى عام 1961.

ثم عاد إلى البلاد في عام 1965 وكانت الولايات المتحدة تفرض سيطرتها في كل مكان حين ترى أن ذلك ضرورياً منتهكةً سيادة الدول وهذا ما حصل في الأرض البريطانية في جامايكا عام 1962 حيث كانت شركة الفاكهة متجذرة بالطبع، ثم في غرونادا عام 1983، وقد حدثت هذه التدخلات تحت شعار «إقامة الديمقراطية وحماية المواطنين وحماية المصالح الأمريكية».

في كوبا حدث التدخل الأول يوم أنجز التعديل الدستوري من جانب بلات Platt وبطلب من الرئيس توماس استرادا بالما (الذي انتخب في 20 أيار 1902 بدعم من الأمريكيين). في عام 1906 أعيد انتخابه في انتخابات مزورة مما أدى إلى قيام الانتفاضة. ثم تجدد التدخل العسكري الأجنبي في أيلول من العام نفسه، ودائماً تحت غطاء التعديل. وكأي محمية أمريكية حقيقية، حكم كوبا وليم هوارد تفت W.H.Taft الرئيس المقبل للولايات المتحدة والذي كان حينذاك وزيراً للدفاع فأعلن نفسه «حاكماً عاماً لجمهورية كوبا».

بعد ذلك تم إحكام قدر الجزيرة، فتتالى الرؤساء الضعاف الذين كانوا يدعمون دائماً المؤسسات ورؤوس الأموال الأمريكية الشمالية، أما تدخلات واشنطن فلا تعد ولا تحصى، حتى جاء رامون غروسان مرتان R.G. Sam Martin إلى رئاسة الجمهورية عام 1933 فأتخذ بعض المبادرات لصالح كوبا ومنها إلغاء تعديل بلات، فدعمت الولايات المتحدة أحد العسكريين الكوبيين وهو فليفنسيو باتستا وأوصلته إلى السلطة في 10 آذار 1952. فأدى فساد النظام والفوارق الاجتماعية(9) وأساليب التعذيب التي تستخدمها أجهزة الأمن العسكري ومكتب قمع النشاط الشيوعي الذي أنشأ بتعليمات أمريكية كل ذلك أدى إلى انتفاضة 1959 ثم إلى الثورة.

بشكل عام تفضل الولايات المتحدة الهيمنة الاقتصادية على الاحتلال العسكري، وعلى سبيل المثال كانت سياسة مؤتمرات دول عموم أمريكا شكلاً من الأشكال الإمبريالية المقنعة وقد ضمنت بواسطتها ولاء الحكومات. إلا أن الاستعمار التجاري والمالي قد عمد بشكل أساسي على جعل أمريكا اللاتينية استمراراً لاقتصاد الولايات المتحدة، ومن حكامها اتباعاً طيعين لها. وعشية النزاع العالمي الأول وفي حين كانت المصالح الأوروبية لا تزال في وضع

---

(9) وجدت ثروات ضخمة بفضل البغاء والتجارة مع الولايات المتحدة، وبالمقابل كان هناك بؤس مخيف وخاصة بين صفوف الفلاحين.

متماســك في أمريكا الجنوبية فتح الشطط السياسي للقارة القديمة الطريق أمام انهيارها وعبد الطريق أمام الولايات المتحدة لغزو العالم.

أوروبا التائهة:

في شهر آب عام 1914، أدت حالات التوتر التي بلغت أوجها إلى تمزيق الأمــم الأوروبية التي انقضت على بعضها في جو من المغالاة والحقد والغيظ الجماعــي. إن روح الانــتقام وغرور وتعنت قادة أركان الجيوش المستعجلين للمجابهــة وعــدم الكفاءة المسؤولة لدى القادة السياسيين وجشع رجال صناعة الأسلحة أوصلوا هذه الأمم إلى الانتحار.

لــم يغب عن بال الأمريكيين إيعاز جورج واشنطن لذا لم يتصوروا على الأقل في البداية أي تدخل في الصراع، وكشركاء عاديين لدول التفاهم بعد عام 1917 رغــب الأمريكــيون الاحتفاظ بحرية التصرف ورفضوا اعتبار أنفسهم كحلفــاء وبالعكس فقد أرادوا استخدام وضعهم الحيادي (1914-1916) لجني المنافع ولم يتأخروا مقابل المال النقدي من إرسال الأطعمة والسلاح والسلع إلى المتحاربين وبين أعوام 1914 و1916 ارتفعت وبشكل ملحوظ نسبة التجارة مع إنكلترا وأيضاً مع الدول الإسكندنافيه وهولندا وإسبانيا وسويسرا.

إلا أنــه وبســبب بعض حوادث الاستفزاز وجدت الولايات المتحدة نفسها مجبرة على المشاركة في الحرب، ومن أجل إقناع الشعب بالدخول في الصراع والــذي ضــاق ذرعاً من حرب الغواصات الألمانية التي كانت تضرب السفن الأمريكية ، استخدمت الطبقة الحاكمة الخطاب نفسه الذي استخدمته لعدة مرات فــي كل تدخلاتها السابقة في أمريكا اللاتينية ألا وهو حجة الحفاظ على التوازن الكوني والدفاع عن حرية التجارة وخاصة البحرية وحماية الديمقراطية.

لقد أكد الكاتب أيف هنري نويلهات بأن هذا الوضع يسمح للرئيس ويلسون الذي استقبل هذه الفرصة بارتياح بأن يحقق ما أراده من خلال محاولاته الفاشلة للتوســط وهــو المساهمة في إرساء العلاقات الدولية على قواعد جديدة، ففكرة أداء هذه المهمة لخصت عملياً كل سياسة وندرو ويلسون. علينا هنا أن نفهم ما لــم يــتم التصريح به فاهتمام الولايات المتحدة الأساسي لم يتغير ألا وهو بناء عــالم الغد على الطريقة الأمريكية وتحريك مصالح رجال الأعمال الأمريكيين والاطمئنان إلى أن الهياكل الاقتصادية ستكون في كل مكان وبشكل أساسي في

أوروبا حيث تكون الأولوية للولايات المتحدة. ومن أجل خنق المماطلات الأخيرة للرأي العام وللكونجرس مجدت إدارة ويلسون كالمعتاد روح الحرب الصليبية وعملت على تبسيط الأمور: فمن جهة هناك «الطيبون»خلف أمريكا ومن جهة أخرى هناك «البربر»، وبات الأمر واضحاً أكثر من أي وقت مضى بأن الرئيس الأمريكي مع هذه الظروف المواتية قد أصبح مصمماً على دعم الدمار الذاتي الانتحاري في أوروبا التي قضت على تأثيرها في المستعمرات التي تملكها. فوافق البريطانيون ليولد جورج وارتور بلفور واللورد ميلز على دعم مشروع جيم وايزمن بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ورأت الحكومة الأمريكية بذلك فرصة لتعميق الانقسامات في العالم العربي ولتقسيم الإمبراطورية العثمانية، وفي الوقت نفسه أرادت تهديم الإمبراطورية النمساوية- الهنغارية لأنها كانت تمثل الفرصة الممكنة لبناء أوروبا عند نهاية الصراع.

أما المكاسب التي حققتها الولايات المتحدة بدخولها الحرب فقد ظهرت دون أي تلكؤ. فأولاً كما رأى أندريه كاسبي تم إيجاد حل لمشكلة البطالة «كان هناك عمل للجميع، وحتى لسود الجنوب الذين اكتشفوا طريق معامل الشمال الشرقي». فنتج عن ذلك السلم الاجتماعي لأن «المداخيل الحقيقية للعمال قد زادت بنسبة 25% أما بالنسبة للمزارعين فقد كان عصرهم الذهبي رغم الرسوم التي فرضت على القمح» . وقد بلغت الأرباح المحققة أوجها بفضل التجارة، فالقمح والفولاذ والحديد والنحاس...إلخ قائمة البضائع الأمريكية التي كانت ترسل إلى فرنسا وبريطانيا تطول لأن هذه البضاعة كانت مدفوعة الثمن فبدت الاحتياطات المالية للأمريكيين بأنها لا يمكن أن تنضب.

وانتهت الحرب وإذا كانت نتيجتها مشجعة للولايات المتحدة فأية قوة يمكن أن تقف أمامها في ذلك الحين؟ الحرب بالنسبة لأوروبا كانت كارثة، حوالي 13 مليون أوروبي سقطوا في ساحات المعارك المختلفة ويمثل عدد الخسائر 15% تقريباً من الذكور في ألمانيا وكذلك هي النسبة لفرنسا. لقد مات أيضاً مليون شخص في الأسر وأعطبت الحرب الكثيرين، وضاعف وباء الرشح الإسباني في عدد الضحايا: بشكل إجمالي ليس أقل من عشرين مليون في بضع سنوات. فأين ما اتجه النظر وقع على الدمار والأطلال. خلال هذه المذبحة الجماعية لم يخرج أي بلد أوروبي منتصراً. في مسرحية رولان دور كلس «صلبان الغابة» يتساءل أحد الشخوص قائلاً: السلام أو لا سلام أتى ذلك متأخراً كثيراً، إنها

الهزيمة ولا نستطيع فعل أي شيء فقد تمت اللعبة، بالنسبة لنا إنها هزيمة».

أمـــام هـــذه المذبحـــة لا يسعنا إلا أن نورد هنا الرأي الجلي والخالي من المواربـــة الذي صدر عن جورج ستنر George Steiner واستنتاجه يستدعي كـــل تصـــوراتنا الممكـــنة حول المستقبل فهو يقول:« إننا لا نستطيع أن نرى بوضـــوح فـــي أزمـــات الثقافة الغربية أننا لن نستطيع أن نفهم أصول وأشكال الحركات الاستبدادية لأوروبا الوسطى وعودة الحرب العالمية إن لم نكن نحفظ فـــي أذهانـــنا بشكل دائم التجاوزات التي خضعت لها بعد عام 1918 المراكز الحيوية في أوروبا. فالاحتياطات الفكرية التي لا يمكن تعويضها وقوى التحمل النشـــطة والمهارة السياسية كل هذا تحول إلى العدم. لقد تم قتل الأطفال وكأنهم لـــم يولـــدوا، هـــذه السمة الهجائية لبريخت ولجورج غروث لها أصداء وراثية بشـــكل خاص. فالإنسان الأوروبي ومؤسساته ومن أجل الحفاظ على تقدمه، هو بحاجـــة لخـــليط من القوة الذهنية والجسدية ولموزاييك خلاسي ولنماذج جديدة حيـــث تتعدى الثروة حدود الخيال، وبالمعنى البيولوجي نحن أمام ثقافة تناقصت أو بالأحرى مرحلة «ما بعد الثقافة».

هـــذا الاســـتنتاج القاسي يجد صداه في كلمات الكونت ديونز في مسرحية (الـــليدي بـــرد) للكاتب د.ه. لورانس عندما يردد قائلاً:«هل تفكرون بأن ألمانيا والنمســـا قد خسرتا الحرب؟ لقد كان هذا لا مفر منه. لقد خسرنا جميعاً الحرب، كـــل أوروبـــا (......) إنها حرب انتحارية. ولم يكن أحد قادراً أن يكسبها. لقد كانت انتحاراً لنا جميعاً. فهم (أمريكا واليابان) لا يؤخذون بعين الاعتبار. إنهم لـــم يقومـــوا بأي شيء سوى أنهم أعانونا على الانتحار، إنهم لم يزجوا بأنفسهم فيهـــا بشكل حيوي». ولهذه الكلمات صدى آخر في الملاحظات الخالية من كل وهـــم والمعـــبرة لأبطـــال هـــنري بـــاربوس Henri Barbusse فـــي كتابه (الـــنار):«عندما يلتقي جيشان هناك إذن جيش عظيم ينتحر وقد تكون هذه هي الحرب الأعظم».

كيـــف لنا أن لا نصادق على كل هذه العبارات لمجرد رؤية هذه الأرقام؟ فإضـــافة لـــلدم الـــذي أريق هناك القوى الحيوية التي لن تخدم أوروبا بعد ذلك إطلاقـــاً والشـــباب الذي تمت تضحيته وفقدان التأثير السياسي الدولي. لقد كلفت الحـــرب الكثير الكثير للمملكة المتحدة فالثمن يرتفع إلى 44 مليار دولار. وفي ألمانيـــا تم هدر 22% من الثروة القومية و26% في إيطاليا و30% في فرنسا. وأمـــام أوروبا هذه المحترقة والنازفة والمدمرة كان هناك المنتصر الحقيقي في

الحرب أي الولايات المتحدة. وبشكل بسيط وبريء ولكن أيضاً بفضل مهارتهم الخـــالدة استطاع الأمريكيون أن يعطوا عن أنفسهم الصورة الإيجابية، فاعتقدت أوروبا بأن الأمريكيين اجتازوا المحيط من أجلها، في هذا الإطار يقول المؤرخ جـــان باتست دروسل: «إن قصة دخول الأمريكيين الحرب تدل دلالة جيدة بأن الولايـــات المـــتحدة بوصـــفها الامتداد الجبار لأوروبا بفضل الهجرة لم تدخل الحرب من أجل أوروبا بل قد نستطيع أن نقول: «على عكس ذلك» بالطبع لولا المـــوارد المالية الأمريكية لم تتمكن دول التفاهم من البقاء على قيد الحياة ولكن ويلسون كان هناك لإطلاق بلاده نحو غزو الدائرة الثالثة وكان ينوي أن يفرض عـــلى الأوروبييـــن – الخاسرين وكل المنافسين دون تميز في معركة الانتحار الجماعيـــة– خطـــته ورؤيـــته لـــلديمقراطية الجديدة New Democracy إنها الديمقراطية الدولية تحت قيادة أمريكا».

عصبة الأمم: قيادة العالم إنطلاقاً من واشنطن

أشـــار ويلســـون بشكل خاص في برنامجه الذي أعلنه أمام الكونجرس في الـــثامن من كانون الثاني 1918 بأنه من الآن فصاعداً سيكون على الدبلوماسية الأمـــريكية أن تكـــون «منفتحة» وعلى حرية التجارة البحرية أن تكون إجمالية ويجـــب إزالـــة الحواجـــز الجمركية(10) وتخفيض التسلح ويجب حل المسائل الاســـتعمارية بذهـــنية منفـــتحة وبشكل غير متحيز أخذين بعين الاعتبار أماني الشعوب، النقطة الأخيرة وهي الأهم حملت الرقم 14 وتعلقت بعصبة الأمم.

كـــانت البنية الضمنية لإنشاء المنظمة الدولية المستقبلية في ذهن الولايات المـــتحدة وفيـــة للمشروع الذي غرست بذوره في الحلم الأمريكي قبل أكثر من قـــرنين. فعـــلى عصـــبة الأمـــم أن تكون مطابقة لنظام عالمي مثالي قائم على المـــبادئ الليـــبرالية والحرب باتت ممنوعة وأصبحت من الآن فصاعداً جريمة وســـيكون الحق لكل المدافعين عن النظام العالمي بأن يشهروا السلاح بوجه كل دولـــة معتدية. كانت إدانة الحرب من أجل اجتثاث الإمبريالية تهدف في الواقع كـــل إمـــبريالية منافســـة لإمبريالية صاحب الرسالة أي الولايات المتحدة نفسها

(10) نجـــد في الاتفاقـــات الحالية لمنظمة التجارة العالمية ويطلب من الأمريكيين الرغبة نفسها بإزالة حواجـــز الحماية الجمركية عند الآخرين في الوقت الذي لا يطبقون هم أبداً إلا القواعد التي لا تزعجهم.

ووحدها فقط. وفي الوقت ذاته وإن كان خفض الاسلحة قد حصل في كل مكان (مـــا عدا بالطبع في أمريكا نفسها) فقد تم ذلك حسب النسب التي أرادها الرئيس ويلســـون. وحدهـــا الولايات المتحدة ستكون قادرة على التدخل ضد المشاغبين المحتمـــلين، كما أنه كان هناك أمر أكثر خطورة فلم يكن أي بلد في العالم قادر أن يدافع عن نفسه ضد الأمريكيين أنفسهم.

أما المادة من الميثاق التي ارتأت حرية التجارة البحرية والتي عن طريقها كان ينوي الرئيس ويلسون مقاومة المجابهات الاقتصادية لأن البحرية التجارية الأمريكية تمثل بعد الحرب نصف الأسطول التجاري الضخم لبريطانيا العظمى فقد كانت هذه المادة بمثابة فرض الأمر الواقع على العالم الذي يتيح للأمريكيين امتلاك الجزء الأكبر من الأسواق كما سيكون الحال قريباً في آسيا وفي أمريكا اللاتيـــنية فـــبدون الاحتراســـات التجارية والجمركية لا أحد سيكون قادراً على مقاومـــة الصــــعود الهـــائل لما وراء الأطلسي: كان احتياطي الذهب للولايات المتحدة يعادل نصف ما تملكه مجموعة الأمم (وقد بلغ 60% في عام 1929) كمـــا أصبحت المنتج الأول في العالم للفحم، أما إنتاجها من الفولاذ وصادراتها خاصة للقمح فقد بلغت الضعف. وأتاحت لهم ديون الحرب أن يبقوا السكين فوق حنجرة الدول الأوروبية كلها وأخيراً تزافق تقسيم المستعمرات الألمانية بمظاهر مشبوهة ولم تكن معروفة في السابق. فما كان ويلسون يفرضه على الآخرين لم يكن يطبق أبداً منه شيئاً على نفسه.لقد نادى عالياً بمكافحة الاستعمار في الوقت الـــذي استعمرت الولايات المتحدة سابقاً بشكل مباشر أو بواسطة نظام الحماية قـــارة أمـــريكا اللاتينية إضافة إلى أراضي آسيوية كتب بيار ميكل يقول:«كان يحلو للأوروبيين تذكير ويلسون بأنه رفض أن يسمح لليابانيين من ذكر المساواة العـــرقية في مقدمة دستور المنظمة المستقبلية لعصبة الأمم. كما أنه لم يقم بأي جهـــد لمصلحة الأمم المحتلة والتي يقودها الأمريكيون كالفليبين مثلاً. وأخيراً لم يعـــارض ويلسون تقسيم المستعمرات الألمانية كما أنه لم يعرض وضعها تحت الوصاية».

إن ســـبب فشل عصبة الأمم يعود بدون شك إلى أن أهم دولتين في العالم غير الولايات المتحدة بقيتا خارج العصبة، ولكن أهم من ذلك كله هو أن مجلس الشـــيوخ قـــرر عـــدم دخول أمريكا في العصبة لأنها لم تكن بمستوى ما كانت تنـــتظره. فبدت عصبة الأمم بأنها لا تتناسب مع الصورة التي صنعتها الولايات المـــتحدة عـــن «الآلـــة» الدوليـــة حســـب رغبتها. إلا أن سيطرتها على القدر

المستقبلي للأمم باتت منذ ذلك الوقت مؤكدة.

منعطف فرساي:

امتد عقد مؤتمر السلام في فرساي من 18 كانون الثاني إلى 28 حزيران 1919. وبدأ من أوروبا فقد أدت المتطلبات الأمريكية في فرساي إضافة إلى عناد ريمون بونكاره Raymond Poincaré الذي كان أولاً نصيراً للحرب بهدف الانتقام كما دفع الروس إلى تأييده من أجل تدمير وإهانة ألمانية المهزومة أدى كل هذا إلى تفتيت القارة العجوز. إن إدانة المهزومين وفكرة الديون التي كان عليهم دفعها والتي فرضت عليهم بمثابة العقوبة والشعور الذي نما عندهم بأنهم عوملوا بشكل ظالم كل هذا غرس ولوقت طويل الحقد في القلوب ورسم طريق الانتقام.

لقد قُسّمت أوروبا الوسطى إلى مجموعة من الدول وكل دولة ضمت في أحضانها كخراج ملتهب، أقليات تكره بعضها البعض. أما الإمبراطورية النمساوية – الهنغارية التي استطاعت في السابق أن تحتوي على أقليات تعايشت بشكل منسجم نسبياً ومتجانس فقد تم تقسيمها. الإمبراطورية العثمانية هي الأخرى اختفت وقامت الخلافات وأدى استمرارها إلى تشكيل العناصر الأساسية التي قادت إلى صراع دولي ثاني والى الوضع الحالي في البلقان وفي أوروبا الشرقية كمشكلة اليوغسلاف في ألبانيا وكوسفو ومشكلة السلوفاك وشعوب تشيكا ومشكلة رومانيا وهنغاريا ومشكلة روسيا وأوكرانيا.

وبما أنها منعت أوروبا من إعادة بناء نفسها على أسس أوروبية تاريخية شرعية فقد أضعفت الولايات المتحدة في كل مكان مواقف الأمم الأوروبية الأساسية في العالم وقد خدمها في ذلك بعض قادة الدول الأوروبية غير القادرين على المقاومة. أما المبادئ التي أعلنها ويلسون فقد عملت على زعزعة الاستقرار في قارتي آسيا وأفريقيا. وبدأت ورشة طويلة الأمد بهدف التفتيت. تأثر العرب بشعارات تدين الإمبريالية الأوروبية وبدعوات واشنطن إلى تقرير المصير مما فجر شعورهم القومي. أما الهند وتحت تأثير غاندي فقد قاومت الهيمنة البريطانية ونالت الاستقلال في عام 1947. وفي كل مكان، في مصر وتونس والجزائر والمغرب والهند الصينية والفليبين، قامت معارضة السلطة الاستعمارية الأوروبية. حظ سعيد؟ بدون شك لأنه وفي كل مكان عملت

الولايات المتحدة جاهدة لكي تملئ الفراغات.

وباعتبار أن الأمريكيين كانوا أسياد اللعبة بواسطة الأسلحة وغالباً بالدبلوماسية، وكانوا أسياد الموقف أيضاً بفضل قوتهم المالية فقد استطاعوا متابعة عمليتهم الاستثنائية للبحث عن الثروة ولإقامة البنى الاقتصادية التي تخدم استراتيجية هيمنتهم.

الآلية الاقتصادية الكونية:

بين أعوام 1921-1929 وضعت الطفرة الاقتصادية الولايات المتحدة على طريق ازدهار لم تعهده في حياتها، كان هذا عصر الاستهلاك العالي الكثيف الذي منحها الوهم بأنها أوجدت أخيراً «الجنة على الأرض والوفرة للجميع»، لقد أعلن الرئيس هوفر Hoover بعبارات طنانة بأن الولايات المتحدة «هي الآن أقرب إلى أن تنتصر نهائياً على الفقر بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ في أي بلد كان». فقد فرضت بالتأكيد إرادتها على الأسواق المالية العالمية ولكن النظام الذي أحدثته ما لبث أن ظهر وبشكل سريع بأنه زائغ ويحمل في طياته الخطر. كان الازدهار أولاً نتيجة الفورة الاقتصادية وإن كانت قد صنعت الثروة للكثيرين إلا أنها تركت الأكثر على حافة الطريق. كتب أيف هنري نويلهات Noulhat يقول:« إن نظريات داروين الاجتماعية التي تصر على ضرورة الصراع من أجل البقاء وبأن التقدم البشري مرتبط بنصر الأقوى وبإبعاد الضعفاء تماماً كالقيم البروتستانتية التي ترى بأن النجاح المادي هو مكافأة للجهد، كل ذلك خلق الجو المناسب». وعاد النمو السكاني إلى الازدياد واستمر النشاط الذي يهدف لتوسيع الحدود باتجاه الغرب وعرفت البنوك والصناعة تطوراً استثنائياً. بالمقابل حتى لو ظهر مستوى الحياة قد تحسن بشكل عام إلا أن هوة عدم المساواة تعمقت.

ازدادت ثروة الشركات الصناعية بنسبة 62% بينما لم ترتفع الأجور إلا بنسبة 26% خلال ست سنوات. أما البطالة التي ما أن انتهى المجهود الحربي حتى عادت للظهور، كما زاد عدد أصحاب الملايين (4500 في عام 1914 إلى 11000 عام 1926) واستمرت حماية السوق القومي بواسطة الحواجز الجمركية التي من الصعب اجتيازها في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة تنادي بإلغاء كل أنظمة الحماية لدى الآخرين، وارتفعت كلفة الحياة الاجتماعية

نظـــراً للنشاط الاقتصادي والصناعي والمالي المزدهرين لدى أصحاب الأملاك الأرستقراطيين المزيفين الذين أدانهم جفرسون. فأفتتح فريدريك تايلور المنظمة العلمــية للعمــل وتـــم إعــداد دراسة تحليلية لأفعال العمال حيث باتت تحسب بالدقـــائق. ووضع فورد أول سلسلة للتركيب الذي حول العمال إلى آلة. وخلق منها التمركز المالي للمشاريع نظام احتكاري بالكامل يديره بالغالب الوصوليون الذيـــن لا رادع لهم. فالمنافسات بين المجموعات الاقتصادية والخوف في أمكنة العمـــل وفـــي الورشات وعدم المساواة في الحقوق بين الرجال والنساء والسود وعمـــل الأطفـــال (صادقت المحكمة العليا مرتين في عام 1918 و1919 على قـــانون عمل الأطفال الذي حاول تخفيف وطأته) والظروف الصعبة وفي بعض الأحـــيان غـــير إنسانية كل هذا كان يشكل المشهد الاقتصادي والاجتماعي في أمريكا.

حاولـــت الـــنقابات التـــي قامت في القرن التاسع عشر أن تحقق مطالبها الشـــرعية وكان نصيب النقابات التي لم تحاول بأي ثمن أن تتحد مع مجموعة أرباب العمل أو الخضوع لها الفشل. أما الرؤساء الذين تتالوا على الحكم خلال الســـنوات التـــي تلـــت نهاية الصراعات لم يفكروا أبداً بالجانب الاجتماعي أو الأخلاقـــي. لقد مات وارن كاماليل هاردنغ (1865-1923) كما يبدو على أثر الفضـــائح التـــي طالـــت بعض أعضاء حكومته وعلى أثر جو الفساد الذي ساد آنـــذاك. ولم يستطع كالفن كولدج (1872-1933) منع سير الأمور مهما تكن نـــتائجها. وبقـــي أخـــيراً هربر كلارك هوفر (1874-1964) في الذاكرة لأنه رفـــض توزيع مكافآت الإعانة الاجتماعية إلى العاطلين عن العمل بعد الانهيار المالـــي فـــي عـــام 1929. لقـــد تحقق إذن النموذج المثالي الذي ابتدعه ثورو Thoreau القـــائل بأن الحكومة الجيدة هي الحكومة التي تترك رجال الأعمال ينشطون فلا تحكم أبداً أو تمارس دورها بأقل شكل ممكن.

خلال فترة ما بين الحربين لم تهتم الولايات المتحدة سوى بأمرين: ضمان بحـــبوحة الطـــبقة المترفة عن طريق إعطاء الحرية الكاملة للمشاريع العظمى والعمـــل الدولي المرتبط بالمصلحة القومية الأمريكية فقط. فأمريكا اللاتينية كما رأيـــنا خضعت لوصاية الولايات المتحدة وكانت الاستثمارات والإشراف المالي والصناعي والتدخلات المباشرة أوغير المباشرة (عسكرية، سياسية، دبلوماسية) كافـــية لإبقـــاء أمـــم الدائـــرة الثانية تحت جزمتها. وسمحت لها القوة البحرية والتجارية الأمريكية والوسائل التي استخدمتها أن تمتد باستعمارها لآسيا ومن ثم

لأوروبا.

فـــي ذلـــك العصر استمرت الولايات المتحدة باستخدام ذكي للخطاب ذي الوجهيـــن. ففـــي المعـــاهدات كلها كانت بالطرق الدبلوماسية وبالدعاية تخرب للآخريـــن وخاصة للأوروبيين ما كانت تعمل على بنائه عندها. ولهذا الغرض كانت تستخدم السلاح الاقتصادي كمتمم للسلاح الدبلوماسي والأيديولوجي.

كان من الأنسب لإضعاف مواقف الأوروبيين في مستعمراتهم بشكل أكبر قطـــع ســـبل العيش أمامهم، فبدت الولايات المتحدة متصلبة فيما يخص مسائل الديون. وكانت تستخدم بين أيديها ثلاثة أمور، أولاً: التعويضات الألمانية حيث منحـــت أمـــريكا لألمانـــيا قروضـــاً واسعة من الأموال الفائضة التي لابد من توظـــيفها خارج الحدود الرسمية. ثم كان هناك الديون التي تمت فيما بين دول التفاهم أنفسها، وأخيراً الديون للأمريكيين الذين كانوا يعتبرونها ديوناً تجارية لا يمكـــن تأجـــيلها. الشيء الذي أجبر إذن الأوروبيين بأن يتفقون فيما بينهم لدفع الديـــون. وبمـــا أن الولايات المتحدة تقوم بمد ألمانيا بالأموال بصفة الدين وهي العدو السابق ألم يكن بإمكانها إذن أن تفعل الشيء نفسه مع شركائها القدامى؟!! بـــالواقع لـــم تكـــن تمـــنح قروضـــاً إلا للدول التي كانت تدفع ديونها. فلم يكن باســـتطاعة، الـــيابان والاتحاد السوفيتي وفرنسا، القوى الاستعمارية الأهم بعد الحليف البريطاني الحصول على أي شيء. وهكذا وجدت دائرة عبثية: الولايات المتحدة تقرض ألمانيا التي تدفع التعويضات إلى الحلفاء والذين بدورهم يدفعون للأمريكيين ما يتوجب عليهم من ديون.

آلـــية محفوفـــة بالمخاطـــر وبـــدت زيادة الإنتاج تهدد بالخطر أكثر فأكثر وســـمحت القروض الشخصية للأفراد بالشراء مما ساهم بتبديد المواد المكدسة وقاد هذا التضخم الناتج عن تخفيض مفاجئ للقروض إلى الكارثة.

نحو الانهيار الأوروبي:

دل انهيار عام 1929 إلى أي درجة كان يشكل النظام الاقتصادي العالمي سلاحاً مرعباً وقد استخدمته الولايات المتحدة كأداة لغزو الكرة الأرضية.

فـــي غداة الصراع الأول كانت الديون الأمريكية على أوروبا ضخمة. وقد ظهر تفوق الولايات المتحدة عن طريق مضاعفة التبادلات المالية بين 1919 و 1930. أمـــا أزمة النظام النقدي الدولي عام 1930 ثم انفجاره عام 1933 فقد

عمــلا علـــى خلـــق حرب نقدية بواسطة المضاربات في سوق الصرف. وقد حققـــتالأعوام بيـــن 1914-1918 للولايات المتحدة ازدهاراً لم يسبق له مثيل. كتـــب أندريه كاسبي يقول:«منذ عام 1915 عندما فهم المتحاربون أن الصراع لن يكون قصيراً كما كانوا يأملون شكلت الولايات المتحدة مخزناً للمواد الأولية وللمـــواد الغذائية وللمؤن. لقد سعد الصناعيون والفلاحون والتجار الأمريكيون ببـــيع الأطعمـــة أي القمح واللحوم والسكر والمواد الصناعية كالحديد والفولاذ والمحـــركات دون أن ننســـى القطن والأدوية بفضل حيادهم الذي لم يمنعهم من الـــتجارة مـــع المتقاتلين» ولن ننسى الأوساط المالية لأنه«منذ كانون الثاني عام 1915 أخـــذت المصـــارف الخاصـــة وعلـــى رأسها مجموعة مورغن بتقديم القـــروض المالـــية إلـــى الفرنسيين والى البريطانيين (...) من هنا نستنتج بأن أوســـاط الأعمال أثرت على الرئيس ويلسون... ولكنها لم تكن بحاجة لاشتراك الولايات المتحدة في الحرب لكي تجني الأرباح الخرافية». وقد بدا واقعياً واثقاً مما يقول عندما أعلن ويلسون بأنه عند نهاية الحرب ستكون قوى الحلفاء رهينة بيد الولايات المتحدة.

مـــا كان يبدو أنذاك واقعاً بشكل جزئي أصبح واقعاً حقيقياً تماماً منذ بداية الحـــرب العالمـــية الثانية التي ما كادت تعلن حتى ساعدت التوسع الاقتصادي للولايـــات المتحدة وفتحت الأبواب أمام أسواقها وبدلت الأعمال الفاشلة لسياسة روزفلت إلى نجاحات. يقول كاسبي بأن «جدول المؤشرات الاقتصادية دل على أن الحصـــيلة الاقتصادية للجدول الجديد New Deal كانت هزيلة. صحيح أن عـــدد العاطليـــن عـــن العمل كان أقل ولكن الضرّر كان مستوطناً لذا كان من المفروض أن يكون هناك إنتاج مكثف وهذا ما تطلبته الحرب إضافة للاستنفار العـــام للـــرجال الذين هم في سن حمل السلاح لكي تختفي شريحة من لا عمل لهـــم». فـــإذا كانت الولايات المتحدة قد أصبحت «ترسانة الديمقراطية» فهي لم تفعـــل ذلـــك بشكل هبة أو بصورة مجانية. في الرابع من تشرين الثاني 1939 «بـــدل الكونجرس الحظر التام ببنود الدفع الفوري والشحن: لم يكن الأمريكيون يســـتطيعون بـــيع الأســـلحة إلى المتحاربين إلا بشرط أن يدفعوا نقداً ويتكفلوا بالشـــحن» فعانت بريطانيا العظمى مالياً لأنها كما قال ديغول في مذكراته حول الحـــرب «كان على الإنكليز خلال هذا الشتاء المظلم أن يدفعوا ثمن مشترياتهم بالذهـــب وبالعملات الصعبة». أما الرهانات السياسية فلم تكن منسية فقد تنازلت الولايـــات المـــتحدة (لـــيس بدون خلفيات) لبريطانيا العظمى عن خمسين سفينة

مقابل استخدام القواعد الإنكليزية لأجل غير مسمى في الأرض الجديدة وفي الباهاما وفي برمودا.

شعر روزفلت منذ عام 1937 بأن الحرب في أوروبا لا يمكن تحاشيها ومباشرة لاحظ المكسب الذي يمكن للاقتصاد الأمريكي ربحه من خلال هذه الحرب بفضل الإنتاج المكثف والاستنفار العام لصالح المجهود الحربي وبذلك يمكن تأمين الأسواق وحل مشكلة البطالة. وشيئاً فشيئاً جهد الرئيس لإقناع المواطنين بأنه لا يكفي أن تكون الولايات المتحدة «ترسانة الديمقراطية» بل يجب عليها المشاركة بفاعلية في «الحرب الصليبية ضد إمبراطورية السوء (اليابان وألمانيا)» وفي هذا الإطار قال كلود فوهلن:«كان يجب إذن إقناع الرأي العام بأن الدول الاستبدادية تهدد القيم التي اعتقدت بها الديمقراطية الأمريكية». في الوقت ذاته ترك ستالين يتصرف بحرية في أوروبا الشرقية لأنه كما قال أندريه كاسبي فهم بأنه «هكذا يعمل على كسب السلام كما هو في طور كسب الحرب».

وَفَّرَ الهجومُ الياباني على بيرل هاربر العنصر الحاسم الذي جعل الولايات المتحدة تقرر دخول الحرب. هل كان ذلك مفاجأة؟ ودون اللجوء إلى الإدعاء كما فعل بعض المؤرخين بأن اقتراب الأساطيل اليابانية الذي حدث قصداً من أجل أن يصبح اشتراك الولايات المتحدة في الحرب أمراً لا يمكن تحاشيه(11). إلا أننا بالمقابل نستطيع أن نؤكد بأن المجابهة مع اليابانيين كانت مخططة سلفاً، وإلا كيف لنا أن نفسر الإجراءات الاقتصادية بحق اليابان في أيلول 1940 إلى تموز 1941 التي هدفت إلى حرمان هذا البلد من المنتجات الإستراتيجية خاصة البترول؟ كما أن الولايات المتحدة هيأت نفسها للعمل ضد ألمانيا. فأقامت في الأطلسي منطقة محايدة لتجبر الألمان بحصر عملياتهم في الجزء الشرقي. تبع ذلك وقوع بعض الأحداث التي لم يمكن تحاشيها وخاصة بعد أن تقرر اشتراك سفن الحرب الأمريكية بمرافقة مواكب البواخر في شمال الأطلسي في أيلول 1941. وفي 17 تشرين الأول أصيبت المدمرة كرني بالأضرار أما المدمرة روبن جيمس فقط تم إغراقها في مياه المحيط في 31 تشرين الأول.

---

(11) يجب أن نعترف بأن أسطولاً بهذه الأهمية وقادراً على التوجه إلى جزر هاواي دون أن يتمكن النظام الدفاعي الأمريكي من اكتشافه يشكل أمراً مشبوهاً وخاصة إذا علمنا أن إدارات مسؤولين كبيرين في القيادة الأمريكية قد تم إخطارها بالتهديد الياباني وهذان المسؤولان هما الجنرال مارشال رئيس أركان الجيش والأميرال كنغ قائد أسطول الأطلسي.

فـــي 11 كـــانون الأول 1941 عـــندما أعلنت ألمانيا وإيطاليا الحرب ضد الولايـــات المـــتحدة كـــان الأمر قد حدث، لقد نبت هذا الصراع بسبب الشطط الأوروبـــي منذ بداية القرن وبسبب نتائج ذلك وخاصة اتفاقية فرساي المشؤومة التي فرض الأمريكيون القسم المخيف منها والتي سلمت إليهم الدائرة الثالثة.

روزفلت وغزو العالم:

أتـــاحت المجابهـــة مع اليابان للولايات المتحدة أن تهيء وتتجز السيطرة السياســـية ومـــن ثم الاقتصادية على آسيا تماماً كما فعلت واشنطن في أمريكا اللاتيـــنية. أولاً كانت الفرصة مؤاتية لوضع حد للنفوذ الأوروبي في هذا الجزء من العالم. بعد عام 1945 بات موقف الهولنديين (الهند الهولندية) والبريطانيين والفرنســـيين غير محتمل، وعندما هزمت الولايات المتحدة اليابان تخلصت من المنافس الوحيد القادر على أن يقف في وجهها في المحيط الهادئ.

أمـــا بالنسبة لنوايا الأمريكيين في أوروبا فقد تأكدت شيئاً فشيئاً مع مسيرة العمـــليات. وأضـــافت الولايـــات المتحدة إلى إرادة تنظيم الحرب على الأرض الأوروبيـــة بهدف إعادة ترتيبها بعد الحرب نيتها إلى إبعاد المزعجين وخاصة فرنسا غير الفيشية.

بذل الأمريكيون جهدهم لتقوية علاقاتهم مع حكومة فيشي منذ عام 1940، وفي كانون الأول أرسل روزفلت الأميرال ليهي والقنصل روبرت مورفي الذي كـــان شـــديد العداء لفرنسا الحرة إلى ويغان Weygand في شمال أفريقيا قبل ذلـــك كانت هناك محاولة من أجل تقليل شأن الحركة الديغولية من خلال اتهام الأميـــرال موسيليه Muselier بالتورط في مؤامرة بالاتفاق مع حكومة فيشي. إلا أن هـــذه المحاولة المدعومة من ضباط بريطانيين بتشجيع من الأمريكيين تم فضحها من قبل ديغول الذي تلقى فيما بعد اعتذارات من تشرشل ومن أيدن. في 24 كانون الأول 1941 حصل موسيليه نفسه على انضمام سان بيار وميكلون إلى حكومـــة فرنسا الحرة، مما أثار غضب الولايات المتحدة التي كانت منهمكة بالـــتفاوض مع حكومة فيشي من أجل حياد جزر الأنتيل. في شباط عام 1942 أصبح السير أرتور ترافرس هاريس (1892-1984) مدير إدارة المدفعية وعاد إلى الولايـــات المتحدة حيث كان على رأس وفد القوى الجوية الملكية. ألم يكن إذن مـــن المفاجئ أن يعتمد على تكتيك سمي «بقصف المنطقة» التي تحمس لها

الأمريكيون بشكل كبير والتي كانت تهدف إلى إحداث دمار واسع في الأراضي الألمانـــية. فقـــد تم قصف ستين مدينة من أكبر المدن مما أحدث الرعب الذي اســـتمر حتى نهاية الحرب ولم يتم فقط استهداف ألمانيا بل أيضاً فرنسا وبلجيكا حيث قصفت حتى الدمار مراكز اقتصادية عصبية وتصاعدت العمليات بالتعاون بيـــن القوى الجوية الملكية والقوى الجوية للولايات المتحدة حتى شهر آذار عام 1943. في عام 1942 انطلقت عملية ما سمي بـــ(تورش Torch) التي هدف الأمريكيون والبريطانيون منها الإنزال في شمال أفريقيا في وسط الإمبراطورية الفرنســـية والـــتحالف مـــع فيشي بغية استعادة موقع لهم في أوروبا ولجم نفوذ فرنســـا الحـــرة في المنطقة. لتحقيق ذلك جرت اتصالات مع الأوساط المعادية لديغـــول أي الجنرال جيرو في الرابع من أيلول من قبل روبرت مورفي. في 8 تشـــرين الثاني انطلقت العملية، في 13 من الشهر نفسه أصبح الأميرال دارلن المتحدث الرسمي للحلفاء مما أثار غضب الجنرال ديغول. وعندما اغتيل دارلن خلفـــه فـــي منصبه جيرو. إذن لم يكن مستغرباً أثناء مؤتمر «الدار البيضاء – أنفـــا» مـــن 13-24 كـــانون الثانـــي 1943 أن يرفض ديغول فكرة روزفلت وتشرشـــل ومستشـــاريهم العسكريين بإقامة قيادة ثلاثية يكون فيها ديغول نفسه تابعاً لجيرو وللجنرال جورج.

ديغول ومقاومة روزفلت:

لا يوجـــد أي شـــيء يمكـــنه إلقـــاء الضوء على النوايا الأمريكية المتعلقة بمســـتقبل العـــالم افضـــل مـــن العلاقـــة الخاصة جداً التي قامت بين روزفلت ومستشـــاريه مـــن جهة والجنرال ديغول من جهة أخرى. منذ بداية اللعبة كان روزفلـــت يـــبغض ديغول. لقد رأى فيه دون شك الشخصية الأوروبية الوحيدة القويـــة التي تملك ما يكفي من النباهة لاختراق النوايا الأمريكية ومن التصميم الكافـــي لمـــنع حدوثهـــا. هناك أمران أساسيان ميزا مخططات روزفلت أولاً: المحاولـــة المدعومة لإخراج ديغول وحكومة فرنسا الحرة من أجل ترتيب عالم مـــا بعـــد الحرب على هواه. أشار الجنرال إلى ذلك في مذكرات الحرب Les Mémoires de la guerre فقال:«في العمق إن ما كان الأمريكيون يعتبرونه تحصـــيل حاصـــل هـــو إلغاء فرنسا وبهذا كانوا في وضع منسجم مع حكومة فيشـــي» وأضاف: «أمام ضخامة الموارد الأمريكية وطموح روزفلت الذي كان يـــريد أن يفرض قانونه ويوزع الحقوق في العالم كنت أشعر أن الاستقلال هو

المشكلة». ثانياً تأكيد استمرار محاباة بريطانيا العظمى تجاه الأهداف الإمبريالية لمستعمرتهم القديمة. حول ذلك يقول ديغول:«إن دخول روسيا وأمريكا الحرب الذي حمل معه ثقل التحالف مع دول عظمى كان من المفروض أن يدفعها إلى التقارب من سياستنا وتعمل وبشكل متضامن وصريح في أوروبا وفي المشرق وفي أفريقيا وفي المحيط الهادي» ولكن لم يحدث شيء من هذا. وكان الموقف البريطاني تجاه الجنرال ديغول يتغير حسب اشتداد الضغط من روزفلت. في بداية تموز 1941 بدء جو العداء بالظهور. وأتخذ إذن القرار من قبل الرئيس الأمريكي بأن لا يعطي لحكومة فرنسا الحرة الدور الرئيسي لمقاومة النازية بل لفيشي وتصنعت وزارة الخارجية الأمريكية تجاهل ديغول وأنصاره.

في كتابه القيم حول شارل ديغول وصف جان لاكوتور Jean Lacouture التقلبات التي رافقت مراحل «التعاون» بين ديغول والحكومة الأمريكية طيلة فترة الحرب مشيراً إلى عداء وكراهية روزفلت ومستشاريه الأساسين للجنرال ديغول له جذوره في الموقف المعارض الصريح الذي أعلنه ديغول ضد الأهداف الإمبريالية الأمريكية. تنبأ ديغول ودون تباطؤ بأنه لا يمكن أن يترك الساحة حرة للأنكلوسكسونيين، فعمل على إقامة علاقات مباشرة مع الاتحاد السوفيتي لأنه وكما يقول الصحفي جيرار جوف Gèrard Jouve كان لديه القناعة القوية بأن فرنسا والاتحاد السوفيتي «هما قوتان قاريتان ولذلك لديهما قضايا وأهداف نوعية مختلفة عن أهداف القوى الأنكلوسكسونية».وبرهن بعد ذلك عن الواقعية أمام المصلحة العليا لقضية التحالف فحاول إقامة تقارب مع واشنطن في نهاية كانون الثاني 1942 إلا أن روزفلت والقوى الناطقة بالإنكليزية ردوا بميثاق الأطلسي الذي أعد ووقع على متن باخرة الحرب برنس أوف ويلز (أمير ويلز) في شهر آب 1941 وهذا الميثاق يطرح من جديد النقاط الأربع عشرة لمخطط ويدرو ويلسون. يطالب الميثاق بأن تتخلى الديمقراطيات المتحالفة عن بعض المكاسب في الأراضي وتشجع تقرير المصير للأمم المستعمرة بواسطة قوى أخرى أي الولايات المتحدة بالطبع.

يعود تاريخ كراهية روزفلت لديغول إلى ما اتفق على تسميته «قضية دكار» التي كما كتب لاكوتور «حولت المشاعر غير الودية لروزفلت ولمعاونيه إلى حذر شرس تجاه ديغول». في 27 آب سمحت النيويورك تايمز لنفسها أن تضع موقع الشك شرعية الحركة التي أعلنها الجنرال بعد نداء 18 حزيران.

الإشـــارة الأولى لــلفظاظة الأمريكية تعود إلى كانون الأول 1941 عندما قام وزيـــر الخارجية الأمريكية كوردل هال بتسمية الفرنسيين الأحرار بأولئك الذين «يطـــلقون عـــلى أنفسهم» اسم حركة. فبذلك نما كما يذكر لاكوتور بين ديغول وبيـــن روزفـــلت عنصر حساسية وعند الرئيس الأمريكي بشكل خاص «قناعة مخالفـــة لـــلعقل وعنيدة أدت إلى عدم الرؤية والى مشاعر التنافر بعيداً عن كل تعقـــل» كان من الواضح أنه إذا كانت الولايات المتحدة تدعي أنها تحارب «من أجل انتصار الأنظمة الديمقراطية» فإنه نجم عن ذلك مخططات أعدها روزفلت لإعادة ترتيب الكرة الأرضية إلا أن الدافع الضمني لم يتم الإفصاح عنه.

انســجاماً مـــع المفهـــوم الفيدرالي والمعادي للاستعمار الخاص بهم جابه الأمريكيون كل رؤية وسطية وإمبريالية عرضها الآخرون. إن غزو فرنسا كان يفـــترض تأمين منصة لتخليص أوروبا من المحتل الألماني من أجل إبداله بقوة أخـــرى يســـتطيعون الإشـــراف عليها. في هذا الإطار بدا الجنرال ديغول إذن عنصـــراً مـــزعجاً. المكانـــة التي أعطيت لفرنسا كانت ثانوية، كتب لاكوتور يقـــول:«إن كـــان الفرنسيون قد هيئوا المساحات الأرضية لتمكين الطائرات من الهـــبوط وأرسلوا بعض المعلومات وهاجموا بعض القطارات وقدموا خبراءهم (إن كـــان لديهـــم بالطـــبع)...» مقـــابل ذلك أعطوا أرضاً ليست اقل بكثير من أرضـــهم قبل عام 1940 (ما عدا بعض الاستثناءات جهة بلجيكا التي كان يجب توســيعها) تحت رعاية لجنة عليا أمريكية مكلفة بإعادة تأهيلهم وشرطة دولية مهمـــتها فـــي فرنســـا «المـــنـــزوعة الســـلاح» أن تحافظ على النظام داخلياً وخارجيـــاً... هذا ليس غرض كاريكاتيري إنه بحق الحصة المعطاة لفرنسا من قـــبل الأمريكيين حسب مجموعة الأفكار التي قدمها الرئيس التنفيذي الأمريكي من عام 1940 إلى عام 1944 وحتى يوم الإنزال في النورماندي.

لم تنظر الإدارات الأمريكية إلى ديغول «إلا كبقايا صغيرة وفظة من قصة انقضـــى زمـــنها، ومـــن تاريخ لا يتناسب مع الوقت الراهن» هذا ما عبر عنه دبلوماســـيون مثل مينار بارنز وفرمان ماتوز المسؤولان عن توجهات روزفلت ووزارة الخارجيـــة الأمـــريكية طيلة تلك السنوات. أضاف لاكوتور يقول:«في كتابات بارنز بدت فرنسا بعد انكسارها وهزيمتها كأنها لم تعد موجودة كأمة أما بالنســـبة لـــــ «فريمان ماتيو» فإن الديغوليين هم عبارة عن قطاع طرق» وقد اعتمد وزير الداخلية الفيدرالي هارولد أيفز نفس العبارة.

كان روزفلت محاطاً بأخصائيين معاديين لفرنسا ولرئيس مقاومتهامثل كوردل

هــول الذي لم يكن يعرف عن فرنسا أي شيء وسمنر ويلز الذي كان يخشى كثيراً الأوروبيين وأدولف برل ووليم ليهي والأميرال روبرت مورفي – الدبلوماسي- كل هؤلاء كانوا ضعاف البصيرة فزرعوا الحذر ضد فرنسا وضد ديغول.

نقــل أدريـــان تكســيه محادثات حضرها وتمت بين أندريه فيليب الناطق الرســمي لديغول وروزفلت وسمنر ويلز في لندن في 20 تشرين الثاني 1942 وخلال هذه المحادثات قال روزفلت: «بالنسبة لي فرنسا لم تعد قائمة من وجهة الــنظر السياسية حتى يأتي وقت تنظم فيه انتخابات لاختيار ممثلين لها»، أراد روزفلت إذن أن يبدو برغماتياً عندما قال:«أنا لست مثالياً مثل ويلسون، أنا أهتم قــبل كــل شيء بالفعالية، عندي قضايا يجب حلها. فأهلاً وسهلاً بمن يساعدني على حلها. دارلن يعطيني اليوم الجزائر وأنا أصرخ عاش دارلن، وإذا أعطاني كسيلنغ أوسلو أصرخ عاش كسيلنغ!... فليعطني لافال Laval غداً مدينة باريس وسأصرخ عاش لافال!».

وتتالت ازعاجات وعلامات الاحتقار تجاه قائد فرنسا الحرة في تموز عام 1942 عندما تم اتخاذ القرار بإطلاق عملية إنزال الحلفاء في شمال أفريقيا التي اســتبعد منها الفرنسيون لعدة أسباب. يطرح جان لاكوتور سؤالاً فيقول:«هل لنا أن نفــترض وجــود دوافع أخرى لدى روزفلت؟ ألن يسمح له هذا التدخل في أفريقــيا الشمالية عملياً بتحقيق هدفين شخصيين هما تطهير أفريقيا الشمالية من الاســتعمار الفرنســي ومــنح الجنرال ديغول ما أسماه ميلتون فيورسه «بفيزا النسيان»؟ على سؤال لاكوتور هذا لا نستطيع إلا أن نجيب بالموافقة. المفاوض الذي اختاره روبرت مورفي وهو الجنرال ويغان Weygand «كان مدعواً في شــمال أفريقــيا بشكل قوي من المعادين للألمان والمعادين لديغول والمنحازين للأمريكييــن» ممــا يؤمن أيضاً خدمات محبي أمريكا من رجال الأعمال ومن بينهم جاك لومفر دبري صاحب زيوت لسيور وهنري داستيه ولافيجري. كتب الجــنرال جــيرو نفســه إلــى مورفــي في 28 آب 1942 بأنه علينا أن نطع «الفرنســيين المنشقين» أي ديغول وفرنسا الحرة خارج إطار الإنزال ولا يجب أن يعلموا عنه أي شيء. «بهذا الشكل أعطى جيرو للأمريكيين الإجازة بالتدخل بالشــؤون الفرنســية وباضطهاد من يحلو له عن طريق العودة إلى هذا الحكم الجديد للمصالح الفرنسية».

لــم يكــن روزفلت ينتظر موافقة جيرو.، فقد كتب يقول:«أنا أرى أنه من الضروري أن يبقى ديغول جانباً ويجب ألا نعطيه أي معلومة»، وأنجزت عملية

تـورش دون صـعوبة والمسـؤوليات التي كان يجب منحها بشكل طبيعي إلى جيـرو أعطيـت لدارلن من قبل مورفي والجنرال كلارك بالاتفاق مع واشنطن ووزارة الخارجيـة فـي لندن وتسارعت الإجراءات المعادية لديغول فتم تعيين مـراقب برامج أمريكي في الإذاعة فمنع أي هجوم ضد دارلن وبتان Pétain. وإلى جـانب الإيعـاز الـذي وجهه ديغول إلى تشرشل بعدم السماح للولايات المتحدة بقيادة الصراع صدر بيان من اللجنة الوطنية الفرنسية صرح فيه ديغول بأنه يرفض تحمل أي مسؤولية في المفاوضات التي يقودها الحلفاء تحت الإدارة الأمريكية في شمال أفريقيا. فرد الأمريكيون «بتصعيد المحظورات وبالفرمانات الاستبدادية وبالضغوط على الناطق الرسمي لفرنسا المقاتلة».

كان هذا هو زمن الخضوع الإنكليزي وخاصة خضوع تشرشل أكثر فأكثر لأوامـر واشنطن. يقول ديغول:«إن رئيس الوزراء كان قد قرر ألا يقوم بشيء هـام إلا بالاتفـاق مـع روزفلت. فإذا كان أكثر من أي إنكليزي يؤيد الوسائل الأمريكية غير المناسبة وإذا كان يتحمل بصعوبة حالة التبعية التي وضعت فيها الولايـات المـتحدة الإمبراطورية البريطانية بسبب المساعدات وإذا كان يشعر بمـرارة لهجـة التفوق التي كان يعتمدها روزفلت تجاهه فلأن تشرشل كان قد قرر بشكل نهائي أن يخضع أمام ضرورة الحلف الأمريكي. لذلك لم يكن ينوي أن يتخذ تجاه فرنسا الحرة أي موقف حاسم إزاء موقف البيت الأبيض. لقد كان روزفلت حذراً من الجنرال ديغول أما تشرشل فكان متحفظاً». بالنسبة لروزفلت فلقد استمر بالتعاطي مع تحفظات الجانب الفرنسي المناضل بهزء معلناً احتقاره لكل ما يمكن له أن يكون بمثابة «الضمير الوطني الفرنسي».

الأكـثر تعبيراً عن ذلك هي قراءة المخططات التي أعدها روزفلت لأوروبا (آذار 1943) عـندما ستنتهي الحرب. فمجموعة الجيوش الأوروبية سوف تكون تحـت سـيطرة ثـلاث دول هي بريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وسيكون إذن تحت تصرف هذا الثلاثي الإشراف الكامل على معظم دول القـارة العجوز. فسيتم تقسيم بلجيكا وإنشاء دولة جديدة: والونيا Wallonia تضم بـلجيكا الحاليـة الوالونيـه واللوكسبورغ والإلزاس واللورين وجزءاً من شمال فرنسا. يقول لاكوتور:« قرر روزفلت من الآن فصاعداً أن يعامل فرنسا ليس كبلد محـرر بل كبلد محتل خاضع لإدارة عسكرية إنكليزية – أمريكية». إلا أن رؤى روزفـلت قد تعطلت عندما أصدر الجنرال ديغول تعميماً أعلن فيه أن «كل قطعة مـن الأراضـي المحـررة ستدار بواسطة مندوب تعينه اللجنة الفرنسية للتحرر

الوطـــني CFLN فـــي الوقـــت نفسه أعلن المجلس القومي للمقاومة بأن اللجنة الفرنســـية للتحرر الوطني هي الحكومة الشرعية لفرنسا . وفي 3 حزيران 1943 أصبحت اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية».

تثبيت الخط السياسي:

ممـــا لـــم تغفره الولايات المتحدة للجنرال ديغول هو أنه جسد مبدأ السيادة القوميـــة المرتكزة على أولوية المبدأ السياسي الذي كان عند الاقتضاء يمكن أن يعـــرقل أهدافها في الهيمنة. هذا الدور الذي خص الجنرال ديغول نفسه به أكده جـــان مولان Jean Moulin في رسالته إلى الجنرال:«بماذا يتعلق إذن الأمر خـــارج قضـــية تحرير الأرض؟ بالنسبة لك الأمر يتعلق باستلامك للسلطة ضد الألمان وضد فيشي وضد جيرو ومن المحتمل أيضاً ضد الحلفاء»بناء على ذلك رأى لاكوتـــور بأن تعيين اللجنة القومية للجمهورية هو تجسيد «لعنصر التحدي ضـــد روزفـــلت: لا، فرنسا لن تكون «المحمية» التي حذر منها أنطوني أيدين مفاوضـــيه فـــي واشـــنطن». لأن الولايات المتحدة وإن استخدمت البريطانيين كـــأدوات فهي لم تكن لينة معهم. فالسياسيون أمثال فالز وويلكي والصحف مثل لايف ماغزين في «رسالتهم المفتوحة إلى الشعب الإنكليزي» لم يترددوا بانتقاد أســـاليب الإمـــبريالية الإنكـــليزية. هنري غريمال يذكرنا بذلك فيقول«من يالطا خضع تشرشل لهجوم الحليفين الكبيرين اللذين هما مبدئياً ضد الاستعمار. أحدهم (ســـتالين) باســـم نظـــرية بـــلاده الرسمية والآخر (روزفلت) لأسباب تاريخية واقتصادية». «الأسباب التاريخية» باتت معروفة لدينا وهي كيف يمكن السيطرة عـــلى العالم إذن كان لا يزال هناك أماكن تخضع لإشراف أمم أخرى منافسة؟ أمـــا الأســـباب الاقتصـــادية فهـــي ليست بحاجة لتفسير. إن الضغط الأمريكي المســـتخدم بحذاقة لم يكن غريباً عن استقلال الهند وبرمانيا وسيلان. وإن كان اســـتقلال الـــدول التي خضعت بالسابق للهيمنة الاستعمارية هو قضية شرعية واضحة فالموقف الأمريكي أقل شرعية. فتجاه الكلام الأخلاقي الموجه لفرنسا ولـــبريطانيا العظـــمى ولبـــلجيكا ولإسبانيا وللبرتغال عن حق الشعوب بتقرير مصـــيرها كـــان هناك سياسة الاستيلاء القائمة على احتلال مواقع السلطة التي تركتها هذه الأمم.

أخـــذت المحاولات اليائسة للتخلص من المزعج ديغول بُعْدَهَا الحقيقي يوم الإعـــداد لعملية أوفر لورد Overlord، لقد قررت الولايات المتحدة من جانب

واحـــد بأن القوى الفرنسية ستكون تحت تصرف هيئة أركان الحلفاء ويكون لها حـــق التعامل معها كيفما تريد. ثم اقنع روزفلت ملك إنكلترا بأن لا يخبر ديغول وحكومة فرنسا الحرة بالجدول الزمني لتحرير الأراضي الفرنسية. هذا الموقف أديـــن من قبل الصحف الإنكليزية والأمريكية كلها. أما تشرشل فقد برهن مرة أخـــرى عن طاعته وانصياعه وعندما كان يوجه له الانتقاد كان يصرخ «كيف تـــريدون مـــنا نحـــن البريطانييـــن أن نتخذ موقفاً منفصلاً عن موقف الولايات المـــتحدة؟ إننا سوف نحرر أوروبا وهذا لأن الأمريكيين معنا لتنفيذ ذلك، فعليكم إذن أن تعلموا بأنه وفي كل مرة يكون علينا أن نختار بين أوروبا وبين عرض البحر سوف نختار دائماً عرض البحر. وفي كل مرة علينا أن نختار بينكم وبين روزفلت سأختار دائماً روزفلت».

فـــي الفترة الواقعة بين عام 1939 (بداية الحرب العالمية الثانية) وكانون الأول عـــام 1941 (دخـــول الولايات المتحدة الصراع) أنجزت أوروبا عملية الانتحار الجماعي التي بدأتها في عام 1914. إن «حرب الثلاثين عاماً» التي لم تعـــرف عملـــياً فـــترة توقف من عام 1914 إلى عام 1945 خدمت مخططات الإمبرياليتين العظمتين في العالم الأمريكية والسوفيتية.

بمـــا يخص الولايات المتحدة بدت خطة الاستنـــزاف التي باشرها الرئيس ويلســـون الخصـــم القوي للتوازن الأوروبي الذي يمكنه أن يشكل قوة مزعجة لإمبريالـــية بلده بدت إذن أنها قد وصلت إلى المرحلة التي توجتها بالنجاح. أما الاتحـــاد الســـوفيتي المعادي للاتحاد الأوروبي القادر على إيجاد جبهة متماسكة تقف أمام المد الشيوعي، وجد في الولايات المتحدة الحليف الموضوعي له. لقد أقـــر أوجين ويبر Eugen Weber في كتابه «بأن الرئيس روزفلت ومستشاره الأساســـي هنري هوبكنـــز بدا بأنهما أصبحا مقتنعين بأنه لدى الولايات المتحدة وروســـيا بشـــكل أو بأخر أموراً مشتركة أكثر مما للولايات المتحدة مع الدول القديمـــة التـــي كانت تحتفظ في داخلها بطبقات اجتماعية عفا عليها الزمن وفي الخـــارج لديهـــا المســـتعمرات. لقد رأى روزفلت أنّ رجالاً كتشرشل مازالوا يتمســـكون بـــدون جدوى بالماضي ويحاولون إعادة الاعتبار لقيم الزمن الغابر وإقامـــة أنظمـــة ملكـــية أو محافظـــة وهياكل إمبراطورية. لذا تستطيع روسيا والولايـــات المـــتحدة الـــتعاون ضـــد هذه المبادرات وخاصة إذا كان ذلك يلبي الحاجات الشرعية في الأمن والازدهار لروسيا».

إن إعادة الهيكلية الإمبراطورية من قبل الأوروبيين يتطلب عودة وضع ما

قبل الحرب الاستيلاء على الأراضي والأقاليم التي تملكها فرنسا وإنكلترا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال وهولندا وهذا ما كان الأمريكيون يحلمون بالاستيلاء عليه، فالعودة إلى وضع ما قبل الحرب يسمح بإيجاد نقاط ارتكاز قادرة على جمح تقدم الإمبريالية الأمريكية. لذلك كان لابد من وقف ذلك وبأي ثمن فبدا إذن التعاون بين ستالين وروزفلت (ثم ترومان) من الضروري إقامته ضد المصالح الأوروبية.

إن هزائم هتلر بعد أشهر قليلة من هجومه على الاتحاد السوفيتي (22 حزيران 1941) جعلت الأمريكيين يدركون بأن ساعة إخضاع أوروبا قد دقت والإخضاع كان قد بدأ مع ويلسون ومعاهدة فرساي. وحتى قبل نهاية الحرب ضمنت الولايات المتحدة هيمنتها النهائية على النظام الاقتصادي العالمي. لقد اتبعت خطة على مرحلتين. في المرحلة الأولى عملت على إقامة بنية ضاغطة وملزمة استطاعت أن تحافظ على تبعية اقتصاديات الدول الديمقراطية لها. هذه البنية نتجت عن لقاءات بريتون ودز في عام 1944، وقامت المرحلة الثانية على إنهاك بطيء للدول الاشتراكية قادها إلى الانهيار بعد سنوات من التيه الذي قضى عليها من الداخل.

■ ■

الفصل الثالث

الشـبكة الكونيـة الأمريكية

لــم تُمــثّل سيطرة الولايات المتحدة على النظام الاقتصادي إلا مرحلة من الــتقدم الأمريكي نحو التفوق العالمي. لقد فُرغت أوروبا بعد عام 1945 عملياً مــن مقوماتهــا فرأت الولايات المتحدة أن الوقت قد حان أخيراً من أجل إقامة هيمنتها السياسية والعسكرية والثقافية في آنٍ واحد.

عمــلياً لــم يميــز الدمار بسبب الحرب إلا القارة الأوروبية، كتب فيليب ماســون يقول: «كان اقتصاد كل المناطق مضطرباً بشكل كامل، كانت الفوضى الاقتصادية في اليابان وفي الصين والاتحاد السوفيتي وأوروبا بما فيها بريطانيا العظــمى الــتي كانت على حافة إفلاس مالي لا سابق له بعد توقف القروض. الصورة كانت نفسها في كل مكان، لقد خلف انهيار الإنتاج الزراعي والصناعي والتضخم. والعجز الكارثي في ميزان الحسابات البطالة وانخفاض مستوى الحياة والــتراجع الأخلاقــي مــع انتشار البغاء والسوق السوداء» مقابل وضع كهذا ظهرت الولايات المتحدة كما كان الحال غداة الحرب العالمية الأولى في وضع مزدهر «فلقد وضعت الحرب حداً للأزمة الاقتصادية وامتصت البطالة وكشفت عن طاقات إنتاجية لا يشك فيها، فالإنتاج الأمريكي وحده كان يمثل ثلثي إنتاج العــالم بأجمعه». ومنذ عام 1944 وبشكل خاص خلال المؤتمرات الكبرى بين الحــلفاء التي استبعد منها أي منافسة بين الإمبرياليتين عمدت الولايات المتحدة والاتحــاد الســوفيتي إلى تقسيم جيوسياسي للعالم «فارتسم نظام عالمي جديد». رغــم خســائره «تمتع الاتحاد السوفيتي بمكانة مرموقة وبدا انتصاره كانتصار الاشــتراكية التي كانت تمارس جاذبية خاصة على الجماهير الفقيرة في الدول الأوروبيــة». بالمقــابل «كانت الولايات المتحدة في أوج قوتها وكانت لا تزال تتمتع وحدها بامتلاك السلاح النووي» لقد عمدت القوتين إلى تقسيم أوروبا إلى معســكرين الأول غــربي تحــت السيطرة الأمريكية والآخر إلى الشرق تحت التبعية السوفيتية.

لقــد كــانت مــنظمة الأمم المتحدة بمثابة وضع الحجر الأساسي للمنظمة الدوليــة المســتقبلية الضــرورية لتحقيق التفوق السياسي الأمريكي والذي كان بشكل مؤقت تفوقاً أمريكياً سوفيتياً. وأصل المنظمة وعلينا ألا ننسى ذلك أبداً إنه روزفلتياً، الرئيس الأمريكي هو الذي أطلق في عام 1941 المشروع، وفي عام

1943 فـــي مؤتمـــر وزراء الخارجية المنعقد في موسكو تم اتخاذ قرار بإقامة «مـــنظمة عالمية لحفظ السلام» هذه الصيغة استخدمت اللغة الصارمة الحقوقية والسياسية للدلالة على المؤسسة الأممية التي ستشرف من خلالها واشنطن على دول المســـتقبل الأعضـــاء. فـــي عـــام 1944 جمـــع مؤتمر دومبرتون أواكز Dumbarton Oaks الاتحـــاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية والصين فـــأتمت مؤتمر يالطا وحددت هيكليات المنظمة. في 26 حزيران 1945 أسس ميـــثاق 111 بشكل منظمة الأمم المتحدة في 24 تشرين الأول 1945 بدأ العمل فعـــلياً بهذه المنظمة. فإن ما لم يستطيع الرئيس ويلسون من الحصول عليه في عصـــبة الأمـــم اســـتطاع روزفلت فعله أخيراً. لقد كان تحت تصرف الولايات المتحدة أول شبكتين من نسيجها الشامل: الأولى الاقتصادية وهي تتمثل بالنظام النقدي الدولي والثانية سياسية ودبلوماسية تتمثل في منظمة الأمم المتحدة.

لقـــد عقدت كل المؤتمرات بين الحلفاء دون مشاركة الجنرال ديغول. بين 28 تشـــرين الـــثاني والأول مـــن كانون الأول عام 1943 عقد مؤتمر طهران بحضـــور روزفـــلت وســـتالين وتشرشل حيث تم الاتفاق على الحدود السياسية الجديـــدة في الشرق وهو خط كوزون Cuezon. في مؤتمر دومبرتون أواكز أوقف العمل بخطة مورغنتو وتم تفكيك الصناعة الألمانية. في محادثات موسكو (9-18 تشـــرين الأول عـــام 1944) حدد تشرشل مدعوماً بروزفلت وستالين وأيديـــن دوائـــر الـــنفوذ في البلقان. أعطي للسوفيت كل من رومانيا وبلغاريا وهـــنغاريا ويوغسلافيا مناصفة مع بريطانيا العظمى. وأعطى لإنكلترا اليونان الـــتي خضـــعت فيما بعد للإشراف الأمريكي . وأخيراً في يالطا قرر تشرشل وستالين وروزفلت بأن يكون خط كوزون الحدود النهائية من الآن وصاعداً بين الشرق والغرب. من جهة أخرى تم الاتفاق على توزيع مقاعد مجلس الأمن في منظمة الأمم المتحدة.

مـــرة أخرى جاءت البادرة الأولى للمقاومة من فرنسا، لقد رفض الجنرال ديغول دمج منطقة الاحتلال الفرنسي في ألمانيا مع منطقتي الاحتلال الإنكليزية والأمـــريكية كمـــا اقترح وزير الخارجية الأمريكية ذلك في السادس من أيلول 1946 في ستوتغارت. ومن حينها برزت المجابهة بين مفهومين مختلفين لبناء أوروبـــا رغم وجود توافق إجماعي حول توحيد الدول التي مزقت تمزيقاً كبيراً فكـــان هـــناك نموذجـــان: أحدهـــم تصور إقامة أوروبا الفيدرالية على طريقة الولايـــات المـــتحدة وتخضع لواشنطن وكانت بلجيكا وهولندا تدعم هذا الاتجاه.

الــنموذج الآخر كان يرى إقامة أوروبا الكونفدرالية وتدعمها بريطانيا العظمى وفرنســا و ودوتــرى Dautry وســيكفريد Siegfried ورماديه Ramadier وأخريين.

فــي مؤتمــر لاهــاي (7-10 أيار 1948) تصارعت كل الاتجاهات وتم تشــكيل لجــنة ارتباط أصبحت في 25 آب 1948 حركة أوروبية يرأسها أربع رؤســاء شرف وهم تشرشل والإيطالي كسبري والبلجيكي سباك والفرنسي بلوم الذي جاء مكانه فيما بعد شومان. في لاهاي أيضاً عقد في 20 تموز مؤتمراً تم خلاله اقتراح بواسطة جورج بيدو Bidaulr وفرنسا وبريطانيا العظمى وهولندا واللوكسبورغ وبلجيكا خلق اتحاد جمركي واقتصادي من جهة ومجلس أوروبي مــن جهــة أخرى. فكان مفهوم المتخطي للحدود القومية موجوداً لدى الجميع بشكل ضمني.

أمــا الولايات المتحدة المؤيدة لوحدة أوروبية تحت جناحها فقد دعمت هذا المشــروع لكــي يكون بمقدورها أن ترجح كفة الميزان إلى الجهة التي تسعدها أكثر وكانت قد دشنت الحرب الباردة قبل سنة من ذلك.

الحرب السهلة:

حتى لو كان المؤرخون الذين يحملون الولايات المتحدة المسؤولية الكبرى فــي الحــرب الباردة ليسوا محقين كثيراً إلا أن التحليل المتأني للواقع (الحلف الموضــوعي مــع الاتحــاد السوفيتي على تقسيم العالم) والدراسة الموضوعية لتسلســل الأحداث تثبت بشكل كاف المصدر الذي تعمد قيام الحرب الباردة فقد اســتخدمت الإمبرياليــتان الواحــدة الأخــرى كمطارق من أجل تدعيم أفضل لأنظمتها المهيمنة.

الطــريقة التي انتهت بها حملة المحيط الهادئ بالمصير الاستشهادي الذي أنــزل باليابــان عن طريق الجريمة البشعة بضرب القنبلتين الذريتين على هذا البلد نادت الضمير الإنساني حول أهداف الإستراتيجية الأمريكية. ويشير أندريه كاســبي كــم أن عدداً من الأمور بالنسبة لموقف الولايات المتحدة تجاه اليابان تضــيء الغمــوض حول ما قامت به فكتب يقول:« لماذا لم يحاول الأمريكيون اســتخدام القصــف بالســلاح التقليدي قبل أن يقرّروا التدمير الذري لهيروشيما وناكــازاكي؟ ولمــاذا لــم يصغ المسؤولون السياسيون للخبراء الذين أكدوا بأن

اليابان سوف يوقع على استسلامه قبل نهاية عام 1945 حتى لو لم تستعمل القنبلة وحتى لو لم يدخل الاتحاد السوفيتي الحرب وحتى لو لم يتم الإنزال في الأرخبيل الياباني؟ ولماذا ضربت ناكازاكي بعد هيروشيما إن كان يكفي فقط إقناع اليابانيين بعواقب القنبلة؟ ولِمَ اتخذت الولايات المتحدة موقفاً متعنتاً تجاه طوكيو {........} منذ نجاح التجربة الذرية الأولى في الأموغوردو؟ ولماذا عند نهاية تموز لم تعد تقبل أي مساعدة سوفيتية؟!!».

إن امتلاك القنبلة الذرية شكّل الورقة الرابحة الحاسمة لصالح الولايات المتحدة، فبواسطة هذه القوة التدميرية التي عرضت للجميع استطاعت تأكيد تفوقها العسكري، كما وفرت لها أيضاً تفوقاً علمياً قادراً على أن يتحول إلى تقدم تكنولوجي حاسم مما يؤمن ايجاد سلاحاً اقتصادياً رئيسياً، لقد أدت عملية ضرب اليابان بالقنابل الذرية مهمة مضاعفة فقد فرضت على كل منافس محتمل شبح التدمير الشامل وخلقت لدى الأوروبيين فكرة التهديد والمظلة الأمريكية هي القادرة فقط على حمايتهم ففي هذا الإطار المحدد إذن فرضت الحرب الباردة نفسها.

الرئيس ترومان هو الذي أطلقها، لقد كان شخصاً جذاباً في بعض النواحي ولكنه كان أيضاً نتاجاً صافياً للإيديولوجية الأمريكية. كان ترومان كثير الإيمان ينتمي لعائلة كالفانية (بروتستانية متزمتة وقد أصبحت بعد ذلك معمدانية) تدرج أولاً في أعمال المصارف (إذن دائماً المال مع الدين هما ثدي السلطة في الولايات المتحدة)واجتاز بنجاح الاختبار السياسي وأصبح في 12 نيسان 1945 الرئيس الثالث والثلاثين للولايات المتحدة. وما اتفق على تسميته بنظرية ترومان ما هو إلا استئناف وتحديث نظرية مونرو وخاصة عندما يؤكد ترومان بأن «على سياستنا أن تؤيد الشعوب الحرة التي تقاوم الخنوع الذي فرضته الأقليات المسلحة أو بواسطة الضغوط الخارجية».

لقد قبل ترومان في مذكراته بكثير من اللباقة أو من الصراحة أن يعترف بأن الولايات المتحدة هي بحاجة للإشراف على عدد كبير من مناطق العالم فقد قال:«لكي نحافظ على التوازن في اقتصادنا ونسمح له أن يتطور أيضاً علينا أن نشجع تطور البقية (أي الآخرين)». كان إيجاد المنافذ يختفي دائماً خلف مبدأ فورد الذي يدعو للسماح لأكبر عدد الدخول إلى عالم الاستهلاك من أجل دورة الآلة الاقتصادية، إلا أنه يجب علينا أن نفهم ماذا يعني تعبير «أن نشجع الباقي» لدى الرئيس الأمريكي إن هذا يعني بأن الدول الأخرى توسع السوق الأمريكي

بـــأن يكون امتداداً لها. فإذا تبنت الدول الأخرى بنى مشابهة لبنى نظام الولايات المـــتحدة الليبرالي – التبادلي ستشعر بالضرورة بالحاجة إلى استيراد المنتجات الأمريكية.

ولكـــن لـــدى الـــدول الأخرى أيضاً مواد أولية، بهذا الصدد يتابع ترومان فـــيقول:«سيأتي وقت علينا أن نحصل فيه من خارج الولايات المتحدة على عدد من الأشياء التي نحن بحاجة إليها. علينا أن نذهب إلى لابردور وإلى ليبريا لكي نبحث على المعادن الضرورية لمنتجاتنا الفولاذية ومن الخارج يلزمنا أن نجلب النحاس الذي لدينا منه في الأريزونا وفي أوتاوا ولكننا لا يمكن أن نستغني عن نحـــاس تشيلي. هناك أيضاً القصدير في بوليفيا وماليزيا والمطاط في إندونيسيا وأســـتطيع طبعاً أن أكمل فالقائمة طويلة كما نحن بحاجة لتأمينه من باقي دول العـــالم». الـــدول المشـــار إليها هي بالطبع تحكمها الأقليات أو حكومات تابعة مباشـــرة لواشـــنطن حيـــث تـــتواجد الشركات الأمريكية بشكل قوي وحيث أن الرأسمال الأمريكي يشرف بطريقة ضمنية على الاقتصاد الوطني. ففي الدائرة الثانـــية مثلاً لم تحاول الولايات المتحدة اتخاذ أي مخاطرة لأنه ليس من الوارد أن يفقـــد الســـلطة أولـــئك المدعومين من الولايات المتحدة طالما أنهم يخدمون المصالح الأمريكية. ففي تشيلي خدم الرأسمال الأمريكي الشمالي الذي أثمر في مـــناجم الـــنحاس والنترات منذ فجر الحرب العالمية الأولى المصالح الأمريكية وأزاح كـــل العقـــبات أمامهـــا. في عام 1925 عمل الجيش على إقامة النظام الجمهـــوري المناصـــر للولايـــات المتحدة ووضع الجيش حداً لمحاولات إعادة امـــتلاك الـــثروات القومـــية التي قامت بها حكومات الجبهة الشعبية وبعد ذلك حكومـــات اليسار الوسط ما بين أعوام 1938–1952 وقام أيضاً بقتل سيلفادور الليـــندي فـــي عام 1973. وفي كل مرة كانت المساعدات العسكرية الأمريكية موجـــودة بشكل خفي ولكن فعال. يؤكد ترومان «بأننا مضطرون عملياً أن نهتم بالشـــعوب الأخـــرى وأن نكافئهم بشكل مناسب وذلك من أجل السلع التي هي ضـــرورية بالنســـبة لنا، للمحافظة على متابعة برنامجنا الإنتاجي» إنها الطريقة الوحـــيدة لتحقيق ذلك وليس هناك طريقة غيرها فنحن لا نستطيع أن نتطور إلا إذا تطور العالم.

أيّـــاً كان تقييمنا لتحليل ترومان فأنه يشكل اعترافاً مهماً، فمن أجل ضمان «تعاون» الدول التي تنوي الولايات المتحدة استغلال موادها الأولية فلمصلحة هـــذه الأخيرة أن «تكافأ بشكل مناسب» النخبة المحلية التي هي كما في أمريكا

اللاتينية لا تتشكل إلا من ممثلي البرجوازية في السلطة منذ بداية نيل هذه الدول استقلالها النسبي. إلا أن الاعتراف قد تم التعبير عنه بشكل صريح في خطاب ذو طابع رسولي الذي تبرر عن طريقه أمريكا مسبقاً ما تفعله وتحتمي به.يؤكد ترومان أن «أمتنا قد قامت بفضل رجال أمنوا بالله» وكما كان يدعي جورج واشنطن «لم يوجد أي شعب سوى شعب الولايات المتحدة اعترف وعبد اليد غير المرئية والتي تدير قضايا البشرية». من هنا تأتي فكرة أن أمريكا هي الوريثة والغاية لما حققته البشرية إلى اليوم. «يبدو لي أن جمهوريتنا تشكل مجموعة تجارب الجمهورية الرومانية والمفهوم اليوناني لحرية التعبير والمساهمة البريطانية التي قامت تحت شكل الإعلان عن الحقوق». وبما أن الولايات المتحدة هي اليوم إناء هذا الميراث عليها إذن أن تقدم للعالم مساهمتها. «وسنقدمها بالمساعدة في الكفاح من أجل السلام وبتطوير كل موارد العالم بشكل مناسب من أجل أن يملك الناس في كل مكان شيئاً أهم من التقاتل فيما بينهم».

هنا تظهر إذن الإيديولوجية الأمريكية دون قناع، فهي تؤكد بأننا غاية تيه القرون ونجاحاتها أيضاً، لقد سمح الله تعالى لنا أن نبني دولتنا من أجل أن نعطي للعالم وبالقوة الأعمال وكل وسيلة أخرى ونحمل له الرسالة. هذه الرسالة هي أن على العالم أن يتطور حسب معاييرنا لأنها معاير مباركة من القدرة الإلهية سنساعد عملياً في القتال من أجل السلام ولكنه سيكون السلام الأمريكي Pax Americana سنطور موارد العالم ولكن سيكون ذلك لمصلحتنا ولمصلحة النخبة التي تفكر مثلنا والتي تدعمنا. ويتابع ترومان فيقول:«يفكر الروس اليوم بحماقة بأننا إمبرياليون»، ونحن نجيب بأن «هذا هو عكس الحقيقة. إنهم هم الإمبرياليون وليس نحن، إننا لا نرغب بأي أراضي جديدة، نحن لا نريد أن نستعبد أي شعب، إننا ننوي أن نساعد كل الشعوب الأخرى لأننا عندما نساعدهم نساعد بذلك أنفسنا».

إن عملية أن نلصق بالآخر الأخطاء التي نتهمهم بها تبدو إذن حرباً موفقةً، فإن كان صحيحاً بأن هيمنة الولايات المتحدة لا تحتاج بالضرورة لاحتلال أراضي هذا يعود لما أكدناه سابقاً أي بسبب البعد المرن لمفهوم الحدود التي هي أولاً ذهنية وغامضة أكثر من كونها محسوسة. فما أنجزته الولايات المتحدة في أول دائرتين يجعلها قادرة على أن تعيده في كل أنحاء المعمورة، أما فيما يتعلق بمساعدة الآخرين وكأننا نساعد أنفسنا عن طريق السماح للدول الأخرى أو على

الأقــل للبرجوازية المسيطرة أن تصبح غنية فهذه الدول ستدفع الثمن عاجلاً أم أجــلاً. وعــندما يؤكــد تــرومان «بأننا سنطور قوتنا ليس من أجل مهاجمتهم (الســوفيتيون) بل لتثبيط همتهم بالهجوم علينا وعلى العالم الحر». فهو يستخدم مفــردات مناسبة – «العالم الحر»– لوصف النظام الذي أقامته الولايات المتحدة والــتي تــنوي أن تجــني المصلحة منه وأن تسيره حسب إرادتها. وبما أن أمم «العــالم الحــر» اقتنعت بالدعاية – «الطمع الشيوعي الدولي» وبالخطر الذي تمــثله الإمــبريالية الأخــرى فمــا كــان على هذه الأمم إلا أن تمنحها نفسها، واستخدمت الحرب الباردة لترجمة هذا التهديد.

لــنذكر بإيجاز المراحل التي أدت إلى نشوب الحرب الباردة، في 12 آذار 1947 صــرح ترومان في خطاب أمام الكونجرس بأن الحكومة اليونانية التي تواجــه خطر نشوب حرب أهلية تقدمت بطلب إلى الحكومة الأمريكية من أجل أن تمــنحها مساعدة اقتصادية ومالية. قبل كل شيء كانت الحرب الأهلية بقيادة الشيوعيين اليونان تخدم (كما قال) المشاريع السوفيتية حيث سنحت لها الفرصة كــي تحــاول أن تدفع ببيادقها نحو مناطق السواحل والشرق الأوسط، وتركيا بالمناسبة كانت كاليونان مهددة، هذا الواقع استدعى المسؤولية الكونية للولايات المــتحدة والحكومة الأمريكية لا تستطيع أن تسمح لنفسها ألاَّ تقوم بالدور الذي آل إليها.

ماذا كان عليه الوضع في اليونان وتركيا في الحقيقة بداية 1947؟ هل كان الاتحــاد الســوفيتي يهدد مباشرة أو بواسطة حكومة شيوعية اليونان؟ وبعبارة أخــرى هــل كان ترومان جاداً عندما طالب باتخاذ إجراءات سريعة من أجل مساعدة الحكومات اليونانية والتركية المحافظة لدفع الخطر الشيوعي؟

في اليونان كانت معظم الأوساط المثقفة ماركسية ولكن ليس أكثر مما في فرنســا أوفــي إيطاليــا في تلك الحقبة. إن انقسام السياسة العالمية إلى قطبين متنافرين كان وراءه الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وكلا الإمبرياليتين كانتا بحاجة لكي تثبت نفسها في المكان الذي تسمح بناه أن تبرر نسبياً الخطر الكامن المتمــثل بالآخر، إلا أن السوفييت بعد أن حققوا بعض الأهداف حسب رغبتهم فــي يوغســلافيا وألبانيا وبلغاريا ورومانيا وهنغاريا وبولونيا ووضعت ألمانيا خــارج حالــة الإزعاج، شعروا بأنهم في وضع تائه بشكل أو آخر أثر المنحى الــذي اتخذتــه بعض الأحداث فقد كانوا ينتظرون إلى أن تتعاون كل حكومات المعسكر الشيوعي معهم، وفوجئوا بمشاعر القوميين والاستقلاليين لدى البعض

(يوغسلافيا – تشيكوسلوفاكيا) فلم يصروا على اتخاذ أي أجراء في محاولتهم لإقامة أنظمة مرتبطة بهم خارج منطقة نفوذهم. بالنسبة لليونان ولتركيا لم يظهر السوفيت أبداً أي نية بضمهم أو بالتدخل بشكل أو بأخر لقلب الوضع فيهما لصالح المتمردين الشيوعيين. وكما وصف ذلك نيقولاس ريازانوفسكي بأنه لا يجب الاعتقاد «بأن كل المبادرات التي اتخذها الاتحاد السوفيتي كانت مناورات محبوكة بحنكة وجزء من خطة ميكيافلية قررت مسبقاً».

كانت تركيا وخاصة اليونان تحتلان بنظر الأمريكيين موقعاً حاسماً بين الشرق والغرب. كان الخطر إذاً كبيراً إذا تم استخدامهما كحلقة وصل بين جزئي أوروبا مما يولد تقارباً قد يسهل على المدى الطويل قيام كيان أوروبي من الأطلسي إلى الأورال كما كان يتصوره الجنرال ديغول. كان الوضع يتعلق من جهة أخرى بالنسبة للولايات المتحدة بأن تحتاط من أي عبور للاتحاد السوفيتي عبر اليونان وتركيا إلى الشرق الأوسط. هنا يبرز سؤال آخر: لماذا كانت الولايات المتحدة تتمسك بقوة بالدفاع عن تفوقها في هذه المنطقة ؟

عندما أدان الأمريكيون الإمبريالية السوفيتية في العالم وخاصة في الشرق الأوسط بمساعدة أصدقائهم – نذكر هنا بخطاب فولتون عندما حذر بصخب تشرشل في آذار 1946 من الخطر الذي يمثله التوسع الشيوعي على الأنظمة الديموقراطية – برر الأمريكيون مسبقاً كل مناوراتهم وتدخلاتهم والتدخلات المستقبلية ذلك لأن الشرق الأوسط بالنسبة لهم يغطي الرهان الأساسي المتعلق بالبترول. فقد ضاعفت العربية السعودية والكويت والإمارات المتحدة إنتاجها من البترول فتجاوز المئة ضعف. وهذا البترول رخيص فأصبحت الولايات المتحدة منذ عام 1948 دولة مستوردة أكثر من كونها مصدرة لهذا السائل النفيس. وانغرست شركاتها النفطية في كل أنحاء الشرق الأوسط وشكلت رؤوس أموالها موارد للمداخيل المرتفعة. أوروبا هي بحاجة لهذا البترول لأن 25% من حاجاتها يتم تغطيته من الشرق الأوسط. وعن طريق سيطرتها على منابع التموين النفطية أمسكت ستندر أويل Standard Oil وسكوني Socony بمقبض السكين بقوة. حول هذا يقول أندريه كاسبي: «بدون شك استفادت الشركات الكبرى من دعم وزارة الخارجية الأمريكية ويمكننا أن نورد عدة تصريحات تؤكد على دعم الدبلوماسية الأمريكية للتوسع المالي». إن التفكير بأن الاتحاد السوفيتي قد يجني القليل من سلة النفط ومن الميزات الاستراتيجية المرتبطة به كان يكفي لاستنفار كل الطاقة الحيوية لدى وزارة الخارجية

الأمريكية. كتب مساعد وزير الخارجية يقول:«على الولايات المتحدة أن تضمن قيـادة العـالم وبسرعة» لأنه من الضروري المحافظة على السيطرة الأمريكية على اليونان وتركيا ومن خلالهما على منطقة الشرق الأوسط وبتروله.

كمـا نعلم استمرت الحرب الباردة حتى بداية التسعينات، فأتاحت للسوفيتي وللأمريكيين كثيراً من التجاوزات والصدمات المؤسفة والخيانات. وعن طريق اسـتخدام التهديد السوفيتي والشيوعي كحجة مرعبة وافقت الدول الأوروبية (ما عـدا فرنسا الديغولية) على كل مخططات الحكومة الأمريكية وعلى توقيع كل الاتفاقات التي عرضت عليهم والتي حاكت بيت العنكبوت السياسي والاقتصادي والـنقدي والاستراتيجي والدبلوماسي شيئاً فشيئاً فأوقعت واشنطن وبشكل هادئ «العالم الحر الأوروبي» بشركها.

الانتشار العنكبوتي:

عـند نهايـة الأربعينات قام عدد من المؤسسات المتعددة الجنسية بموافقة الـنخب الوطنية في أوروبا والعالم وشكلت شبكة من النسيج العنكبوتي المهيمن والـتي أمسـكت الولايات المتحدة بخيوطه، هذه المؤسسات هي: النظام النقدي الدولـي بمنظماته الاثنتين: صندوق النقد الدولي والبنك الدولي (1944)، والأمم المـتحدة، والغـات GATT، ومـنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OCDE (1948)، والحـلف الأطلسي NATO(ناتو) عام 1949 والجميع تحت سيطرة واشنطن.

ولكي نفهم كيف تعمل الآلية الاستبدادية الأمريكية من الأنسب أن نتفحص خطـوة خطـوة وباختصار كل من هذه المؤسسات والطريقة المستخدمة لأسر الـدول الأعضاء أو بعض الدول المجبرة على اللجوء إليها. سنرى كيف كانت تـترك لـلولايات المتحدة الملعب حراً لكي تطلق كل عملية عسكرية تراها من مصـلحتها أن تقوم. هذا ما حصل في كوريا وفيتنام وأخيراً – القائمة تطول – في حرب الخليج والصومال ويوغسلافيا.

نظام النقد الدولي:

مـنذ الولايـة الرئاسـية لجورج واشنطن كان الأمريكيون قد فهموا بأن بديهيـات الليبرالية الكلاسيكية (سميث، ريكاردو) التي تنادي بالتبادل الحر دون

أي حـــدود كانت بطبيعتها تسهّل تحقيق أهدافهم التوسعية. عندما نصح واشنطن فـــي خطابـــه لحلفائه بأن يمتنعوا عن التحالف السياسي مع أي كان وأن يعطوا الأفضـــلية لتطوير علاقاتهم الاقتصادية مع باقي العالم كان آنذاك يعلن عن أحد المبادئ الأساسية لديه وربما شكلت في حينها نواة الإمبريالية الأمريكية.

منذ ذلك الوقت ما أنفكت الولايات المتحدة عن عقد الاتفاقات لصالحها في كل مكان فارضة على شركائها أن يحترموا بنودها ولكنها أعفت نفسها من ذلك في كل مرة كانت مصالحها تملي ذلك. لقد أجبرت الأوروبيين على تبني مفهوم منفـــتح من أجل التبادلات الاقتصادية ودفعوهم لرفع الحواجز الجمركية أما هي وضـــعت فقط بالمقابل تشريعات للحماية الاقتصادية مبالغ بها بهدف واحد وهو استيعاب الواردات وتطوير صادراتها واستثماراتها. وباعتبار أنها تعلمت بشكل جيـــد مـــن درس «ميلون» الذي كان يرى أن المستفيد الوحيد الحقيقي من نظام التـــبادل الحر هو البلد الذي يصدر أكثر ويستورد أقل لذلك لم تتوقف يوماً عن توســـيع مدى نشاطها التجاري وعن الاستئثار التكنولوجي الخارجي وعن جني ثمار الاكتشافات التكنولوجية وعن نشر استغلالها وعن عمليات إشباع الأسواق فقـــادت شـــيئاً فشيئاً الاقتصاد العالمي إلى سباق جهنمي الذي كان يجذب الربح بشـــكل دائـــم نحوها بحركته الحلزونية(12). في أقل من شهر جعلت الولايات المـــتحدة مـــن الـــنظام النقدي العالمي بفضل الدولار والمؤسسات التي أوجدتها الحرب العالمية الثانية سلاحاً يمتلك فعالية لم تكن معروفة من قبل.

كـــانت التجارة الدولية تجري بواسطة تبادل السندات بين المشاريع والباعة عـــن طـــريق المصـــارف خـــلال القرن العشرين، فتطورت المبادلات النقدية المســـتقلة التي كانت تسمح للمصارف بالمضاربة بفوارق سوق الصرف. وشيئاً فشيئاً تخلى النظام ثنائي المعادن الثمينة – الذهب والفضة– الذي قام عام 1792 عـــن مكانـــه إلى نظـــام المعدن الثمين الواحد (الذهب) وكان الذهب يؤمن عام 1913مـــا نسبته 71% من سوق التبادل النقدي وبتحريض من الولايات المتحدة أصـــبح الذهـــب معياراً عام 1900 وأرتبط بالدولار. وكما رأينا دفعت الحرب العالميـــة الأولى (1914–1918) هـــذا البـــلد إلى الواجهة الاقتصادية العالمية وأتـــاحت لهـــا الإمكانيـــة لفرض الشروط الموجودة في المعاهدات غداة انتهاء الصـــراع، هـــذه الشـــروط كانت مسؤولة بشكل كبير عن التوتر الذي قاد إلى

---

[12] التجسس الصناعي والحصول على الإجازات الأجنبية كانا وسيلتي تفوق أمريكا.

الحــرب العالمية الثانية. حول هذا يؤكد أوتو ده هبسبورغ بأن «الخطة المتعددة الـنقاط للرئـيس ويلسـون التـي وعدت بالحكم الذاتي للقوميات كانت نموذجاً للتناقضات، لأنه في الحقيقة من دون أخذ رأي الشعوب عملنا على خلق دولتين مصـطنعتين من جهة تشكوسلوفاكيا ومن جهة أخرى في يوغسلافيا أو ما كان يدعـى آنـذاك بمملكـة الصرب والكروات والسلوفان». طلقة الرحمة وجهتها أوروبا إلى نفسها بالحرب العالمية الثانية متيحة للولايات المتحدة أن تفرض في مؤتمـر بريـتون وودز نظـام نقدي عالمي جعل منها سيدة اللعبة الاقتصادية والمالية والدولية.ولاستخراج الإصلاحات الاقتصادية المطلوبة من قبل الولايات المتحدة جهزت هذه الأخيرة النظام الجديد بمؤسستين ذات رهبة خاصة.

صندوق النقد الدولي.

إضـافة إلـى كونـه مدعـو إلـى تأمين التضامن الدولي في مجال النقد والانصـياع أيضـاً للنظام المشترك فمهمة صندوق النقد الدولي الأساسية هي ضـمان «آلية تحويل النقد واستقرار أسعار الصرف وتوزيع المساعدات بالعملة النقدية» إلى مختلف الدول الأعضاء.

هيكلية الصندوق بحد ذاتها هي مفسدة لأنها تقيم الهيمنة الأمريكية بشكل لا عـودة عـنها. تضم المنظمة حالياً 140 عضواً وكل دولة تدفع حسب حصص معينة مبلغاً يتناسب مع حصتها في التجارة الدولية. الولايات المتحدة التي تمتلك 23% من الأصوات تتمتع بحق الفيتو وبالأكثرية، مما يؤمن لها عدم التصويت إلا علـى مـا تـريد قبوله، هذا يعني أنه لا يستطيع أي مشروع أن يصل إلى مبـتغاه إن لـم يخدم بشكل أو آخر أهدافها السياسية والاقتصادية. ومع ارتفاع الحاجة إلى السيولة النقدية ارتفعت الحصص المتوجب تسديدها للصندوق بشكل منـتظم إلا أن المسـاعدات النقدية لم توزع إلا إذا استجابت الدول الطالبة إلى بـرنامج إصلاحات ليبرالية صارمة مهما تكن نتائجها الاجتماعية. ولإيجاد حل وسـط بين المفهومين : الفرنسي الذي كان يطلب أداة جديدة للدين، والأمريكي الـذي كـان إلى جانب عملة حقيقية، أي عملة الولايات المتحدة، تم إنشاء عام 1969 مـا يسـمى بحقوق السحب الخاص D.T.S. والذي يمتاز بتعريف مبهم حيث ظهرت فيه مرة أخرى مغالاة الأمريكيين. فهو يغطي حق اكتساب وسيلة الدفـع أي إمكانـية تـبادل حقوق السحب الخاصة مقابل العملات الصعبة التي يمكـنها بعد ذلك أن تكون وسيلة للدفع. بالأساس الدولة الطالبة عليها أن تحتفظ

بالشكل الأساسي بأقل من ثلث الحقوق التي حصلت عليها.

وباعتبار أن الولايات المتحدة كان همها الحفاظ على الإشراف على ما هو أساسي في حقوق السحب الخاصة فقد عملت في البداية على تثبيت قيمة الحقوق بالنسبة للذهب (حيث تملك الاحتياطي الأول في العالم) وبعد ذلك عام 1971 بالنسبة للدولار. في عام 1974 حددت قيمة الحقوق إنطلاقاً من سلة النقود حيث يحافظ الدولار فيها على مكانة مرموقة: 42.3% مقابل 28.4% للمارك الألماني و13.3% للين الياباني على التوالي و13.3 للجنيه البريطاني و12.7% للفرنك الفرنسي. وتعاظم الدولار الآلي إلى حقوق السحب الخاصة عام 1978 حيث أنها أصبحت قابلة للاستعمال بشكل مباشر من قبل البنوك المركزية كوسيلة دفع. وبقي الدولار رغم كل شيء الأداة الأكثر استعمالاً (أكثر بست مرات). فيما بعد تم تقديم اقتراح بخلق حساب استعاضي يسمح بزيادة أهمية حقوق السحب الخاصة .D.T.S على حساب الدولار إلا أن الولايات المتحدة رفضته بعنف.

البنك الدولي:

في الأصل كان يعرف باسم البنك العالمي لإعادة الاعمار والنمو (B.I.R.D) وقد أنشئ هو الآخر بواسطة اتفاقات بريتون وودز، السبب الأول في إنشاء البنك الدولي هو المساعدة على إعادة بناء الدول الأعضاء وتشجيع نموها الاقتصادي. يندرج نشاطه إذاً في أفق أبعد مدى من نشاط صندوق النقد الدولي. إلا أن دوره في الواقع هو ذات الدور أي العمل بصبر ولكن بتصميم على ضمان الانتقال من الاقتصاد الوطني إلى الاقتصاد العالمي لسوق التبادل الحر الواقع تحت هيمنة واشنطن. وكما الحال بالنسبة لصندوق النقد الدولي فالرأسمال الذي تسدده الدول الأعضاء يتناسب مع الوزن الاقتصادي وعدد الأصوات الذي تتمتع به، إذاً الولايات المتحدة تمسك منطقياً بالأغلبية، أما القروض فكانت تعطى حسب المردودية المالية للمشاريع تحت سلطة التمويل وكذلك ضمن نظامها الاقتصادي الصارم. ومن أجل جعل عمل البنك الدولي أكثر مرونة تم إنشاء الجمعية الدولية للتنمية والشركة المالية الدولية عام 1960 . هذه التسميات كانت تخفي وراءها ضبابية كثيفة الغموض من المقرضين الذين كانوا يصنعون القوانين في الدول التي تقدم لها الأموال في منأى من كل إشراف ديموقراطي.

وعمــل كــل من صندوق النقد الدولي F.M.I والبنك الدولي B.M على الصــعيد الاقتصادي على وضع الأساس الأيديولوجي الثنائي القطب الذي يخفي وراءه الفلسفة السياسية الأمريكية. فمهمة الولايات المتحدة هي بسط الديمقراطية الليــبرالية فــي أرجاء المعمورة، وأن تتربع على رأسها، لذا كان يتوجب على صندوق النقد الدولي والبنك الدولي إخضاع الأمم للنموذج الاقتصادي والسياسي الأمــريكي. فالمقومتان الأساسيتان اللتان شكلتا الأيديولوجية الأمريكية أي الدين والاقتصــاد وجدتــا في أرثوذكسية هاتين المؤسستين. إن المدينة الفاضلة تحت لــواء الولايات المتحدة سوف تكون التطبيق المادي للوصول إلى السيطرة على كــل الكــون لــبرجوازية التجارة العالمية ذات الميل الليبرالي والتي وضعت مصيرها في يد الجمهورية الأمريكية وفي الوقت ذاته هذه المدينة ستكون الدليل المــادي عــلى اكتمال الإرادة الإلهية التي أوكلت لهذه الجمهورية وعن طريق إزالة الآخرين مهمة إقامة الدولة الوحيدة الناتجة عن ترتيب إرادة الله.

العقيدة الذرائعية «الدوغماتية» والأرثوذكسية:

يظهــر المفهــوم الأيديولوجــي لعمل صندوق النقد الدولي F.M.I والبنك الدولي B.M ونظام النقد العالمي برمته عبر ذرائعية الأنظمة العقائدية الليبرالية الــتي يســتوحى مــنها عمله، والذي يترجم بشكل خارج كل الشروط بتحويل المــبررات الكاملة إلى سلسلة من التأكيدات الأحادية المعنى دون برهان وبشكل مطلق وقابلة للتطبيق الدولي أما غايته فتكمن في شكل من التبادل الحر بوصفه نظام لا يمكن الالتفاف عليه. فإن الشروط الضرورية لإنجاز الآثار المرتقبة من قــبل نظرية التبادل الدولي لا يمكن أن نجدها في الواقع ولكنها تعود أكثر إلى الواقــع التجريــبي في المختبر أكثر من كونها موجودة في تطبيقات محسوسة. هــذه الظاهرة إذاً هي مجهولة. أبداً لم يتم إنجاز الواقع حيث كان من المفروض أن يســير كل شيء في التجارة الدولية دون عقبات، بل إن هذا الواقع لم يدخل حيــز الممكــن لأنــه وإن كان صحيحاً أن الدول الأوروبية تحاول أن تخضع لمتطلــبات المعاهدات التجارية إلا أن دولاً كاليابان وكوريا أو الولايات المتحدة مــثلاً تســتمر بممارســة سياســة وقائية خفيَّة بشكل أو آخر وتطالب الآخرين بالشــفافية. إن ذرائعيــة صــندوق النقد الدولي والبنك الدولي تظهران جلياً في نموذجيــن من التصرف يكشف عنهما بشكل فاضح الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد موريس ألِّيه Maurice Allais.

أولاً يبدو هذا في عدم واقعية النماذج المقترحة كقواعد لكل أنظمة الاقتصاد الوطنية إذ تشكل المصورات والمعادلات الرياضية المفترض أن تضمن المتانة العلمية للطرح في الحقيقة متانة وهمية التي لا يمكننا عند مناقشتها إلا أن نستنتج عدم جدارتها. وتظهر الذرائعية ثانياً في تناقضات المنهج وعرضه وتلغي الاستنتاجات والنتائج التي أعدت بواسطة التحليلات المختلفة غالباً نفسها أو تتناقض. إن إرادة تعميم النموذج الليبرالي على العالم كله يقود إلى شكل من أشكال الاختصار والتبسيط والى قبول إرشادات قائمة على استنتاجات نظرية صرفه أو مصطنعة. وكما يشير برنار ماريس فإن اللغة التي تستخدمها هاتان المؤسستان الكبيرتان تنتمي إلى لغة مبهمة والى لغة ذات رنين علمي هدفه الحصول على الاعتراف بمراسيمهم وإعطائها السلطة التي تعطى تقليدياً إلى اللغة التكنولوجية العلمية. فالوسيلة الأيديولوجية التي عالجت هذه المسائل لم تكن مختلفة في العمق عن الأسلوب الذي يميز الماركسية بالنتيجة. فالمطلق الذي هو الخطة والذي يجب أن تكون كل المتوقعات متطابقة معها له أثره في السوق الذي هو المنقذ الإلهي لكل نظام ليبرالي والذي يجب أن يخضع لمتطلباته الجميع. هذا الخضوع لقوانين السوق قادر على جعل جهاز المؤسستين والمتعاونين معها بطرح الفرضيات المرعبة. لهذا كان البنك الدولي في تقريره عام 1991 قدمه لورانس سومرز الاقتصادي الأمريكي الذي اصبح فيما بعد عضواً في إدارة الرئيس كلينتون وهو خريج هارفرد قد تمنى تغير أمكنة المصانع التي تسبب التلوث من الشمال باتجاه بلاد الجنوب ذات التلوث الأقل بسبب مساحة أراضيها وقلة كثافة سكانها. من بين مبررات سومرز أن السرطانات التي يسببها التلوث نتيجة المخلفات السامة الصناعية لن يكون لها إلا تأثيرٌ خفيفٌ لأن الأمل في الحياة لسكان العالم الثالث هو أقصر من المعدل الموجود في بلدنا.

لن يكون باستطاعتنا فهم ليبرالية التبادل الحر دون التعامل معه كظاهرة إيمانية صافية غير قابلة للنقاش من قبل أنصاره النتيجة التي يعطيها لأنه مثلاً حسب بيتر مرتان رئيس تحرير الطبعة الدولية للفاينانشال تايمز ينتج رابحين أكثر من الخاسرين. لذا يعمل على نمو اللامساواة في كل مكان وحسب تقرير صدر مؤخراً عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية فإن عدد الدول الفقيرة في تزايد. وفيما يخص الأجراء الذين لا تتوقف أجورهم عن الانخفاض رغم أنهم يعملون أكثر فأكثر فقد اخترع علماء الاجتماع لهم تسمية «العاملين الفقراء». في مقال

آخـــر تحـــت عـــنوان الليبرالية تشجع الديمقراطية تبرهن التجربة العكس وبأن المســـافة بيـــن المراكـــز الحقيقـــة لـــلقرار على المستوى الدولي (الاجتماعات التحضـــيرية لـــلدول الســـبع الكبرى ولمنظمة التجارة الدولية ولقاءات دايفوس والبـــنوك المركزية والمجموعات المالية والصناعية الكبرى الوطنية والمتعددة الجنســـيات والمموليـــن مـــن خـــلال البـــنك الدولـــي وصـــندوق النقد الدولي ...إلـــخ)وأولئك الذين تطالهم هذه القرارات الخفية لم تكن أبداً بهذا الاتساع إلى درجـــة لـــم يعـــد أمام المنتخبين والحكومات إلا مهمة الموافقة على القرارات المـــتخذة في مكان آخر بعيداً عن المجالس السياسية. أما الأداة الذرائعية الثالثة فهـــي انعدام القواعد والحواجز والمخاوف السياسية والاجتماعية لصالح التبادل. وحدهـــا هـــي الـــدول التي تخلصت من تلك العقبات تستطيع أن تزدهر بشكل حقيقـــي. في الواقع لم تستطع كوريا الجنوبية وتايوان والصين وسنغافورة بناء قوتهـــا الاقتصـــادية إلا بفضل نظام حماية لم تتأخر الولايات المتحدة واليابان، أيضاً من الاعتماد عليه.

وبالاعـــتماد عـــلى قانون كهذا يهدف التأثير المعمق لصندوق النقد الدولي وللبـــنك الدولـــي إلى بسط وفرض نموذجه الاقتصادي الوحيد الذي تستخدمه الولايـــات المـــتحدة عـــلى كل العالم بذكاء. وكما يذكر «آلان كوته» فإن تفكك الاتحاد السوفيتي ودخول الصين بإرادتها في السوق الدولية سمحتا لهذا النموذج أن يصبح نموذجاً لا يمكن التراجع عنه فعلياً. وعلى المدى البعيد الهدف هو إذاً توحيد العالم وتخليصه من كل أثار للثقافة الأصلية المستندة على التاريخ وكذلك العمـــل عـــلى توحيـــد الأذواق والـــتقاليد واللـــباس والمواقف الفكرية وإبدالها بالتصرفات ذات الشكل الأمريكي.

لقـــد بـــدأ فعلاً العمل على تفتيت الكيانات القومية وكان دور البنك الدولي وصـــندوق الـــنقد الدولي أساسياً في تكيف العالم الثالث من خلال هدفه بسوقها نحـــو اقتصـــاد السوق وبحشرها في قالب التقسيم الدولي للعمل. ولم يثن هاتين المؤسســـتين عـــن قناعتهما الفشل المتكرر لسياستها والفساد والعجز الذي ميز نشـــاطهما الشـــيء نفسه لدى تنوُّع التنمية التي تتبع لهما والتي تجاوزتها بحجم أعمالها، وإذا كانت المساعدة المالية للقطاع العام محسوبة وخاضعة للتطبيق من قـــبل المســـتفيدين بأســـلوب صارم فإن المساعدة للقطاع الخاص أخذت تحظى بالأفضـــلية خـــلال السنوات المتتابعة. فالربح الذي يشكل المقياس القطعي لكل اقتصـــاد ليـــبرالي زال أثـــره بشكل جلي تاركاً في الظل الهدف الرسمي وهو

مســاعدة الــدول الطالــبة لتحسين ظروف حياة أبناء شعبها. لقد بلغت الأرباح المحسومة من قبل الممولين حوالي 150مليار دولار بين 1983-1990 جمعت من دول الجنوب باتجاه الشمال وأضمحل في الوقت ذاته استقلال الجنوب.

آلية السلب، المجرّبة:

تــتطابق الأساليب المستخدمة بواسطة صندوق النقد الدولي والبنك الدولي بخطوطها العريضة مع الصورة التالية: عندما تعمل دولة في طور النمو لسبب أو آخر على مساعدة من المؤسسات الدولية وتجد نفسها مضطرة لمساعدة مالية يــتم إرسال خبراء لها يمثلون المصالح الضبابية للممولين الذين ينحصر همهم الأساســي بجعــل الــتعاون المستقبلي مطابقاً للصرامة الأيديولوجية. ورغم أن المشــاريع المعــدة تختلف بتفاصيلها حسب بعض العوائق الخاصة إلا أنها تقدم هيكلية عامة مطابقة لشرط القبول. عندها تقوم «مخططات القهر» بفرض عدد من المراحل الضرورية قبل منح القرض:

1-تحرير الأسعار.

2- تخفيض العملة الوطنية.

3- تجميد بل تخفيض الرواتب.

4- قطع في المصروفات العامة من أجل تخفيض العجز الخارجي.

5- خصخصــة الشــركات العامــة الكبرى (مصارف - شركات النقل - المؤسسات الصناعية).

6- فتح الحدود أمام المنافسة الدولية.

7- التخصص في عدد محدود في الإنتاج المعد للتصدير.

لهــذه المتطلــبات نــتائج مشــابهة في كل مكان، فتحرير الأسعار يؤدي لصــعودها جاعلة السلع الأكثر ضرورة صعبة المنال أمام جزء كبير من عامة الشــعب وتســمح بإثراء أقلية منه. أما تخفيض العملة بهدف ضرب الصادرات تــؤدي إلى ارتفاع أسعار السلع المستوردة التي غالباً ما تكون ضرورية لحياة الــبلاد بــتأثير بســيط على الصادرات لأن معدلها بالنسبة للمجموع العام يبقى متواضــعاً. تجميــد أو تخفيــض الرواتب يزيد في الإفلاس الناتج عن تحرير الأســعار ويؤدي إلى ارتفاع البؤس وتهميش الطبقات الاجتماعية الدنيا المنهكة

أساساً والضعيفة بسبب عدم كفاءتها أو بسبب فساد عدد من الحكومات المحلية.

أمـــا النتائج الأكثر كارثية – نحو تنظيم اجتماعي ثنائي القطب- فهي تأتي مـــن تخفيـــض الموازنـــة العامـــة. إذ تقوم الطبقات الميسورة بتعويض العجز المتـــنامي للـــنظام (تعليم،صحة،سكن) عن طريق توجهها إلى القطاع الخاص: مـــدارس ومستشفيات مجهزة بشكل جيد، قصور فاخرة، مخازن ضخمة. معظم فـــئات الشـــعب تـــرى نفسها مجبورة على التأقلم مع ما يقدم لها من مؤسسات عاجـــزة: أبـــنية مدرسية تالفة وغير صحية وخدمة طبية سيئة في المستشفيات الـــتي ينقصها كل شيء. كما تصبح مراكز المدن خاوية في حين تكثر الملاجئ البالية بجانب الأماكن العمرانية على هامش التجمعات السكنية.

أمـــا خصخصة شركات القطاع العام الكبرى فإنها تجرد الدول من وسائل السياســـة الاقتصـــادية الحقيقية، يحرم تخصيص البنوك الحكومات من السيطرة على سياستها النقدية. إذاً يحرمها من جزء مهم من سلطة القرار السياسي(13). ويؤمـــن امتصـــاص الساحة الصناعية من قبل القطاع الخاص انصياع أرباب العمـــل وخضوع الحكومات لمصالح الرأسمالية العالمية. أما بالنسبة لخصخصة الشـــركات الكبرى لإنتاج المواد الأولية (معادن، بترول، منتجات زراعية) فهي تعمـــل عـــلى ســـقوط المجموعة الكاملة للثروة القومية في جعبة المجموعات الأجنـــبية حيث المجموعات الأمريكية هي المسيطرة(14). وتسهل إزالة الحدود أمـــام دخول البضائع تدفق المنتجات اليدوية الكاسدة في الأسواق الأمريكية(15) الداخلية واليابانية والأوروبية إلى الأسواق المحلية حيث لا يمكن لعدد كبير من الـــناس الحصول عليها. في هذه الأثناء شجعت الإجراءات المفروضة من قبل صـــندوق النقد الدولي والبنك الدولي بروز فئة من حديثي النعمة تسهل تصريفاً مقبولاً للمنتجات المستوردة.

---

(13) في أوروبـــا إن استقلال البنوك المركزية المقرر في معاهدة ماسترخت ومن ثم المرحلة الحاسمة في عام 2002 – العملة الموحدة- سوف تضع حداً نهائياً لوجود دول القوميات بتذويب الهويات الوطنية في البوتقة الأمريكية الشكل.

(14) أصـــبحت الولايات المتحدة سيدة الموقف في معظم قطاعات الإنتاج في مجالات مختلفة بهذه الطريقة كـــالموز والـــزيوت والذرة والقطن ...إلخ ونذكر هنا أن الاتفاق الأخير للغات GATT ذهب حد إعطائهـــا مـــلكية الـــبذور والحبوب التي كانت إلى هذا الحين ملكاً للفلاحين المحليين الذين ينتجونها وينجحون بتوفير قسم منها من عام إلى آخر.

(15) حيث تتمتع المنتجات بمجموعة من المساعدات الخفية من أجل التصدير.

تؤدي الخصخصة في الاقتصاد المحلي في إطار التقسيم العالمي للعمل إلي وجود تأثيرات فاسدة منها سلب الفلاحين المحليين لصالح المجموعات المُستغلة الــتي هي بين أيدي الشركات المتعددة الجنسيات الأجنبية ودخول هذه المنتجات المتخصصــة فــي نظام دولي تحت إشراف تمويل دول الشمال التي تجعل منه تابعــاً بشــكل كــامل للقرارات الخارجية دون أي سلطة عليها من الحكومات الوطنية، ومن بين هذه التأثيرات أيضاً ترك الزراعات الغذائية(16).

هــذا يحملنا على الاستنتاج بأننا أمام سلب أراضي الدول التي وقعت تحت رحمــة صــندوق الــنقد الدولــي والبنك الدولي وبأن ذلك في الوقت نفسه هو انقضــاض عــلى القواعــد الأيديولوجيــة ضــد كيان الدولة. وزاد عدد هذه المجموعات خلال أقل من عشرين عاماً من 11 ألف مجموعة تشرف على 82 ألــف شــركة في الخارج عام 1975 إلى 37500 مجموعة تشرف على 207 آلاف شــركة فــي عــام 1992. هذه المجموعات تمثل حوالي نصف الأملاك المنــتجة فــي العالم. أما توزعها على المعمورة فقد كان بناء: 80% مركزها الرئيســي كان في دول «الثالوث» (الولايات المتحدة، الاتحاد الأوروبي اليابان والمــنطقة الآســيوية) 50% في الولايات المتحدة وبنسبة أقل في اليابان أو في إنكلــترا أو فــي فرنســا. واحــد بالمئة من هذه المجموعات تمتلك 50% من الممتــلكات و50% منها تمثل في الخارج النفط والسيارات والكيمياء والمنتجات الصيدلانية.

المكســب الأيديولوجي للولايات المتحدة معبر، ففي حين رأى مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية في عام 1976 الدول النامية تدين التبادل الحر وتطالب بــنظام الحمايــة، قــام الاجتماع التاسع الذي عقد في جوهنسبرغ في حزيران 1996 بتقديم منبر لها حيث عمدت إلى قدح العولمة وانفتاح الأسواق وتحويل الرســاميل الخاصة والمتعددة الجنسية. وينظر لهذه الأخيرة اليوم على أنها منبع مــتميز للأرباح لصالح العالم الثالث، وبين الليبراليتين العالميتين تخلت الليبرالية الأوروبيــة «الاقتصاد الاجتماعي للسوق» لصالح الليبرالية الأمريكية ومن قبل الأوروبيــن أنفسهم وأعطت الليبرالية الأمريكية الأفضلية للاختلال الاقتصادي ولحرية التبادل الكاملة وللخصخصة ولإلغاء القطاع العام ولمرونة سوق العمل.

---

(16) مما يجبر الحكومات على الاستيراد بأسعار منخفضة المواد التموينية التي يحتاجها الشعب والذي توقف عن إنتاجها.

ويبحث المجلس الأوروبي للإسراع بالأمركة رافعاً شعار الأفضلية لانفتاح السوق الأوروبية أولاً أمام الاتصالات والكهرباء.

يتفق الخبراء على الاعتقاد بأنه إذا بذلت المنظمة العالمية للتجارة جهداً لإعادة الانسجام إلى الاقتصاد العالمي فإن الدور الرائد الذي تلعبه الولايات المتحدة يحتوي على مخاطر متوقعة فقط لأنه يعود لها القدرة على شل أو إطلاق الآلية الكاملة لهذه المنظمة. إن محاولة الولايات المتحدة بتصدير تشريعاتها (قوانين هلمز بروتون وأماتو) لها طبيعة تدفع للقلق. فالتأثيرات الأساسية لخطط القهر لصندوق النقد الدولي التي تتدرج في التوسع في أرجاء المعمورة هي للأيديولوجية الليبرالية على الطريقة الأمريكية. إن الحرب الليبرالية ضد الدولة تقود إلى نزع أسس الدولة وجعلها غير قادرة على فرض إرادتها السياسية الخاصة والمتعلقة بالمصلحة العامة. وهكذا تجعل دورها مشابهاً للشرطي المسؤول عن حفظ النظام في كل الدول إلا في حالة أمريكا اللاتينية هي الأكثر ذهولاً.

مخططات التسوية والاخضاع وأمريكا اللاتينية:

تعد أمريكا الوسطى من بين مناطق العالم التي كانت الأكثر معاناة من قرارات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. فلقد عاشت غواتيمالا في حرب أهلية مُقَنعة رغم المفاوضات الجارية بين الحكومة والاتحاد الثوري الوطني الغواتيمالي، تعطلت هذه المفاوضات بسبب موقف الملاكين الكبار للأراضي Les terratenientes الذين كان من مصلحتهم المحافظة على حالة الفوضى. أعطى انتخاب الفارو أرزو في 9 كانون الثاني 1996 إلى سدة الرئاسة بصيصاً من الأمل للطبقات الشعبية التي أغرقتها الإجراءات الليبرالية المتطرفة في أعماق البؤس والخوف، عاد أقل من 40% من أولئك الذين كانوا في المنفى المكسيكي خلال الثمانينات إلى بلاد نازفة محطمة دون هيكلية. وأبقت الحكومة التي سيطر عليها أرباب العمل على الفوضى المقصودة بواسطة حكم الأقلية التي لا تدفع عملياً أي ضريبة في حين أن 80% من السكان يكسبون راتباً لا يكفي لشراء الضروريات الأولية.

في نيكاراغوا وبالرغم من السلام الداخلي الهش كان النمو الاقتصادي سلبياً. الخصخصة الإجبارية للمصارف إضافة لتراجع الدولية شجعت البطالة

والعـنف الذي كان يثار من قبل المنبوذين. وقد زادت مساوئ مخططات القهر لصـندوق النقد الدولي في عام 1994 عند الحصول على قرض جديد الذي أكد خضـوع البـلد للقواعد الليبرالية وللمولين الأجانب. فتم بذلك تدعيم الفساد لأن جزءاً كبيراً من الأموال كان يختفي في جيوب البرجوازية. تراجعت استثمارات نيكاراغوا البلد الصناعي الهامشي من 22% عام 1984 إلى أقل من 14% عام 1992. وبصفته بلد زراعي بشكل أساسي يرتكز خاصة على زراعة التبغ التي تمـثل 50% مـن الصادرات في حين أن السوق الدولية التي يقع تحت سيطرة الأمـريكيين الشماليين لم يكن متحمساً كثيراً للتبغ فانخفضت أسعاره، فكان ثمن القـنطار (100كـغ) 143 دولار فـي أول الثمانينيات فأصبح ثمنه 60 دولار تقريباً عام 1993. وقد وافقت البنوك على تقديم قروض بفوائد باهظة مما أدى إلى خـنق المشاريع الصغيرة والمتوسطة التي سبق لها أن عوملت بشكل سيئ من الليبرالية المتوحشة.

فـي الجزء الجنوبي من أمريكا اللاتينية تبدو حالة كولومبيا الأكثر تمثيلاً للـنظام الـذي أقامـته الولايـات المـتحدة والمؤسسات المالية فيما بعد. يقول البروفيسـور الأمريكي نعوم شومسكي إن إدارة الرئيس الأمريكي أعطت عام 1962 لجيـوش بلاد الجزء الأسفل من القارة دوراً جديداً. فلم يعد الأمر يتعلق بالنسـبة لهـا بتأمين دفاعها الوطني ضد العدو الخارجي بل أصبح الموضوع يتعـلق بالأمن الداخلي. وقد اعترف شارل كيشلنغ المسؤول الأسبق عن برنامج الحـرب ضد العصابات أيام رئاسة كيندي وجونسون بأنه لم يعد يكفي منذ ذلك الحين تحمُّل «جشع ووحشية العسكريين في أمريكا اللاتينية» ولكن انتقلنا معهم إلى «شـراكه مباشرة». إن الأساليب التي استخدمها العسكريون المدربون من قـبل الأمريكيين لم تقل شراسة عن «أساليب فرق التصفية لهنريش هتلر». هذه المقارنـة ليسـت بسـبيل المصادفة لأن الولايات المتحدة استقبلت حينها القادة السـابقين للنازية الذين ساعدوا في إعداد كراسات التدريب. وقد دأب معاونون فـي الـبيت الأبيض أمثال روبرت مكنمارا على تطبيق الأساليب المقترحة من أجـل أبعـاد «كل من يمكنه أن يهدد الأمن الداخلي» لدول أمريكا اللاتينية. في عـام 1981 أعد الاقتصادي إدوارد هرمن من معهد وارطن (جامعة بنسلفانيا) دراسـة تحدثـت عن علاقة سببية بين الطغمة العسكرية وإيجاد «مناخ مناسب للأعمـال» يتجـلى أوتوماتيكيـاً بتصاعد القمع والتعذيب والاغتيالات وإرهاب الدولـة وانـتهاك حقـوق الإنسان بأسوأ أشكاله الفاضحة. كولومبيا الحالية هي

النتيجة المباشرة لهذا النظام، وباعتبارها موطناً لمنظمات مافيا المخدرات بالتواطؤ النشط مع الصناعة الكيميائية الأمريكية ومع البرجوازية المحلية (المصارف والمصانع التي تجنى منها أرباح ضخمة) ومع العنف والعصابات فهي اليوم من بين الدول حيث حقوق الإنسان الأكثر انعداماً.

إلا أنه جرت العادة بشكل عام أن يُذكر هذان البلدان كنموذجين لتطبيق العقيدة الليبرالية المتطرفة، فمن الجدير إذن أن تستحوذا الانتباه بشكل خاص.

في بلد مثل البيرو Pérou العوز الاجتماعي كبير جداً. الرئيس فوجيموري Fujimori الذي انتخب في 28 تموز 1990 تحت شعارات «العمل، التكنولوجيا، الشرف» جذب التعاطف الشعبي وخاصة تعاطف الهنود نتيجة صدى المبادئ التي أعلن عنها «لا تسرق، لا تتقاعس عن العمل، ولا تكذب». طبق فوجيموري بإيعاز من صندوق النقد الدولي خطة ليبرالية متطرفة كانت الأقسى على وجه الأرض وعرفت باسم «صدمة فوجي» Fuji chock، لقد عرف عنه بأنه متسلط وكتوم وعنيد ومبالغ في الذرائعية، مستشاره هو فلاديميرو مونتسينتوس عميل بارز لـ C.I.A (وكالة المخابرات المركزية)وضمانة واشنطن ويبدو أيضاً أنه متورط مع مافيا الكوكائين. إن الدعم الجماهيري الذي تمتع به فوجيموري أثناء انتخابه الأول استمر معه لبعض الوقت، رغم انقلابه الشخصي وضربته للمؤسسات عام 1992. وأدت إجراءاته التي أتخذها من حل البرلمان وتعليق للضمانات الدستورية وانتخابات المجلس التأسيسي الذي ضمن انتصار حزبه إلى إيجاد دستور جديد عام 1993 يسمح بإعادة انتخاب الرئيس والذي أصبح فعلياً عام 1995 بفضل الضغوطات التي مارسها الجيش. وتفسر الحصيلة الاقتصادية الثقة التي مازال يتمتع بها لدى أكثرية ضئيلة من الشعب. التضخم المالي الذي بلغ مداه أيام رئاسة آلان غارسيا (1773530%) هبط إلى 3.2% والنمو الذي دعمه تدفق الرساميل الأجنبية ودخول البلاد في النظام المالي الدولي والتدفق السياحي والنصر النسبي المدعوم من قبل الولايات المتحدة ضد حركات العصيان لم تتمكن من منع قيام الهوة التي باعدت بين النخبة الاقتصادية وباقي فئات الشعب. عام 1992 كان لا يزال في البلاد 15 مليون فقير من أصل عدد السكان البالغ 22 مليون نسمة، وكان هناك تسعة أشخاص من أصل عشرة عاطلين عن العمل، كما كان يوجد 3 ملايين طفل يعملون من أجل كسب الرزق بينهم 200 يموتون كل يوم بسبب سوء التغذية.

تحسن الوضع اليوم رغم أن الأفضلية المطلقة للرئيس هي الأمن فأجل إلى وقــت لاحق النضال من أجل القضاء على البؤس، وترتكز السياسة الاقتصادية بشكل أساسي على وفاء الديون (الأموال الضرورية تأتي من مصادر شتى منها تجــارة الكوكائين حيث أن البيرو تشكل 60% من الإنتاج العالمي) هذه السياسة هــي المســؤولة عــن نسبة البطالة المرتفعة (19%) وعن العوز الاجتماعي الكــبير. فإذا كانت هذه السياسة التي تطبق المعايير الأساسية للتطرف الليبرالي قــد ســمحت لـــ 15% من الشعب (مدراء المشاريع والأجراء والبرجوازية الكــبيرة) جــني الثروات إلا أنها جعلت 85% من الشعب في حالة اليأس من بيــنهم 45% فقــراء أو فـــي فقر شديد و20% ليس لديهم الحد الأدنى لأسباب العيــش. وقد أثار فوجيموري غضب الجماهير عندما باع مصفاة باميلا فكانت الخطــوة الأولى لخصخصـــة شركة البترول الوطنية بيتروبيرو Petro Peru. ورغم جمع 100 ألف توقيع لإجراء استفتاء حسب بنود الدستور حول هذا البيع فإنـــه لـــم يتم تنظيم مثل هذا الاستفتاء لأن الرئيس قد أصدر قانوناً أخضع فيه قـــرار هـــذه الموافقة للبرلمان. في أيار 1996 وبسبب نقص في العملة الصعبة الـــذي يعـــاني مـــنه القطاع الصناعي قامت الحكومة من جهة أخرى بالتنازل والـــتوقيع عـــلى اتفـــاق مع شركة شل- موبيل للسماح لها باستغلال بئر الغاز الطبيعي في كامسا.

فـــي التشـــيلي البـــلد الذي ترى فيه المؤسستان الماليتان الدّوليتان نموذجاً يحـــتذى بـــه كونـــه مخـــبراً لليـــبرالية فـــي أمريكا الجنوبية بإشراف الخبراء الاقتصـــاديين الأمريكيين ساهمت النجاحات بتعميق الهوة بين الأقلية المسيطرة وبين الآخرين. فمنذ قيام الانقلاب العسكري التشيلي المدعوم من الأقلية المحلية ووكالـــة المخابرات المركزية C.I.A في 11 أيلول 1973 ضد الرئيس الليندي تـــم تدميـــر مجـــالس النقابات. واستبدل تدريجياً القطاع الصناعي-الذي لم يكن موجـــه نحـــو التصـــدير أي لـــم يكن جزءاً من نظام الحصص الدولي للعمل- بصـــناعات معتمدة من قبل صندوق النقد الدولي حسب متطلبات واشنطن. أدت الـــدول إذاً مهمتها فضمنت عن طريق التواجد البوليسي حرية العمل وامتيازات الأغنياء(17) في حين أن القرارات السياسة المُفرغة من بعدها الاجتماعي كانت

(17) يمـــلك 20% مـــن التشيليين 50% من الدخل القومي ويعيش 30-40% من الشعب في العوز والحاجة الماسة.

تـــتخذ خـــارج البلاد. كتب فيليب غرينييه الباحث في المركز الوطني للبحوث العلمية في فرنسا CNRS يقول: «الإنجاز البارز للتشيلي ذات الليبرالية الجديدة كان دون أي نقاش إقامة مجتمع ذو اتجاهين في بيئة مريضة». كان على البلاد أن تواجـــه عملياً مشكلة انسجام اجتماعي هش. وبالنظر لمعدل وجود المشاريع المتدنـــي بعـــد بوليفيا (15%) فإن أكثر من 30% من الشعب يعيش تحت عتبة الفقـــر حـــتى لو كان عدد الفقراء في خمس سنوات تراجع من 5 ملايين إلى 4 ملاييـــن.ولم يترافق نجاح النخبة الاقتصادية أبداً مع توزيع عادل للأرباح. وقد تمـــت التضحية بقطاعات الخدمات العامة التي تشكل الهدف المفضل لصندوق الـــنقد الدولـــي لصالح زيادة العائدات. لهذا السبب لم يعد القطاع الصحي يكلف أكـــثر من 1.2% من الناتج المحلي الصافي في الوقت الذي كان يتمتع بـــ 3.2 % مـــنه أيـــام الليندي وكانت تحسم النسبة 1.2% من المشتركين في الضمان. رغـــم تـــبديل نظام الضمان الاجتماعي الذي أسس عام 1952 بنظام آخر عام 1981 وأصـــبح يعـــتمد على الاشتراكات الفردية الخاصة، لذا كان هناك نظام طبـــي له اتجاهـــان. ففي حين أن 23.7% من الشعب كانوا يتمتعون بالخدمات الطبـــية الخاصـــة (كانوا يعتبرون إذاً زبائن لا مرضى) ويتصرفون بـــ 230 دولار سنوياً من العلاج للفرد كان هناك 63.4% يكتفون بالقطاع الصحي العام الـــذي لا يـــنفق أكـــثر مـــن 130 دولار فكانت له خدمات طبية بالحدود الدنيا ومتواضـــعة. فـــي عـــام 1996حدثت مجابهات في داخل اليمين بسبب قضايا مؤسساتية وضعت الرئيس إدوارد فري Eduardo Frei في موقع صعب. فإن كانـــت النتائج الاقتصادية تدعو للتفاؤل (5% من البطالة رسمياً – 8.5% نسبة الـــنمو – 8.2% نســـبة التضـــخم – 26.5% مـــن الـــناتج المحلي الصافي للاستثمارات – 27,9% نسبة الوفر – 7% ارتفاع الإنتاج الوسطي) إلا أن عدم المساواة لم تنخفض نسبته مع سوء للتوزيع لم يسبق له مثيل. ولم تشكل البرامج التي وضعتها الحكومة لمكافحة الفقر المدقع إلا علاجاً آنياً.

حقـــاً أن دول أمريكا اللاتينية تعمل جاهدةً على حماية نفسها لذلك عقدت خلال السنوات التي مضت سلسلة من المؤتمرات من أجل التوصل إلى اتفاقات اقتصـــادية. في الأول من كانون الثاني 1995 بدأ العمل بنظام «حركة التكامل الاقتصـــادي الإقليمـــي» وهي سوق كبيرة مشتركة لدول أمريكا الجنوبية يضم الـــبرازيل والأرجنتيـــن والأرغـــواي والبراغوي والأمانة العامة تمركزت في مونتافيدو. أبرمت بوليفيا اتفاق شراكه مع مركسور في كانون الأول 1995 في

حيــن أن تشــيلي وقعت اتفاق تبادل تجاري حر معه في حزيران 1995. في كــانون الأول 1995 أيضــاً أبــرم مركسور مع الاتحاد الأوروبي اتفاقاً كان محــوره إيجــاد منطقة واسعة من التبادل الحر من الآن حتى عام 2005. أما الألســا ALCSA (اتفــاق التــبادل الحر لأمريكا الجنوبية) هو مشروع اتفاق برازيــلي بهدف إيجاد منطقة للتبادل الحر لأمريكا الجنوبية وهي مدعوة لإقامة مفاوضــات في وضعية قوية نسبية مع الألنا ALENA (اتفاق التبادل الحر في أمــريكا الشمالية). الآفاق لم تكن بهذه النسبة من الانشراح فالاتفاق المزمع مع الألنا لن ينقص انصياع اقتصاديات أمريكا اللاتينية للولايات المتحدة، ونستطيع أن نشك أن الولايات المتحدة قادرة على جني المكاسب من اتحاد لن تتخلى فيه عــن أي شــيء يخدم مصالحها. في الواقع أزعج الاتفاق مع الاتحاد الأوروبي واشــنطن وحمــل الولايات المتحدة على اللعب بحذق باستخدام سلطتها للتأثير عــلى أمــم جنوب القارة. أما بالنسبة للمؤشرات الاقتصادية الشاملة فإن كانت إيجابيــة في بعض الأحيان إلا أنها لم تتوصل إلى إخفاء الاختلافات التي تغطيه ولا إلى قــلب ميــزان المؤشرات الاجتماعية التي تدل على ارتفاع في البطالة والعمــل الموســمي وتوسع في القطاع غير المتعارف عليه (84% من فرص العمل غير الزراعية تم إيجادها عام 1995).

الاتفاقات الدولية:

تــندرج الاتفاقــات الدولية الموقعة بين الولايات المتحدة والبلدان الأخرى وخاصــة مــع أوروبا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ضمن منطق أمريكي لا يمكــن المساس به.«لا للعلاقات السياسية القسرية والملزمة ولكن قبل كل شيء نعــم لــلعلاقات الاقتصــادية» هذه كانت إذن نصيحة جورج واشنطن والتي تم التعــبير عــنها من جديد عند نهاية القرن التاسع عشر بواسطة ماهان وآخرين وهــذه النصيحة تعني أنه «علينا خلق علاقات اقتصادية وبهذا الأسلوب نستطيع أن نسيطر على العالم».

لقــد بــدأت محاولــة وضــع أوروبا تحت الوصاية عن طريق المبادلات التجارية بعد عام 1945 بواسطة خطة مارشال. وحقق بالشكل الذي استخدم فيه

أحـــلام جـــان مونيه(18) بإقامة أوروبا الأمريكية كما طمأن الشعوب الأوروبية التي قيل لها بأنها أمام خطر التوسع السوفيتي لن تستطيع أوروبا البقاء على قيد الحيـــاة بدون أمريكا. ويؤكد أوتو ده هبسبورغ المشتبه قليلاً بعدائه للأمركة بأن ستالين حسب المعلومات التي عرفت من الجنرال سيكورسكي حول المخططات المتعلقة بأروربا «لم يكن يريد إلا السيطرة على الجزء الشرقي من بولونيا وهذا ما حصل عليه سابقاً في اتفاقية رينتروب – مولوتوف بما فيها كاربوتو أوكرانيا ممـــا يؤمـــن له إقامة الجسر في حوض الدانوب إضافة إلى جزء من رومانيا للإشـــراف عـــلى الدانـــوب. ولم يكن يريد أن يذهب إلى ابعد من ذلك ولم يهتم بروسيا الشرقية وبسليزا وبألمانيا الشرقية» كذلك وبعكس ما كان ترومان يشيع فإن احتلال اليونان وتركيا لم يكن يعنيه أيضاً.

يضـــاف إلى هذه الأسباب الجيوسياسية بشكل خاص ما كانت أمريكا تراه مـــن ضـــرورة إطلاق الاقتصاد الأوروبي بهدف مساعدة أوروبا للخروج من بؤســـها بل من أجل فتح الأسواق التي بدونها يبقى الازدهار الأمريكي ضرباً من الوهم. لذلك عندما أعلن وزير الخارجية الأمريكي مارشال في عام 1947 بأنـــه يـــنوي أن يحمل لأوروبا سياسة جديدة «ليست موجهة ضد بلد أو عقيدة معينة ولكن ضد الجوع والفقر واليأس والفوضى تهدف بعث الحياة الاقتصادية» كان علينا إذاً أن نفهم ماذا يريد أن يقول.

بعـــث الحياة الاقتصادية لا يمكن تصوره إلا كامتداد للاقتصاد الأمريكي، فمـــن غيـــر الممكن إقامة علاقات اقتصادية مع شريك جائع وغير منظم وفقير وبالتالي لا يمكن تحقيق الثروة كما يؤكد أوجين فيبرر وهذا صحيح بأن «خطة مارشـــال اســـتعملت قـــبل كل شيء لتحريك تعاون الأوروبيين بإقامة برنامج مشـــترك لإعـــادة البناء (1948) الذي ومنذ عام 1951 أعاد الإنتاج الصناعي لمستواه قبل الحرب» لذا كان للمخطط الأمريكي هدفان: أولاً كان يجب إعطاء الحياة للاقتصاد الأوروبي واستخدامه كمنافذ ثم نسج علاقات اقتصادية قوية جداً بشـــكل أنـــه بـــات مـــن الصعب على أوروبا أن تستمر بمفردها وقد دعم ذلك الصورة التي كونتها أمريكا عن نفسها أمام الرأي العام كبلد كريم ومتفان.

---

(18) بتنا ندرك اليوم أن جان مونيه كان يكره ديغول وبما أنه كان على اتصال بالوسط الاقتصادي كتاجر قديم للكونياك ويعمل في قطاع المصارف وصفه ديغول «رجل الأمريكيين». ونستطيع أن نفهم أكثر أن أوروبـــا التي أراد إيجادها عند قراءة المذكرة التي كتبها بعد خطاب 18 حزيران واتهم فيها ديغول بـــ«عدو الشعب» وبأنه «يلقي خطابات هتلرية» كما أنه طالب بـــ«تدمير» قائد فرنسا الحرة.

لم تطلق الولايات المتحدة خطة قبل أن تحدد قطاعات مصالحها الأساسية في كل أنحاء العالم بشكل مسبق. وهكذا دخلت مناطق أوروبا الغربية والبحر المتوسط وحوضه والشرق الأوسط ومضيق جبل طارق ومحيطه والساحل الأفريقي وأمريكا اللاتينية واليابان في دائرة الأفضلية. ومن أجل تشجيع شركائها وخاصة الأوروبيين لتضمن انصياعهم قامت الولايات المتحدة أحياناً بإشعال أو بالمساعدة على إشعال عدد من البؤر وأحياناً وقفت متفرجة أمام ما يجري في بؤر أخرى.ومن هذه البؤر جاء الشعور بأن الخطر الشيوعي في أوجه فانفجرت بعض القضايا كما في تشيكوسلوفاكيا وبرلين (1948) ثم في كوريا (1950) مما عجل عملية استقلال ألمانيا الفيدرالية التي شكلت عودتها كقوة اقتصادية أمراً ضرورياً من أجل الغزو الأمريكي لأوروبا.

ولكي تكتمل مهمة إقناع الشعوب الأمريكية بالتوحد تحت عصا الولايات المتحدة لم يتوقف الرؤساء ترومان ثم أيزنهاور عن التلويح بالخطر الشيوعي. في هذا الإطار كانت كلمات أيزنهاور المحبوب من الأوروبيين هي الأكثر تعبيراً عن الطموحات الأمريكية.

لقد رجع منطقياً إلى وودرو ويلسون الذي توجهت مناوراته المعادية للاستعمار ومحاولته تفتيت الأراضي الأوروبية فاستعادها روزفلت بعد بضع من عشرات السنين فكانت إحدى أسباب الحرب العالمية الثانية. لقد استعار من ويلسون تأكيده بأن «الشكل الأكثر كمالاً للفعالية يكمن في التعاون العفوي بين الشعوب الحرة» مستنتجاً بأن ذوبان الأعراق والديانات المختلفة قد خلق القوة الخارقة التي لم تعرف الأرض مثلها إلا في الولايات المتحدة. فما كان منه إلا أن يتساءل ماذا يمنع الأمم الأخرى من اتباع المثال نفسه ؟ ولم يكن في أية لحظة يمكن أن نتصور تجارب خاصة فالذوبان المطلوب لا يمكن أن يتولد بواسطة النموذج الأمريكي فقال مؤكداً بأن «نظامنا هو الأكثر إنتاجية على الأرض» لا شيء يمكن أن ينافسه إذاً لأنه رمز يقتاد به. ويذكر مساعدة أوساط رجال الأعمال الأمريكية «لتحريك الأخلاق الكامنة من طرق الحياة الأمريكية»مؤكداً أنه عندما يقوم رجل أعمال ببيع سيارة أو براد فهو يبيع عملياً إنتاجاً هو بدون شك الأفضل في العالم وهو يبيع أيضاً «إنتاجاً أمريكياً وأكثر من ذلك فإنه يبيع جزءاً من أمريكا».

إلا أن الولايات المتحدة كما أشار روزفلت التي تمتلك الموارد المادية والطبيعية والبشرية الأكثر أهمية في العالم مما يجعل منها أمةً فريدةً تستثير

حســد وحقــد الآخريــن. فهــي تــتعرض إذاً لمؤامرات دولية تهدف أبعادها: فالإمبريالية السوفيتية التي حاولت الاستيلاء على تركيا واليونان مازالت قائمة. في هذا الإطار يبدو من الضروري أن تتحمل الولايات المتحدة مسؤوليتها بقيادة العــالم الحــر «لأننا نحن شعب ينظر إلى العالم بتفهم وبعطف لجميع المشاكل التي تهم الإنسانية» لذلك على أمريكا أن تدعم منظمة الأمم المتحدة التي أنشئت فــي زمن روزفلت ولكنها نمت فعلياً زمن ترومان» فهي منظمة مثال سيمكنها وقــف مطامع الاتحاد السوفيتي فكان مخطط مارشال هو الامتداد الطبيعي لهذه السياسة.

ولكــي يتجنــب الإفصـــاح عن الطموحات الفجة أعلن أيزنهاور والإدارة الأمريكــية بــأن أوروبــا الغربية رغم أنها تمتلك قدرة اقتصادية أساسية لكنها مهددة بالمطامع الشيوعية. وانطلاقاً من هذا وفي سياق النجاحات الأمريكية منذ الحرب بات من السهل اعتبار كل مبادرة ومنها مخطط مارشال كمحاولة نزيهة لإعاقة التقدم السوفيتي في أوروبا. إن ما يسميه الرئيس «بالفوضى الدولية» – الخطــر الكبير على أمن الولايات المتحدة – ما هو بالحقيقة إلا رفض من قبل بعــض الأمم أو المناطق الدخول في شبكات تابعة لواشنطن. ولم يُفوت الرئيس الأمريكــي أية مناسبة ليردد «لقد اختارنا القدر بمهمة قيادة الآخرين بين الأمم المحــبة للعدالــة والحرية، ونحن لدينا الإرادة ولدينا الوسائل وعندما أدرك ذلك أحــد أعداء الحرية جعلنا هدفاً رئيسياً له بغية القيام بحرب مستقبلية، هذا يعني أن أمننا مرتبط بوجود وبتطور العالم الحر».

عليــنا أن نذكر هنا أن هذا التعبير الأخير ما هو إلا تسمية مناسبة للدلالة علــى مــنطقة النفوذ الأمريكي حيث تشكل أوروبا الغربية جزءاً منها علماً أن أوروبــا الشرقية قد تم التنازل عنها إلى الاتحاد السوفيتي كثمن لعدم تدخله في المشــاريع الأمريكــية. مــن هــنا أتى تقسيم العالم إلى معسكرين متعارضين: فتحققــت بذلك ما ضمرته الأيديولوجية الأمريكية على المستوى العالمي. فكان مــن جهــة النظام المهين الممثل بشكل أساسي بالمعسكر الشيوعي، ومن جهة ثانــية الديمقراطــيات حيث كانت الولايات المتحدة بالطبع هي النموذج والقائد، فهي تمثل نوعاً خاصاً من الأيديولوجية «المرتكزة على الكرامة الإنسانية وعلى الحــق»والمعســكر المنافس يتلخص بكلمة واحدة «سلطة الدولة» فباسم مكافحة نظــام سلطة الدولة تم إقامة نظام دولي يرتكز على الحرية الاقتصادية وحرية انتقال الأموال والبضائع والمنظمات المتعددة الجنسيات فجاء زمن عقد الاتفاقات

الدولية بتشجيع من الولايات المتحدة.

ينجم عن هذا الاستنتاج أن نظام سلطة الدولة هو مصدر إزعاج للديمقراطية. يقول أيزنهاور بأنه «في اتفاق الأمم الأوروبية الغربية حيث نبذل الجهود لإقامة اقتصاد قادر على الاستمرار بنفسه علينا ألا يغفل عن نظرنا لحظة بأن لهذه الأمم مشكلة أمنية». فعلى الولايات المتحدة أن تشعر بأنها مسؤولة عن هذه المشكلة الأمنية كما عليها أن تشرف على حسن سير هذا الاقتصاد.«وإذا كان علينا أن نجعل من أوروبا وحدة اقتصادية فعلينا بالتأكيد أن نجعل منها وحدة سياسية أو بكل الأحوال نجعل منها مجموعة حيث كل عضو يعتمد على الآخر دون أدنى شك فيما يتعلق بالأمن، لأنه إذا أصبحت أوروبا وحدة اقتصادية فمن المنطق أن نفترض بأن الجلد والثياب سوف يتم إنتاجها في بلد ما وبأن الأدوات المعدنية والسلاح سيتم تصنيعها في بلد آخر وربما أنتجت الطائرات في بلد ثالث، فكل فريق سوف يرتبط إذاً بالآخرين». يبدو هذا الخطاب واضحاً كل الوضوح وخاصة إذا وضع في سياقه الأيديولوجي.

هو أولاً يدعو الدول الأوروبية كي تتكتل في كيان عضوي يجعلها غير قابلة للتفكك عن بعضها البعض، ومن ثم يدعو بوضوح كل أمة للدخول في النظام العالمي لتقسيم العمل الذي تمسك الولايات المتحدة بمفاتيحه. ولكن لكي يقبل الأوروبيون ببذل جهودهم في المجال الاقتصادي الذي يجعل منهم دولاً مرتهنه بعضها البعض كان يجب أن نجنبها الخوف الذي أثارته مشاكل الأمن. لهذا جاءت الدولة الصديقة إلى رئيس الولايات المتحدة لتقول له:«نعم نحن نرغب أن نعيش مثل الولايات المتحدة ولكن هناك عدة أسباب تمنعنا من أن نعلن ذلك بصوت عال وقوي». يتابع أيزنهاور قائلاً بأن أحد الأسباب هي أننا نتحسر على أمننا ورغم عنا سوف ننجر إلى سباق مع الدول الديكتاتورية. وبشهامة الفارس أجاب الرئيس الأمريكي على هذه المخاوف قائلاً:« لا تجزعوا سوف نسهر على راحتكم، طبعاً أنا على قناعة تامة بأنه علينا أن ندخل في برنامجنا أن نهتم بأمن أوروبا في نفس الوقت الذي نقوم باستثماراتنا فيها بشكل حكيم من أجل مساعدتها لكي تحقق الاعتماد على الذات في المجال الاقتصادي بشكل يصبح لديها القدرة لسد احتياجاتها داخل نظام قائم على حرية العمل». خلف هذه اللغة الملتبسة يظهر بوضوح مشروع أيزنهاور للسيطرة العسكرية وللأوروبيين القلق عندما يصبحون على طريق الازدهار لكي يحافظوا على اقتصادهم وهم أسياده ظاهرياً بمفردهم ولكن في الحقيقة سيندرج هذا الاقتصاد

فـــي لعبة العولمة المتنامية. وعندما سيقتنع الأوروبيون بتهديد الخطر الشيوعي الـــذي تولـــت الولايات المتحدة مهمة الوقوف بوجهه سوف تتحقق بذلك المهمة الأساسية هي إقناع الأوروبيين بتسليم أمرهم لوصاية الحماية الأمريكية.

لقـــد لخـــص أندريـــه كاسبي بشكل رائع روح مخطط مارشال للمساعدة الاقتصـــادية لأوروبا فقال:«قليل من المصالح المفهومة فالمساعدة الغذائية التي تقدمهـــا الولايـــات المتحدة ستصرّف الإنتاج الزائد من لدى المزارعين الذين لم يتوصـــلوا للتخلص منه مما يؤمن عمل الاقتصاد النامي وسيسمح بشكل أو آخر وعـــلى المـــدى الـــبعيد بإقامة تبادل مثمر بين أمريكا وأوروبا وقليل أيضاً من المـــبادئ. فالولايـــات المتحدة تدافع عن نظام قائم في الوقت نفسه على التبادل الحـــر وحـــرية انتقال الآراء والبضائع ورؤوس الأموال وليس على أراضي لا يهددها أحد». القروض – وليس الهبات – منحها مخطط مارشال أولاً لبريطانيا العظمى ولفرنسا وليس لألمانيا التي دمرتها الحرب. لقد تم تسليم البريطانيين ما مجموعـــه 3.389 مليار دولار وبين عام 1947 وعام 1949 وتم تقديم 2.713 مـــليار دولار لفرنســـا بيـــنما حلت إيطاليا في المركز الثالث فقد حصلت على 1.508 مـــليار دولار بيـــنما حلت ألمانيا في المركز الرابع بمبلغ 1.390 مليار فقط.

يمكـــن أن نفســـر بشكل بسيط هذه الكياسة تجاه بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا مقابل صرامة ظاهرية تجاه ألمانيا، فهذه الأخيرة التي دمرت بنسبة 90 % لم تكن قادرة على أن تأمل بإعادة بناء اقتصادها قبل مرور عدة سنوات. أما إنكلـــترا وفرنســـا فقد تم تصنيفهما من بين البلدان المنتصرة وإيطاليا التائبة لم تتعرض لخسائر غير قابلة للإصلاح في وقت قصير. في هذا لإطار يقول سرج برشـــتين « لقـــد تـــم العمـــل على إعادة البناء على الأسس القائمة دون إعارة الاهـــتمام إلى الإنتاجية أو المردود ودون إعطاء أي تفضيل لإقامة المشاريع». فلم يكن الدولي ولا المحلي لما بعد الحرب يسمح بذلك فعلى سبيل المثال لم يكن لفرنســـا أن تقوم بعمليات تصدير. لقد بلغ العجز في ميزانها التجاري بين أعوام 1946-1949 حولـــي 9 مـــليارات دولار دون احتساب عجزها في الأراضي التابعة لها خارج حدودها. لقد أوجد مخطط مارشال إذاً آلية، التي هي في حين تشـــجع الصناعة وتعمل على رفع مستوى الحياة لرفع مستوى القدرة الشرائية كـــانت بذلك تعمل على دفع قدرات التصدير وكذلك استيراد المنتجات وخاصة الأمـــريكية. لقد كانت الولايات المتحدة تقدم الدولارات ويقوم بالمقابل مصرف

فرنسا بتعويض القيمة بالفرنكات إلى الخزينة التي بدورها تدفعها إلى المشاريع لتـــتيح لها شراء الدولارات من أجل تسديد ثمن موادها المستوردة من البضائع الأمـــريكية. مـــا دفعــــه مصرف فرنسا مقابل المساعدة الممنوحة من الولايات المـــتحدة بلغ 732 مليار فرنك وقد ساهم هذا المبلغ بالطبع على إعادة بناء قوي للقطاعات المؤممة (كمؤسسة كهرباء فرنسا ومؤسسة غاز فرنسا ومؤسسة الفحم والســكك الحديدية) إلا أن هذا الشكل من عدم التوازن المالي ناتج عن التضخم المـــالي، ممـــا أعاق بشكل أساسي القيام بعملية إعادة بناء منسجمة. ساهم هذا الوضع برفع أسعار المشتريات من خارج فرنسا فأعاق بالتالي التصدير وشجع عمـــليات الاســتيراد. ونـــتج عـــن ذلك عدم توازن دائم في ميزان المدفوعات والميـــزان التجاري الذي لم يكن من الممكن إعادة التوازن إليه بفضل المساعدة التي قدمها مخطط مارشال».

أصــــاب الأمـــريكيون بذلـــك عصفورين بحجر واحد، لقد أوجدوا الحافز لاقتصــــادهم عـــن طريق عمليات التصدير إلى البلدان الأوروبية التي استعادت قدرتها على الاستيراد وفي الوقت نفسه لقد حصروا هذه البلدان نفسها في دائرة التـــبعية لهـــم. وهكذا نستطيع أن نفهم «الاعتراضات الأمريكية»المؤيدة لانفتاح كـــامل نحو نظام المبادلة وعدائهم لكون «فرنسا تحافظ على نظام إشراف قاسٍ على التبادل بغية المحاولة لخفض الاستيراد».

خلق هذا الكرم الأمريكي الظاهري الكامن وراء القرار الأمريكي بوضع خطة للمساعدة الاقتصادية لأوروبا ومؤثراتها الإيجابية التي أتاحت لها أن ترفع مســـتوى المعيشــــة بشـــكل مـــلحوظ بأن تختفي عملياً إرادة الولايات المتحدة بالحصــــول على ما كان الرئيس ويلسون قد وضع مسودته الأولى: تأكيد تبعية القارة العجوز للولايات المتحدة أكثر فأكثر، وهكذا استخدمت الدعاية الأمريكية فـــي الـــنورماندي فـــي حزيـــران 1944 حيث احتفلت بذلك القوات الأمريكية واســـتخدمت أيضــــاً النصــــر الممنوح للجنرال ديغول في نيويورك في 22 آب 1945 فاستغلت بذكاء مشاعر الفرح التي تنعم فيها أوروبا ووضعت إستراتيجية كـــان عليها أن تؤمن في وقت واحد سوقاً للعمل والازدهار الاقتصادي وسكب الفـــائض الـــزراعي والصناعي للولايات المتحدة في السوق الأوروبية. فكانت أيضــــاً بدايــــة الهيمــــنة الاقتصادية والمالية والثقافية وأخيراً السياسية للولايات المتحدة على القارة الأوروبية.

فيمـــا يخـــص فرنســـا أظهرت الخطوة المتخذة بالتوقيع على اتفاقيات بلوم –

بيرنس Blum-Byrnes في ربيع 1946 أنها كانت حاسمة. فمقابل مساعدة قدرها مــليارا دولار لمــدة أربــع ســنوات قبلت بفتح سوقها على مصراعيه للواردات الأمريكية. فجاءت البواخر بالمئات محملة بما مقداره 4500 طن من المواد الغذائية حمــلت مــا يقــارب 2000 شاحنة باتجاه جميع أنحاء فرنسا. وهكذا «أتاح الكرم الأمريكي » الذي صاحبه آلة دعائية كبرى «لأوروبا أن تعيش» وقامت بين أوروبا والولايــات المتحدة علاقات بالتبادل الحر دون حواجز ولكن لم يكن ذلك متبادلاً فقد ســقطت كل الحواجز الجمركية في أوروبا وكان من الصعب إعادتها من جديد. أما عواقب هذا القرار لم تكن فقط اقتصادية ولكن أيضاً ثقافية.

تميــزت الهجمـــة الاقتصــادية الأمريكية في أوروبا بثلاث ظواهر، أولاً بالجاذبيــة الســهلة لعــالم الصناعة والمال والأعمال التي حققت نصراً واسعاً لأمريكا التي أعطت عن نفسها صورة ساطعة لأمة ديناميكية ترنو إلى المستقبل وتمســك بالصواب وبأفضل مفاتيح المستقبل وكشفت قبل كل شيء بأن أمريكا على علاقة ومنذ زمن طويل بالأوساط الاقتصادية الأوروبية التي تستفيد بشكل كــاف دون أن تهــتم بتأثير ذلك على المدى البعيد في العواقب السياسية. ثانياً جــذب آلاف الشــباب تجاه الجامعات الأمريكية الذين قاموا بالسفر للدراسة ثم العــودة مــبهورين ومأخوذين بالمفاهيم الحديثة مثل «الإنتاجية» و«العقلانية». وأخيراً عرفت الولايات المتحدة كيف تستطيع أن ترسل لأوروبا رسلها مسلحين بوصــفات خاصـــة بهم كفيلة أن تضمن للاقتصاد الأوروبي التطور الذي كانت بانتظاره.

غــرسٍ هــذا التكــتيك الثلاثي في النسيج الاقتصادي بذرة تحول أمريكي (أمركة) مقنع لم يكن باستطاعة أحد إيقافه. ومنذ بداية الستينات أصبحت أوروبا تــتغذى بالمسلســلات التــلفزيونية الأمريكية (فليبر – الهارب – غير القابلين للفســاد: «الــنزيهون») وبالمنتجات من جميع الأصناف. في ذلك الوقت بدأت الاســتثمارات الضــخمة الــتي أخضــعت الصناعة الأوروبية لنير الرأسمال الأمــريكي. فهناك منتجات تحمل أسماءً اعتدنا عليها في أيامنا هذه مثل سنجر، وجيلت، وأ.ب.م، وأسو، وليغيز، وكامي رفريجيدر، وهوفر، وسيمنز، وموبيل، وكولجيــت، وكــوداك وكنــبز وبــلاك أند دارك، وعلكة هوليود، و تري أم، ومالــبورو، وفايرســتون، وروبنسون، وبلايتكس، وتامبكس، وبولارويد وكوكا كولا، هذه المنتجات أصبحت تشكل جزءاً من مشهد حياتنا اليومية دون أن يعلم الكثيرون من الأوروبيين مصدرها الحقيقي.

لقد وصلت الأهداف الأمريكية إلى مبتغاها، كتب أندريه كاسبي يقول:«تبدو الحقيقة أن القروض الأمريكية قد جعلت الاقتصاد الأوروبي أن يقف على قدميه، وجنبت الاقتصاد الأمريكي مشكلة غياب شركاء اقتصاديين له». في نهاية الستينات شعرت الولايات المتحدة بأن لديها كامل الحرية لتهيئة الساحة الغربية حسب مزاجها. أما الجانب السوفيتي فكان طليق اليدين وحصل على تطمينات منتظمة كما حدث أثناء «انقلاب براغ» في شباط 1948.

وإذا كان مخطط مارشال قد سمح للأمريكيين بوضع أوروبا الغربية على مسار التبعية والعبودية كان يجب أيضاً العمل على جعل ذلك طريقاً لا يمكن العودة منه. لذلك وضعوا شركاءهم على طريق ملتو بواسطة المعاهدات، فشجعت أمريكا على إقامة المؤتمرات التي تتناسب مع ذلك حيث تم توقيع الاتفاقيات المتعددة التي تربط شركاءهم دون أن يكلفها ذلك أي التزام. شهد عام 1948 ولادة عدة معاهدات منها: «الاتفاق العام للتعرفة والتجارة (الغات GATT) ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية O.C.D.E وكان اسمها المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي O.E.C.E وفي عام 1951 قامت المجموعة الأوروبية للفحم والفولاذ C.E.C.A كما قامت بعد ذلك مؤسسات أخرى وخاصة في إطار الأمم المتحدة.

كانت السنوات التي امتدت من نهاية الحرب حتى بداية الخمسينات لصالح الولايات المتحدة وأمام مخاوف رجل يدعى ديغول، كان هناك «فريق الأوروبيين» من جان مونييه إلى روبرت شومان مروراً بغاسبري وتشرشل فكانوا جميعاً مشغولين ببناء أوروبا تتعدى حدود القوميات، أوروبا فيدرالية مع التطابق الكلي مع رغبات الولايات المتحدة حتى قبل أن يعلنها أيزنهاور. ورغم ذلك اعترض وزير الخارجية البريطاني أرنست بيفن على اقتراح روبرت شومان في تموز 1948 «بإقامة مجلس أوروبي مؤلف من ممثلين للبرلمانات» طالما أنه كان يخشى وجود سلطة تنفيذية أوروبية حقيقية مستقلة عن واشنطن كالأمريكيين، وأدى الحل الوسط بين بيفن والآخرين في 28 كانون الثاني 1949 إلى القرار بإيجاد مجلس أوروبي وافتتحت أول جلساته في 8 آب 1949 في ستراسبورغ.

قبل ذلك بعام قامت معاهدة الغات GATT التي أوجدت لافشال كل محاولة للاقتصاد الأوروبي للسير على أي طريق مخالف للطريق الذي رسمه الأمريكيون، رسمياً كان هدف المؤسسة هو تسهيل توسيع التجارة الدولية عن

طـــريق تخفيض الرسوم الجمركية وإقامة نظام توزيع الحصص وعقد الاتفاقات ذات الأولويـــة وخفض حواجز التعرفة وتشريع المساعدات الوطنية للصادرات مـــع تعميم البند المطلق بالأمة الأكثر تفضيلاً(19).وقد أطلقت على المفاوضات تسمية جولات Rounds والتي جهدت على توجيه الدول الأعضاء نحو التبادل الحـــر الكامل الذي تحتاجه الولايات المتحدة. في كانون الأول عام 1993 قبلت أوروبـــا الصيغة النهائية للغات ووقعت عليها وهكذا وصلت العملية التي بدأت بمخطط مارشال إلى مبتغاها. كانت نتائج هذه الاتفاقات حساسة لعدة أسباب في القطاع الزراعي أجبر الأوروبيون ما بين سنوات 1991-1992 على تخفيض إنـــتاجهم مـــن الـــزيوت والحبوب في وقت زاد الأمريكيون من حصتهم المعدة للتصدير إلى السوق العالمي. وحصلوا بالتالي على شراء الأوروبيين منهم غذاء مواشـــيهم على حساب الإنتاج المحلي ودون أعباء الرسوم الجمركية. ورغم أن الأمريكيـــن يملكـــون 50% من السوق الدولي للقمح مقابل 20% لأوروبا فقد كانوا يريدون المزيد. وفي الوقت الذي كانوا يحملون فيه بقوة أثناء المفاوضات علـــى ما سموه «نظام الحماية الأوروبي» لم يتوانوا هم بإتباع مثل هذا النظام. فكانـــت مساعداتهم للزراعة تساوي ضعفي مساعدات الأوروبيين مقابل رواتب للمزارعيـــن الأمريكيـــن أعلـــى بكثير مما يحصل في أوروبا. وأتاحت قوانين محاربة الغش حسب التعريف المنحاز الأمريكي أن تفرض الرسوم على 97% من الواردات أما السوق الأوروبية كانت مقيدة عن طريق الحصص التي كانت مفروضـــة علـــيها. كمـــا أن الرغبة الأمريكية بالسيطرة الكاملة على الأسواق الغذائـــية العالمـــية تظهر جلية في المناورات التي لا تهدف إلى أكثر من محو القـــوة الأوروبـــية فـــي هـــذا المجال. وترفض الحكومة الأمريكية إزالة نظام المســـاعدات للتصـــدير وهـــو نظـــام مرعب في مجال التصدير للحبوب. أما الأوروبيون وبسبب عدم التفاهم فيما بينهم وقفوا عاجزين. ومنذ عام 1962 كان تصـــدير الـــزيوت كالصويا أو المنتجات البديلة للسوق الأوروبية المشتركة يتم دون أي رســـوم جمركـــية. في عام 1991 أضافت الولايات المتحدة لترسانتها القويـــة ســـبعين إجراءً خاصاً لتدعيم نظام الحياة الاقتصادية لديها. أوروبا هي حالـــياً مـــنكوبة. الزراعة في فرنسا خاضعة لنظام إراحة الأرض لذلك هي لا تستطيع في حال نشوء أزمة أن تمد شعبها على الصعيد الغذائي أكثر من ثلاث

---

(19) كـــان هـــناك اســـتثناء واحد تم قبوله وهو متعلق بالدول النامية التي منحت معاملة خاصة بالنسبة لصادراتها من المنتجات اليدوية وهذا ما كان يعرف بالنظام العام التفضيلي.

أسابيع كحد أقصى(20).لقد تطور الوضع قليلاً بشكل أرقام وليس بأرقام نسبية. في 1996-1997 تقدمت محاصيل الحبوب بالنسبة للمرحلة السابقة، لقد زاد إنتاج القمح والأرز وأيضاً الذرة والشعير والذرة البيضاء. ماتزال الولايات المتحدة تنتج 16.3% من الحبوب في العالم (10.7% من القمح) مقابل 5% لأوروبا (6.1%)، وتراجع المخزون الدولي للحبوب عام 1995 - 1996 بسبب ضعف مستوى التبادل الذي كان في أضعف مستوى له منذ عام 1984 ثم زاد عام 1996-1997. أما بالنسبة لإنتاج الرز فقد حقق أعلى مستوياته وخاصة الأرز الأسيوي أما بالمقارنة مع الاتحاد الأوروبي فقد بقي إنتاج الحبوب في أمريكا أعلى منه بكثير.

يريد الأمريكيون السيطرة وبكل الوسائل على السوق الدولية في المجالات التالية: الفولاذ - السيارات - الطيران المدني والعسكري - الكيمياء - الإلكترونيات - الآلات الصناعية - الآلات النصف آلية - النسيج. وفي كل مجال من هذه المجالات كانت الإعانات الأمريكية الحكومية التي في غالبها مقنعة تتمتع بأهمية خاصة. في الطيران مثلاً تبلغ قيمة الإعانة للأيرباص عشرين مليار دولار بينما الإعانة المعطاة من قبل الحكومة الأمريكية للبوينغ على شكل عقود عسكرية تتراوح بين 33-40 مليار دولار.

إن شبكة الإجراءات غير المشروعة التي تستخدمها الحكومة الأمريكية لقطع الطريق على المنافسين للولايات المتحدة تثير العجب: اللجوء إلى العقود العامة وإلى الحواجز الصحية وإلى نسبة الحصص وإلى توزيع الحصص وإلى الرسوم الجمركية المناسبة وإلى اتفاقات الحد الطوعي...إلخ، وخلال المحادثات الأخيرة التي أدت للاتفاق النهائي في كانون الأول 1993 كان الهدف الرسمي النهائي الذي اتبعه الأمريكيون بواسطة ماكي كانتور ممثل بيل كلينتون هو «تحسين وضع العاملات والعاملين الأمريكيين» ولكن ضمناً ظل أميناً لمشروع الهيمنة الدولية بواسطة التجارة.

المشروع الذي أدى مؤخراً للاندماج بين بوينغ ومكدونالد دوغلاس الذي

---

(21) ليس من الصعب تصور مثل هذه الأزمة ، فإن أصبح من الصعب الوصول للاحتياط البترولي في الشرق الأوسط تكون اللعبة قد تمت. إذا أن هذا الاحتياط مرتبط كلياً بالولايات المتحدة ولا تتوقف رغبة الهيمنة الأمريكية عند هذا الحد. ففي مجالات أخرى كالطيران أو الكيمياء أو الفولاذ ...إلخ فهذه الرغبة كما رأينا ظاهرة للعلن.

أعــلن عنه من كانون الأول 1996 والذي تم تدعيم خطره باندماج بين لوكهيد مــارتن ونورثــروب غرمن (بداية تموز 1997) يظهر بوضوح الطريقة التي يــلجأ إليهــا الأمــريكيون مــن أجل خدمة المنظمة العالمية للتجارة O.M.C لصالحهم من أجل تحطيم منافسيهم، فأمام تهديد لجنة بروكسل الأوروبية برفض الاندمــاج أجاب الرئيس كلينتون وكالمعتاد بالابتزاز حيث قال:«لا للرفض وإلا الحرب التجارية».

بــدت اللجــنة حتى نهاية تموز وكأنها تحافظ على موقفها الصامد ولكنها انــتهت إلى إعطــاء الضوء الأخضر لأن شركة بوينغ وافقت على التخلي عن تطــبيق عقودهــا مع الشركات الأمريكية لمدة عشر سنوات. ومرة أخرى كان الموقــف انــتحارياً عندما نعلم ما مدى النــزعة الدائمة لدى الأمريكيين بتفسير الاتفاقــات عــلى ضــوء مصالحهم وحدها. من جهة أخرى تجاوزت المكاسب الأمريكية ومن بعيد كل الحدود المتعارف عليها، فسيكون لاحتكار السوق الناتج عــن الاندمــاج وزناً هائلاً يصل إلى 70% من السوق الدولي للطيران المدني ومكانــاً مــرموقاً فــي مجال الطيران الحربي. عدا ذلك سوف يضع 48 مليار رأســمال عمل هذا إن لم ننس أن بوينغ سوف تنعم بمبالغ نقدية ستضخ من قبل البنــتاغون فــي الــبرامج العسكرية لمكدونالد دوغلاس وهذا ما هو إلا وسيلة ملــتوية لصــنع طائرات تجارية جديدة. وبغياب ردة فعل سريعة وحازمة من المجموعة الأوروبية لن نستطيع البقاء.

الحلف الأطلسي:

إذا كــانت اتفاقــات بريتون وودز (نظام النقد العالمي S.M.I – صندوق الــنقد الدولي F.M.I – البنك الدولي B.M) وخطة مارشال والاتفاقات الدولية مــثل اتفــاق الغــات GATT قــد سمحت للولايات المتحدة أن تبسط هيمنتها الاقتصادية على العالم إلا أننا لا نستطيع أن نهمل الجانب العسكري.

تعــود محاولــة إقامة نظام مراقبة عسكري على أوروبا إلى عام 1944 عــندما قرر حينها روزفلت بأن الجنرال ديغول لا يمثل السلطات الفرنسية وأنه مــن المناســب في فرنسا إقامة «حكومة عسكرية حليفة في الأراضي المحتلة AM GOT» بقيادة أمريكية.

إلا أن تحرك الجنرال ديغول السريع سمح لفرنسا أن تنجو من ذلك، ومنذ

ذلــك الزمـــن تصور ديغول قيام أوروبا قوية ذات سيادة قادرة على القيام بدور يساوي الدور الروسي والأمريكي. وفكر بإنشاء محور فرنسي بريطاني إلا أن إنكلــترا اعتبرت أن عبقريته سترميها في البحر مع بنت عمها الولايات المتحدة لذلك لم تستجب للغرض.

في عام 1946 – شاء الأوروبيون أم أبوا – وجدت الأمم الأوروبية نفسها أمـــام ضـــرورة تمتين الروابط العسكرية فيما بينها. وهكذا بين عامي 1947-1948 نـــاور الأمريكـــيون حـــتى وجدوا أنه من الضروري إنشاء حلف تكون الولايات المتحدة فيه وفي وقت واحد الكفيل والموجه. وعبر عن إرادتها بتوحيد مـــناطق الاحـــتلال الغربي الثلاث في برلين في منطقة واحدة مما أثار حذر ثم خـــوف الروس الذين كان لديهم ردة فعل بمحاصرة المدينة مما أقلق الأوروبيين فســـارعت إحـــدى عشـــرة دولة أوروبية في 4 نيسان 1994 إلى توقيع اتفاقية الأطلســـي ممـــا قـــادهم إلـــى منطق دولي ذي قطبين وهذا ما كانت الدولتان العظمتان تتمناه. اختارت منظمة معاهدة حلف الشمال الأطلسي مقر قيادتها في فونتنـــبلو فـــي فرنســـا وكانـــت مهمـــتها تنسيق الأهداف العسكرية والسياسية والاســـتراتيجية وبنـــية الحلف الذي كان في بدايته حلفاً عسكرياً كلاسيكياً وكل أعضائه متساويين.

وكـــان الهـــدف المعلـــن هـــو إيجـــاد وسائل دفاع مشتركة دون المساس بالاســـتقلال الوطني للدول الأعضاء، إلا أن الولايات المتحدة – التي كانت تقدم المســـاعدة العسكرية الضرورية وتمتلك احتكار السلاح النووي –فرضت نفسها من جراء ذلك الأمر الواقع كقائد وحيد للحلف.

وإن كـــان الهيكل الأساسي بسيطاً نسبياً وكان امتداده محدوداً إلا أنه مالبث تحـــت التأثير الأمريكي إلى أن اتجه نحو التدخل الكلي. ففي الوقت الذي أخاف التفجـــير الأول للقنبلة الذرية السوفيتية في 14 تموز 1949 الأوروبيين ودفعهم للخضـــوع ، إلا أن الحـــرب الكورية هي التي عجلت في ارتمائهم في حضن الحامـــي الأمريكـــي. أمـــا الولايات المتحدة فلم تبخل بتهويل التهديد السوفيتي والشيوعي ولا بوسائل الضغط على الحكومات الحليفة. وتم تسليم قيادة المنظمة للجـــنرال أيـــزنهاور وأعطي الإشراف بالكامل للضباط الأمريكيين، فاعترض ديغول ولكن حكومات الجمهورية الفرنسية الرابعة خضعت للأمر الواقع.

ورغـــم الاســـتغراب الظاهري الذي أبدته السلطات الأمريكية حين تدفقت قـــوات كوريا الشمالية على الجنوب إلا أنه كان يبدو أن السلطات الأمريكية لم

تكن غريبة بالكامل عن اندلاع العداء. فلم تنتظر واشنطن نهاية الحرب العالمية الـثانية كي تعد المخططات التي تستهدف كوريا وكان ذلك في يالطا حين اتفق الأمريكيون والسوفيت على إقامة خط فاصل من الشمال والجنوب عند مستوى الخـط 38، وفـي 1948-1949 سحب الجانبان جيوشهم دون أن ينسوا ترك مستشـارين وأسلحة وأنصاراً مهمتهم التأثير على السلطات عند الضرورة. في كوريـا الجـنوبية أقـام الديكتاتور سينغمان -المعادي للشيوعية والمنحاز كلياً لأمـريكا نظاماً - نظاماً دكتاتورياً برجوازياً قاسياً. إن تراجع ماك أرثور ودين اشيسـون عن تصريحاتهم ساهم بزرع بذور الشك، فقد صرحا علناً أن كوريا الجـنوبية لا تدخـل ضمن «إطار الدفاع» للولايات المتحدة بعد أن كانا قد أكدا لحكومـة الجنوب بأن تحتل موقع «الزبون» المفضل للولايات المتحدة، كما أن المفاجأة التي أبداها الأمريكيون عند اندلاع العداء كانت موضع الشك.

إن موضـع الجـنرال مـاك أرثر يعبر على المدى البعيد عن الطموحات الأمـريكية، فهـو لم يخف رغبته بغزو الصين وكان يتحرق لاستخدام السلاح النووي ضد الجار الكبير للكوريتين. فهل عبر بذلك عن تطرفه أم يا ترى تعدى بذلـك الحـدود المسموحة للكلام؟!! إذ تمت تصفيته في 11 نيسان 1951، ثم وقعت الهدنة في بنمنجوم Panmunjom في 27 تموز 1953 بعد أشهر طويلة من المفاوضات الصعبة مكرسة الوضع القائم، ليس تماماً لأن الجنوب المتذبذب قبل الصراع وجد نفسه عسكرياً واقتصادياً وسياسياً تحت القطاع الأمريكي.وفي الـزحمة استفاد الأمريكيون منها بتوقيع سلسلة من المعاهدات مثل المعاهدة مع اليابان في 18 أيلول 1951 على ظهر معاهدة بالسياق نفسه. يمكن إذن تلخيص الوضع الإجمالي على الشكل التالي:

1- الإسراع بالعودة إلى التسلح في العالم والسباق على التسلح مع الاتحاد السوفيتي.

2- نشـوء سابقة لأن الولايات المتحدة اختبرت بنجاح وداعة منظمة الأمم المتحدة.

3- تـأكيد القـوة العظمى والإمبريالية الأمريكية التي منحت نفسها حرية الـتحرك العسـكري والسياسـي والاقتصـادي والدبلوماسي والثقافي ولـلغرب الـذي اقتـنع بسهولة بشرعية «حملتهم الصليبية ضد الشر المطـلق» الشيوعية وضد العبودية التي وضعت بعض الشعوب نفسها فيها ولم تكن هذه الشعوب قد خضعت بعد للهيمنة الأمريكية.

4- تكريس يالطا لأنه من الآن وصاعداً بات من المعروف بأن مصير الدول التابعة لمنطقة النفوذ السوفيتي وخاصة بلاد شرق أوروبا هو مغاير لمصير الأمم الغربية.

أرست النتيجة الأولى أي انطلاق التسليح والجري المسعور للتسلح بقوة، الصرح العسكري والصناعي للولايات المتحدة وتشكل اللوبي الذي سيكون تأثيره حاسماً في الصراعات المستقبلية.وأصبحت مبيعات الأسلحة إحدى الموارد الأساسية لمصالح هذا البلد. أما السابقة التي أوجدتها حملة كوريا، فقد شكلت بروفة عامة لآفاق العمليات اللاحقة.

من جهة ثانية بررت الحملة الصليبية ضد الشيوعية التدخلات العسكرية وأكثر تعبيراً التدخل في فيتنام التي انتهت بتورط العم سام.

أخيراً لقد استمر المنطق الثنائي القطب حتى سقوط جدار برلين عام 1989.

إحدى التأثيرات الأكثر ديمومة والأكثر أهمية لحرب كوريا كانت تلك التي دفعت الحلف الأطلسي للتدخل بشؤون الآخرين على الدوام. وبعد أن تأكدت الولايات المتحدة من السيطرة العسكرية على أوروبا لم تتوقف عند هذا الحد ووقعت معاهدات مشابهة مع أستراليا ونيوزيلاند (حلف ANZUS 1951) الباكستان وتايلندا والفليبين (OTASE 1954) ومن جديد مع الباكستان وإيران وتركيا (CENTO 1959). وعندما اكتملت الشبكة، أصبحت الإدارة الأمريكية ترسل إلى رؤساء دول عرفوا بوداعتهم من طرف إلى آخر من المعمورة.

وقد بدت هذه الظاهرة بأنها ضرورية لوزير الخارجية جون فوستر دالاس الذي كان يخشى بأن يتملص جزء من دول العالم الثالث من المحاولة الأمريكية ببسط سيطرتها خاصة بعد نشوء دول عدم الانحياز(21) في مؤتمر باندونغ Bandung في نيسان 1955.

وفي أوروبا أنهى الحلف الأطلسي تدخله الكامل مع إعادة تسليح ألمانيا ودخولها الحلف عام 1955، مما وضع في الوقت نفسه حداً بعيد الأمد لتوحيد البلد وكانت مغامرة مجلس الدفاع للاتحاد الأوروبي هي المحرك الرئيسي لهذا القرار المستعجل بالتدخل من قبل الأمريكيين.

---

(21) تجمع من عدة دول (29) أعلنت الحياد وعدم انتمائها بالخضوع لهذا المعسكر أو ذاك بالرغم من أنها متعاطفة مع موسكو أكثر من واشنطن.

تعود المبادرة لرينيه بلفن René Pleven الذي كان يشغل منصب رئيس مجلس الوزراء الفرنسي والذي بعد الضجة الناتجة عن الرفض الفرنسي لإعادة تسلح ألمانيا عبر بتشجيع من جان مونيه عن الحاجة لتأمين وسائل دفاع ذو سيادة للدفاع عن أوروبا.

ومن البداية كان الأمريكيون ضد مشروع كهذا، فقد كان الحلف الأطلسي قد قدم كادراً كافياً للأمريكيين لكي يستطيعوا السيطرة عسكرياً على الأمم الأوروبية لذلك كان من غير الوارد أن تفكر هذه الأمم بالانفلات منه أو بالتفاهم فيما بينها على إيجاد نظام دفاعي لا تشارك فيه الولايات المتحدة التي استغلت الظرف لتقوم باستعراض لوقتها. فقد دعم أيزنهاور ووزير خارجيته فكرة دالاس بإيجاد جيش أوروبي بشرط أن يتبع للجنة «شيب SHAPE» أي يكون تحت قيادة عليا لجنرال أمريكي(22).وبالفعل جرت عدة جلسات نقاش للتصديق على إقامة مجلس الدفاع الأوروبي (1953-1954) تحت المظلة الأمريكية وكاد أن يتم توقيع الاتفاق حوله لولا المعارضة المستغربة قليلاً من بريطانيا العظمى التي كانت ضد أي مشاركة في جيش أوروبي والمعارضة الأساسية الفرنسية وخاصةً من قبل التجمع الديغولي (التجمع من أجل فرنسا RPF). وفي 30 آب 1954 وبعد رفضه في تصويت للجمعية الوطنية سقط مشروع مجلس الدفاع الأوروبي.

أستدرك الأمريكيون وأنصارهم من دول أوروبية ذلك وقدموا سلاحاً بديلاً. لقد تعرضت فلسفة الحلف الأطلسي لمخالفة حقيقية عندما تعرض مبدآن أساسيان لها للانتهاك وهما المساواة بين كل الأعضاء وعدم وجود مكان دائم لها. الأول كان وراءه الأمريكيون وهيمنة الولايات المتحدة والثاني عن طريق إقامة المكان الدائم بشكل فعلي. وساهمت الموافقة الألمانية كبلد كامل العضوية ودعم دالاس لها على تعزيز التماسك العام داخل البنية التي يتحكم بها البيت الأبيض ولكن في عام 1956 كان هناك مخالفة ثانية وهي حاسمة.

---

(22) كان دالاس وراء مشروع شخصي عمل على تنفيذه بعناد. لقد كان إلى جانب الرئيس ويلسون كمستشار في مؤتمر فرساي وكان نشيطاً في عدة مؤتمرات دولية لدعم نشر الديانة المسيحية وكان يؤمن بشكل قوي بالدور الإلهي للأمة الأمريكية فقد كان على اقتناع بأن مهمة بلاده هي قيادة العالم، ومن خلال الحرب الكونية الثانية كان المدافع عن فكرة الحكومة الكونية حيث تحتل فيها الولايات المتحدة المركز الملكي. وبسبب كراهيته للشيوعية قطع آلاف الكيلومترات لإقناع الحكومات الغربية بالخطر السوفيتي والصيني وبضرورة الاتحاد مع أمريكا.

فـــي الخامس من أيار أوصى مجلس المنظمة بعدد من الإجراءات الهادفة إلـــى تطويـــر التعاون بين الدول الأعضاء في «مجالات ليست عسكرية» والى زيـــادة الوحـــدة لـــــ «المجموعة الأطلسية». هذه الكلمة الأخيرة تدل على أن الولايات المتحدة ترى أنها توصلت إلى اعتبار دول أوروبا الغربية موجودة في باحـــة خلفـــية جديـــدة تتولى هي حراستها. وخلال الأشهر الضرورية لإعداد مشروع القرار (من أيار إلى كانون الأول 1956) بقيت وسائل الإعلام صامته، وأثناء هذه العملية الموغلة في الديمقراطية حيث تم تغيير فلسفة وأهداف الحلف الأطلسي غيبت الشعوب بشكل مقصود. في 13 كانون الأول تمت الموافقة على الـــتقرير المـــؤرخ في 5 أيار والذي يوصي بإجراءات جديدة واعتبر «كوثيقة أساسية للحلف الأطلسي».

وكانـــت النتائج ذات أثر كبير فقد تحول الحلف من حلف محلي موجه ضد عـــدو معروف ومتفق عليه إلى مجموعة مهمتها أن تقوم «بمهام أخرى ليست دفاعـــية». واتســـعت صلاحياتها إلى السياسة وإلى الاقتصاد وإلى الثقافة وإلى الإعـــلام. ولم يكن هناك شك في إقامتها الدائمة وفي تفوقها وبالتالي في عولمة دورهـــا. واتسعت منطقة تطبيق قراراتها فطالت الكون بأسره وكل مكان حيث يمكن أن تمس مصالح أعضائها وشكلت صيغة مبهمة لتبرير أي تدخل.

لـــم يفاجـــأ أحـــد مـــن أن الجنرال ديغول نظر إلى هذا التطور بعين غير راضـــية، الـــبداية كانـــت عندما عرف أثناء انعقاد مجلس الدفاع الأوروبي أن أمريكا تحاول فرض سيطرتها العسكرية على أوروبا فاقترح على أيزنهاور أن يـــتم تشكيل قيادة للحلف الأطلسي مؤلفة من ثلاثة أعضاء حيث يتمتع كل عضو بشراكه متساوية مع الآخرين فرفض بالطبع أيزنهاور هذا الاقتراح.

عـــند عودة الجنرال ديغول لشؤون الدولة حاول كبح ما يمكن من السيطرة الأمريكـــية، فـــي 29 حزيـــران 1958 جاء رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكملان إلى باريس وكان همه أن يرضي أصدقاءه الأمريكيين الذين أزعجتهم طـــريقة تطـــور الســـوق الأوروبية المشتركة فطلب إلى ديغول أن يتخلى عن الأوروبيين بتركه الاتحاد الذي اعتبره شكلاً جديداً من أشكال «الحظر القاري». فقـــال ديغـــول «لا». واســـتنتج أن علـــى أوروبا أن تتجاوز المحور الفرنسي البريطاني الذي كان عمودها الفقري واتجه صوب ألمانيا وتم كل شيء بالغالب أثـــناء لقائـــه بالمستشار الألماني أدينوار Adenauerفي 14 أيلول 1958 في كولومبـــيا فولدت يومها فكرة أوروبا كسيدة حقيقة لمصيرها قادرة على مجابهة

فكرة الاستعلاء المتعددة الجنسية.

لـم يستسلم الأمريكيون بسهولة، ومنذ بداية الستينات سارعوا لزيادة تبعيته لهـم وتمركـزت في قلب هذه المسألة الاستراتيجية النووية.وباعتبارها ضماناً لـتفوقها العسـكري ولإشرافها على الجيوش الغربية الأوروبية شكلت السيطرة الـنووية للولايـات المتحدة الميدان حيث لم تكن تنوي أن تتقاسمه مع أحد ولم يسـمح لأي مراقـب أوروبي من الحلف الأطلسي بحضور تفجير نووي حتى شـهر أيـار 1957 في يوكا فلاتس (نيفادا). أما التجربة الأولى للقنبلة النووية لبريطانـيا – الحليفة المفضلة – في 3 تشرين الأول 1952 ومرة أخرى بدا أنه لـيس فقط لا يستطيع أحد تقرير أي شيء دون موافقة الولايات المتحدة بل إنه حـتى الـتجربة التـي جـرت بالقـرب مـن أوسـتراليا في جزيرة مونتبللو Montebello لأن الأمريكيـين رفضـوا إعارة مكان لبريطانيا العظمى، وما لبثـت المسألة النووية أن شكلت مركز اهتمام الإدارة الديغولية للحصول لفرنسا إن لم يكن لأوروبا على استقلاليتها التي تعيقها بنية الحلف الأطلسي نفسها. ولم يخفـف مجـيء كيندي إلى البيت الأبيض من حدة التوجه الأمريكي، ففي 14 كانون الثاني 1961 وفي مواجهة عناد سلطات واشنطن التي صممت بالاحتفاظ لنفسـها فقط حق القدرة على إشعال الحرب الذرية أكد ديغول نيته «ببناء وحتى اسـتخدام عـند الضـرورة قوتنا الذرية بأنفسنا». إلا أن الظرف الراهن لم يكن مؤاتـياً، فقضـية جدار برلين المتمثلة بقضية كوبا جعلا من عام 1962 عاماً للمخاطـر الكامـنة. ومـع تأكيد دعمه لسياسة كيندي في وجه السوفيت إلا أن الجنرال ديغول حافظ بصرامة على موقفه بما يخص الاستقلال النووي. وقد تم التعبير عن المقاومة الأمريكية في العام السابق عندما جدد كيندي ووزير دفاعه روبرت مكنمارا مطلبهم بأن تكون في يد الولايات المتحدة لوحدها سلطة القرار فـي هـذا المجال.أيمكن أن نرى بذلك ردة فعل تعبر عن تحسسهم من الجنرال ديغـول بعـد أن نصحهم بعـدم الـتورط في فيتنام؟ إلا أن أمام قرار فرنسا بالحصـول على قوة ردع لنفسها استخدمت ولان كل ما لديها لهذا الاستحقاق، ورفضت أن ترسل للسلطات الفرنسية البلاتينيوم اللازم وبالرغم من أن العملية قـد انطلقت راحوا بعد ذلك يسخرون من الطموحات الفرنسية ويتجاهلون نجاح مهندسيها وعلمائها.

وعقـب التجربة النووية التي جرت في ريجان في الجزائر في 13 شباط 1960 تمـثل رد الأمريكيـين باتفـاق موسكو ومن حينها تتابعت المحاولات

المختــلفة لعرقــلة الديغولية ولوضع أوروبا في خانة التحالفات. في ذكرى يوم الاســتقلال فــي 4 تموز 1962 اقترح الرئيس كيندي في خطابه بأن يقوم بين أوروبــا والولايــات المتحدة اتحاد أسماه بعبارة بالشراكة الأطلسية.وأقترح من جهــة أخــرى إيجاد اتحاد أوروبي حسب النموذج الأمريكي (الولايات المتحدة الأوروبيــة) ومــن جهــة أخرى إيجاد مساواة كاملة بالحقوق وبالواجبات بين الكتلتين الكبيرتين الأمريكية والأوروبية فيما يتعلق فقط بالسلاح النووي.

وبمــا لا يخــلو مــن الاستعلاء عرض الأمريكيون أنفسهم لتأمين الأمن الأوروبــي في هذا المجال وأن يكون لهم بمفردهم حق استخدام مفتاح وتصنيع الســلاح النووي وطبعاً هم مجبورون أن يتدخلوا عند كل هجوم ضد أي بلد من الحــلف مــن أجل الدفاع عنه. ومن جهة أخرى ووفاءً لخياراتهم منذ الاستقلال وخاصــة مــنذ نظرية مونرو طالب الأمريكيون الكونجرس بواسطة كيندي أن يصــوت على قانون التوسع التجاري، هذه الوثيقة التي كان المحيط القريب من كيندي يعتبرها كإتفاقية الغات GATT والتي كانت تعتبر بأنها ستكون الممهدة لها، فهي كانت تنوي إزالة الحواجز الجمركية الأمريكية بشرط أن ترفع الدول الأوروبيــة حواجــزها أيضاً: وهذا ما هو إلا شكل من أشكال الصفقة الخادعة بــنظر ترســانة القوانيــن والأنظمة التي تسمح للولايات المتحدة استخدام نظام الحماية المقنعة.

جــاءت أزمة الصواريخ في كوبا في تشرين الأول 1962 في وقتها لكي تذكر العالم القلق بأن دور الولايات المتحدة كحامي لأوروبا يبدو ضرورياً اكثر فأكثر وأن الوقت الآن لا يسمح بأن تبدي – كما تفعل فرنسا – ميولاً استقلالية. إلا أن الجــنرال ديغــول انبرى في 14 كانون الثاني 1963 وصرح علناً بأن فرنسا قد قررت أن تقود الحملة بمفردها.

فــي 7 آذار 1966 أعلن بأن فرنسا قررت الانسحاب من الحلف الأطلسي وأن على الأمريكيين سحب قاعدتهم ومستودعات عتادهم وفرقهم العسكرية من أراضيها(23). وبعد عدة سنوات حاول هنري كيسنجر التقليل من قرار الجنرال

---

(23) *وهــنا أيضاً برز الاستعلاء الأمريكي بشكل فاضح: استعراضات منظمة للفرق العسكرية القريبة من المدن بكامل ثيابهم ومعداتهم الموسيقية وأبواقهم وطبولهم لإعطاء صورة عن جيش منتصر ولا يمكن هزيمتــه. وفي كــل القواعــد هناك مخازن وصيدليات متخصصة تبيع فقط المنتجات المستوردة من الولايــات المتحدة والتي كانت تعلن بأنها الأفضل في العالم وتقوم بمنافسة غير شريفة للمتاجر المحلية. احــتلال الأراضــي كــان مؤثراً 14 قاعدة – 40 مستودعاً للعتاد – خط نفطي – 260000*
←

ديغول فأشار إلى أن قرار الخروج من الناتو لم يكن قراراً بالتخلي عن الحلف إذ أن خطوة الجنرال لم تكن إلا رمزية. إلا أن فرنسا تابعت تصميمها ليكون لها سياسة تميزها عن سياسة واشنطن فعارض ديغول هيمنة الدولار على نظام النقد العالمي وشجع على اعتماد عملة جيدة، وفي 20 حزيران 1966 ذهب إلى الاتحاد السوفيتي بزيارة ودية. وفي حزيران 1967 وبعد حرب إسرائيل الخاطفة (مدعومة من الأمريكيين) ضد الدول العربية أصدرت فرنسا حظراً على الطائرات المتعاقد عليها والمدفوعة الثمن من الدولة العبرية. أما فيما يتعلق بخطاب ديغول في كندا وجملته الشهيرة «عاشت الكويبك حرة» فقد أثار غيظ أمريكا. لكن التدخل الأكثر حسماً هو خطاب بنوم بن في الأول من أيلول عام 1966 في خضم حرب فيتنام حيث أكد بأنه بالنسبة لفرنسا هذا الصراع الذي تقوده قوة أتت «من الجانب الآخر للمحيط الهادي» لا يمكن أن يكون له «حلاً عسكرياً».

وتحرك كل اللوبي المؤيد لأمريكا في كل مكان يوم تم توقيع المعاهدة بين فرنسا وألمانيا فقامت الكتلة المؤيدة لأمريكا في البندستاغ (البرلمان الألماني) بحملة صارخة وحققت نجاحاً لدى التصديق على الوثيقة بإضافة مقدمة اعتبرت لصالح الولايات المتحدة وصفعة للجنرال ديغول. وبعد فترة وجيزة استخدم المستشار الألماني لودفيغ أرهرد الذي نشأ في الولايات المتحدة ذلك لكي يميل كفة الميزان بشكل ملحوظ على حساب أوروبا. إلا أن ديغول تابع انطلاقته وكرر في ستراسبورغ في عام 1966 بأن الحلف الألماني – الفرنسي أساسي من أجل أوروبا مستقلة بشرط أن يكون لديها التصميم بأن لا تضع «حياتها» بين يدي قوة «صديقة لا شك» ولكن المصير والتاريخ جعلتها تنتمي لعالم مغاير لأوروبا. بين أعوام 1964-1966 حاول ديغول جاهداً شق طريق ثالث بين الكتلتين واتجه إلى الصين وأوروبا الشرقية وآسيا. وفي 10 آب 1967 تكلم في أحد خطاباته عن «الناسكين في محراب الطاعة الأطلسية» ورفض من جانبه أن يكون «الأداة الفرنسية المساعدة» لصالح هذا الطرف أو ذاك من القوتين العظمتين.

عسكري – 60000 مدني، وإن أخذنا بعين الاعتبار آراء السكان المحليين كانت تصرفات الأفراد شبيهة بما يفعله الأمريكيون في كل مكان «مثيرون للصخب ووقحون ومتعجرفون وغير محترمون ومتسلطون»، وهناك الكثير من مثل هذه العبارات لدى السكان الذين عانوا منهم لاستعمالها في وصفهم.

ذهب الجنرال وأخذت الأشياء تعود شيئاً فشيئاً إلى ما كانت عليه وبسبب خيانة «الديغوليين» انتهى التوازن لصالح الطروحات الأمريكية. وعادت الهجمة كما سبق وبشكل أشد، وفي خطابه في 23 نيسان 1973 أطلق هنري كيسنجر نداءاً لصالح «أطلسية جديدة» تضم أوروبا والولايات المتحدة واليابان، فقد اقترح أن تعمل هذه الدول بشكل تستطيع أن تعالج بمفردها القضايا الدولية، وقد جدد الرئيس ريغان هذا النداء بعد عشر سنوات. بالواقع إنه بعد التعديل الذي جرى عام 1956 رغم المعارضة الديغولية تعززت عولمة الحلف الأطلسي مع مرور السنين وكان لها تأثيران كبيران بالنسبة للدول الأوروبية الأعضاء.

الأول هو ضمان سيطرة الولايات المتحدة على الحلف، فقد وجدت هيئات الأركان والجيوش الأوروبية سجينة شبكة من هيئات أركان دولية رؤوسها الأساسية كلها أمريكيون. ثم امتدت صلاحيات الحلف فطالت مجالات أخرى (سياسية – اقتصادية – ثقافية) مما أعطى الأمريكيين مميزات حاسمة في كل مجال منها. على الصعيد الاقتصادي كان بوسعهم أن يمارسوا على الأوروبيين ابتزازاً دائماً مستخدمين العوائق أو التسهيلات النقدية والتجارية وعند الضرورة كانوا يهددون بتخفيض حصتهم في توزيع الأعباء والتكاليف كما حصل برهاناً على ذلك خلال لقاء نيكسون وبوم بيرو في ريكيافيك في حزيران 1973. في المجال السياسي إذا كانت الخيارات الاستراتيجية للحلف قد أعدت نظرياً من قبل جميع الدول الأعضاء إلا أنه في الواقع ما كانت هذه الدول تقوم إلا باعتماد القرارات المتخذة في البيت الأبيض.

أما فيما يخص الجانب العسكري بالذات لم يكن هناك أي أمر مما يحضر ويعتمد إلا وتكون منابعه ليس في أي مكان آخر سوى البنتاغون. وتأكيداً لذلك لسنا بحاجة أكثر من النظر إلى طريقة توزيع المهام داخل الحلف الأطلسي: استأثرت أوروبا بالجهود الجوية الأرضية أما الاحتكار النووي فقد كان من حصة الولايات المتحدة إضافة إلى البارجات الحربية الثقيلة والقيادة العليا. وهكذا حصلت عملية الاستلاب التي كان ديغول قد توقعها.

لقد حاولت فرنسا أن تقوم هنا وهناك بعملية تمرد ولكن دون نجاح، فلقد عملت الآلية للحلف الأطلسي بذكاء لإفشال السوق الأوروبية المشتركة التي حتى استسلام بليز هوس وأخيراً الغات في بداية 1994 وعملاً بمادة التفضيل المعمول بها في السوق ونجاح عمليات التصدير كانت قد ضايقت الأمريكيين.

وعـند قيـام السـوق خلافـاً لإرادتهـم أجاب الأمريكيون مباشرة بتحريض البريطانيين لإنشاء منطقة منافسة للتبادل الحر عام 1959 (AELE) ولكنها لم تكن ذات فعالية.

وشـكل الغـات(♦) المحاولـة الثانية، لقد مارست الولايات المتحدة دائماً التكـتيك الـذي شـكل أساس قيام الحلف الأطلسي ألا وهو قاعدة: فرق تسد. وباعتبارها سيدة في فن الشروع بالمناقشات المنفصلة مع الدول الأعضاء سواء كـان ذلـك على مستوى الحلف أو دول الاتحاد، لذلك كانت تثير الأحقاد وتنفخ على الجمر وتوقظ الغيرة وتستغل الخلافات الحساسة بين الدول الأوروبية. في قمـة أوتـاوا في تموز عام 1981 اعترضت فرنسا على سيطرة واشنطن على الحـلف الأطلسـي وإعـادة الكرة في تشرين الأول ثم في كانون الأول 1982 وأيضاً خلال دورة أنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية في أيار 1983 ولم تغير المقترحات الفرنسية الواقع وخضع الجميع أمام الرفض الأمريكي المستمر.

وفيمـا يخـص الحـلف الأطلسي تمسكت الولايات المتحدة بمواقفها لعام 1956 وبالوثيقـة الموقعة وخاصة المادة 17 التي تضع أوروبا تحت السيطرة عـلى المـدى الطويـل وتؤكد بأنه «يجب وجود عملية مديدة على المستوى القومـي مـن أجل تكوين العادات والتقاليد والقياس وهذه العملية لن تكون في أحسن الأحوال إلا بطيئة ومتدرجة».

بعـد المنعطف الكبير للتسعينات بدا من الطبيعي طرح مسألة سبب وجود المـنظمة وأهدافهـا، ومنذ عام 1991 أصبح من الواضح بأن الولايات المتحدة ليـس لديهـا أي نية بالتنازل عن وصايتها لأحد بل تريد على العكس أن تعزز بُناها وتمتين أوصالها، وظهر أن ذلك سلاح ذو حدين حيث كان على السلطات الأمـريكية لأسـباب ماليـة بشـكل خاص أن تخفض من عدد قواتها المسلحة وتحافظ في الوقت ذاته على تفوقها.

لـم تترك التصريحات التي صدرت منذ العام 1991 أي مجال للشك حول هـذا الهـدف الأخيـر، أمـا الـتطورات الأخيرة للوضع الجغرافي السياسي (جيوبوليـتك) الدولي لم ينظر إليه كما يجب حول تبديل أهداف الحلف الأطلسي «ولـم يؤثر لا على غرض ولا على وظائفه الأمنية» التي كان قد حددها، فهذه الأخيرة تؤمن «ديمومة مستمرة» وتقدم «فرصاً جديدة لإدراج إستراتيجيتها في

(♦) الغات: (le GATT): الاتفاق العام على التعرفات الجمركية والتجارة.

إطار من المفهوم العريض للأمن». الوقت كان أكثر فأكثر لصالح العولمة.

- امتداد جغرافي (اتساع منطقة عمل الحلف).
- امتداد استراتيجي (اتساع الصلاحيات).
- امتداد هيكلي (تجديد البنى العسكرية).

الاقتراحات الأمريكية الأخيرة لم تلق من قبل الأوروبيين أية معارضة وليس هذا فحسب بل طرحت الولايات المتحدة أيضاً فكرة توسع الحلف الأطلسي لتشمل دول أوروبا الشرقية (كانون الثاني 1994). فقد وصف البيان الختامي للاجتماع الوزاري لمجلس شمال الأطلسي في 17 كانون الأول 1992 المنظمة «كأحد الأدوات الضرورية من أجل توجيه التغيير في مجمل أوروبا» تعلق الأمر كما أقرت تقارير جيرميا وولفوويتز (وهذا ما سنتكلم عنه لا حقاً) بإبعاد وبأي ثمن ظهور قوة عظمى حالية.

ولذلك تم التخطيط لإنشاء «قوة رد سريع» تسمح بُناها بمهارة عالية على صعيد التدخل توافق الحلف الأطلسي نفسه. وتشكل هذه القوة من عدة قوات متعددة الجنسيات وهكذا انتفت فكرة إنشاء قوة دفاعية أوروبية ذات سيادة حقيقة ومستقلة.

وقد دفعت التغييرات الأساسية التي حدثت منذ انهيار المعسكر الشيوعي الأمريكيين إلى متابعة تفوقهم وتشكلت لديهم أولويتان هما: العمل على إقامة الانسجام بين الجهد الدفاعي والواقع القائم والمحافظة على تفوقهم السياسي والعسكري في العالم.

وباعتبار أن الحرب الباردة قد انتهت كان من المناسب إذاً المحافظة على عدم التوازن من أجل منع أية قوة منافسة من أن ترى النور، والتقريران الذان قُدّما إلى الرئيس بوش من قبل البنتاغون عام 1992: تقرير بول ولفووتيز وتقرير الأميرال جيرميا كانا واضحين بشكل كامل فيما يخص الهدف المنشود ألا وهو بسط هيمنة الولايات المتحدة على كامل الكرة الأرضية بواسطة كل الوسائل العسكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية الضرورية(24). والاستنتاج

---

(24) ضم أعضاء مرموقين من الكونجرس صوتهم إلى هؤلاء الذين أعدوا التقريرين أمثال السيناتور سام نان وليزاسبان رئيس لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب والذي أصبح فيما بعد وزيراً للدفاع.

العـــام للـــتقريرين يدعـــو الجيش الأمريكي أن يحتوي من الآن وصاعداً على مايلي:

1- قـــوة نوويـــة استراتيجية قادرة على التدخل ضد كل منافس يملك قوة شبيهة.

2- قـــوة في المحيط الهادي تتمركز في اليابان وفي كوريا الجنوبية قادرة على مواجهة القوى النووية والتقليدية الصينية وعلى تنفيذ مهام مراقبة الشرق الأقصى لروسيا وكوريا الشمالية.

3- قوة في المحيط الأطلسي تتمركز في قواعد نورفولك.

4- قـــوة طـــوارئ جاهزة للتدخل السريع في كل مكان حيث تفرض ذلك مصلحة الولايات المتحدة.

لقـــد تـــم تبـــني الـــتوجيهات الـــتي أوصت بها التقارير وبعض أعضاء الكونجـــرس بواســـطة الرئيس كلينتون الذي أعاد تنظيم الحلف الأطلسي بإنشاء قـــوة للتدخل السريع من جهة قوامها 100 ألف جندي أمريكي ومن جهة أخرى قـــوة أساسية للدفاع مؤلفة من سبع وحدات مدرعة قوامها 500 ألف رجل من الجيوش الأوروبية والتعزيزات الأمريكية (الاحتياط).

وتم تعزيز سلطة القادة العليا للحلف في أوروبا فأمسك الضباط الأمريكيون وعلى جميع المستويات بالمراكز المفصلية للحافز ويكفي أن نذكر حرب الخليج ثـــم حمـــلة الصومال لكي نبرهن على أهمية النفوذ السياسي الأمريكي وكيف كانت رغبات واشنطن بالتدخل تترجم وكأنها أوامر.

إن موضوع التدخل ضد العراق هو ذو مغزى بما يتعلق بالولايات المتحدة الـــتي بـــدت كقوة عالمية وحيدة وسيدة الحلف الأطلسي. تعالوا اليوم لنعود لهذا التدخل ولنرى باختصار ما حدث.

قـــلة هـــم حتى اليوم من فهموا بأن تدخل قوة متعددة الجنسيات في حرب الخـــليج ارتـــدت لباساً مخالفاً كلياً لعملية شرطية لنصرة الحق. لقد انقسم الرأي العام الأوروبي حينها بين أقلية ضئيلة من أولئك الذين بذكاء أدانوا التدخل ومن أكثرية ساحقة التي جذبتها حملة الرئيس بوش الدعائية فرأت بذلك حملة صليبية

جديدة من الغرب العادل ضد صدام حسين الذي انقلب شيطاناً[25].

الأهـــداف الحقيقة للحرب كانت أولاً اقتصادية ثم أصبحت جيواستراتيجية، هـــذا ما كشف عنه أحد أعضاء الدائرة المالية الدولية أتش. ثيمي H. Thieme ممـــثل البـــنك الألمـــاني في نيويورك في Beleggers Almanak فقال «لقد اكتشـــفنا مؤخراً حقولاً بترولية في المملكة العربية السعودية هي أكبر بكثير من الـــتي يـــتم استثمارها»، الأمر لا يحتاج إذاً لعبقري من أجل فهم الرهان إلا إذا وضع صدام حسين أو أحد المتطرفين الدينيين يده على هذه الحقول.

لذلـــك كـــانت ردة فعـــل الولايات المتحدة قاسية لهذه الدرجة، لقد أرادت الحفـــاظ عـــلى هـــذه الحقـــول من أجل العالم الحر وتمنع التفريط به لمصلحة المتعصـــبين لأنّ للشـــركات الليـــبرالية الغربية الحق أكثر منهم بالمطالبة بهذه الحقول حسب راي الأمريكيين.

وليس مستغرباً أن نعلم أنه بين 1953 و1990 كان لكل وزراء الخارجية الأمـــريكيين علاقـــة مباشرة أو غير مباشرة بالشركات البترولية الكبرى(26). وليس مستغرباً على ضوء ذلك أن يكون الرهان على البترول حاسماً في عملية اتخاذ القرار الأمريكي.

قـــبل كل شيء علينا أن ننظر للهجوم المعادي للعراق بمنظار أوسع وهو القـــتال من أجل الحفاظ على حق الولاية الغربية وخاصة الأمريكية على المادة الأولية الحيوية ألا وهي البترول.

فمـــن الوسائل الأكثر فاعلية في سلب العالم الثالث هي هذه السيطرة على

---

(25) بعض الشخصيات الذكية وخاصة في فرنسا أعلنت عن معارضتها ونذكر من هذه الشخصيات جان بيار شوفمنان – ميشال جوبر – لويس بوولز – أندريه جيرو.

(26) كـــان جـــون فوستر دالاس مستشاراً قانونياً لشركة Standard Oil ومدير مؤسســة روكفلر. كريســـتان هرتر (1959-1961) كان مرتبطاً بروكفلر بواسطة مؤسسة السلام العالمي التي كان يديـــرها راسك (1961-1969). أما هنري كيسنجر (1973-1977) فكان مقرراً في مجلس العلاقات الخارجية لمؤسسة روكفلر وأخوته. أما سايروس فانس (1977-1980) كان إداري ثم مديـــر لروكفلر وعضو في المؤسسة الثلاثية. من عام 1981 حتى عام 1982 كان ألكسندر هيغ مدير مصرف منهاتن. وكان جورج شولتز (1982-1989) مدير شركة برشتل المرتبطة بشفرن وجولف وايل، أما جيمس بيكر وزير خارجية جورج بوش فكان يمثل شركة من القضاة في هيوستن لخدمة الشركات البترولية الكبرى وكانت عائلته تملك حصصاً مهمة في شركة أكسون – موبيل – ستندر وايل... وأخريات.

المــواد الأولــية ولقــد أمنــت الحكومة الأمريكية لمجموعة اللوبي مصالحها الواسعة، وذلك كان إما بغرض التعرفة التي تقررها الشركات المتعددة الجنسية أو بممارســة ضغوط غير مباشرة (انخفاض أو ارتفاع مصطنع لأسعار المواد الأولية في بورصة شيكاغو).

وصــف الأســتاذ الجامعــي عــالم اللســانيات نعوم شومسكي Noam Chomsky بشكل رائع هذه الاستراتيجية للولايات المتحدة فقال:«البترول الذي هــو المورد الطبيعي الأساسي للاقتصاد الأمريكي ولكنه موجود في أراضي لا يملكها الأمريكيون يجب أن تبقى الأراضي إذن تحت تصرف الولايات المتحدة لذلــك هي بالتأكيد مستعدة أن تقوم بالحرب من أجل أن تشتري البترول الذي لا تملكه وبالسعر الذي تفرضه».

إن ارتفــاع سعر برميل النفط عند مطلع السبعينيات هو الدليل على ذلك، فــبعد خفــض قيمة الدولار في 12 شباط 1973 كان على شركات البترول أن تعــوض هذا الانخفاض من أسعار النفط ولكنها رفضت أن تخضع لهذا الطلب وفي الأول من حزيران اتفقت منظمة الدول المصدرة للنفط OPEC على رفع ســعر النفط بنسبة 11.9%، وفي الأول من أيلول قررت ليبيا وهذا حق لها أن تؤمــم الشــركات الكــبرى للبترول، واتخذت الدول العربية في الكويت قراراً بمــراجعة أسعار البترول ورفعها بنسبة مهمة. وفي السادس من تشرين قامت ســوريا ومصــر بهجــوم عام ضد إسرائيل وغداة الحرب أمم العراق أكسون Exxon وموبــيل للــزيوت وهي شركات أمريكية موجودة في العراق. فردت بفــرض حظــر ضد العراق ورفضت فرنسا الاشتراك فيه. وأمام تبدل مواقف بعــض الــدول العربــية التــي أصبحت حليفة للولايات المتحدة (مصر) وأمام عدوانــية إســرائيل اخــتار العــراق الهروب إلى الأمام فوصل إلى شكل من الانعزالــية، فــي هذا الوقت قادت حاجة الولايات المتحدة المتزايدة لنفط الخليج دفعهــا إلى أن تسيطر بصرامة على المنطقة. فكانت السعودية والكويت وكذلك الإمــارات وقطر تخضع لرغبة واشنطن وفي حين كانت أسعار البترول تهبط كانوا مجبورين على استثمار البترودولار من ربحهم في الاقتصاد الغربي (مما يمــثل حوالــي 93% مــن الاســتثمارات لدول الخليج) وخاصة في الاقتصاد الأمريكي. وفي نهاية الثمانينات عاد البترول لسعره عام 1973 وكان على دول مــنظمة الــدول المصدرة للنفط OPEP أن تعوض ذلك من التصدير الذي بلغ عــام 1986 15% مــن دخلها القومي مقابل 4% من الخسارة من الدخل من

الاستيراد لدول الغرب وكان ذلك في قلب الأزمة البترولية.

وكما كان يحدث في كل تدخل عسكري أمريكي أعلنت البيانات الرسمية الدفاع عن «المصالح الحيوية للولايات المتحدة»، في 7 كانون الثاني 1991 أوضح الرئيس الأمريكي السابق ريتشارد نيكسون في جريدة نيويورك تايمز بأنه« نحن لا نذهب إلى هناك للدفاع عن الديمقراطية لأن الكويت ليست بلداً ديمقراطياً، ولا يوجد بلد ديمقراطي في المنطقة، (...) ونحن لا نذهب إلى هناك للدفاع عن الشرعية الدولية، نحن ذاهبون إلى هناك وعلينا أن نفعل ذلك لأننا لا نسمح لأحد أن يمس مصالحنا الحيوية».

الهدف فيما بعد كان جيوسياسي فالعراق الذي أمم الشركات الأمريكية وعزز وضعه العسكري والسياسي من خلال حربه ضد إيران كان يشكل تهديداً بأن يصبح قوة عظمى إقليمية. وأمام بروز النظام العالمي الجديد الذي رسمته واشنطن بدا استقلال العراق أمراً لا يمكن تحمله، وبما أن الولايات المتحدة كانت منهمكة بإعادة النظام الاستعماري الذي كان في السابق تحت سيطرة بريطانيا وجدت نفسها في مجابهة أمة قادرة على خلط الأوراق. ففي الوقت كانت أغلب دول المنطقة قبلت بهيمنة واشنطن ارتكب العراق غلطة امتلاك وسائل استقلاله وخاصة الاقتصادي والسياسي الشيء الذي اعتبر غير مقبول. إضافة وحسب تصريحات مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية C.I.A وليم كاسي كما أنه لم يكن من الممكن ترك نيكاراغوا - كما حدث في كوبا 1959- أن تقيم نظاماً يمكن له أن يصبح نموذجاً ناجحاً لقيام دولة ذات طابع اشتراكي لذلك لم يكن من المعقول أن يستمر العراق طويلاً بانتهاك النظام العالمي الأمريكي، وأخيراً وفي الوقت الذي سمحت لإسرائيل بتعزيز موقفها المهيمن في المنطقة قامت الولايات المتحدة بالإضرار بالمصالح الأوروبية وبالإساءة إلى العلاقات بين أوروبا والدول العربية. وقد أصابت عصفورين بحجر واحد لأنها قضت في المهد على الصحوة الجديدة للعالم العربي بإقامة وحدته وفي الوقت ذاته قامت بتكدير طويل الأمد لصورة أوروبا وخاصة فرنسا لدى الشعب العربي.

وهكذا فهي لم تقم فقط بارجاع الدول الأوروبية إلى بلادها بعد الحرب دون أن تجني اية فائدة بل قامت باستبعادها من كل الصفقات التي تبعت الحرب. ووضع النظام العالمي الجديد الناتج عن حرب الخليج تحت السيطرة الكاملة للولايات المتحدة من دون أن يكون للدول الأوروبية الحق بقول كلمتهم.

وبعث من جديد النظام الاستعماري القديم واستبدلت الأمم المستعمرة القديمة بالولايات المتحدة وضعفت سلطة العرب بينما حصلت دول الخليج ذات الأنظمة غير الديمقراطيةعلى ديمومة امتيازاتها مقابل صلاحيات أمريكية على النفط وضمان عدم اتحاد العالم العربي إلى الأبد. وعن طريق منع العراق أن يصبح قوة مسيطرة في الخليج ودفع البعض لمعارضة واشنطن تم توجيه إنذار إلى دول الجنوب محذرة إياها من أية محاولة تمرد ضد السلام الأمريكي مما شجع كذلك المملكة السعودية والكويت للسماح بإقامة أوسع القواعد الأمريكية على أراضيها. وأخيراً هناك ظاهرة لا يمكن تجاهلها وهي البنية العسكرية الصناعية المسؤولة عن تزويد السوق العملاق بالسلاح والتي انتكست عند نهاية الصراع بين الشرق والغرب منذ انهيار الاتحاد السوفيتي فاستطاعت مع هذه الحرب أن تستعيد أملها، الأرقام في هذا المجال معبرة. في أيلول كان جورج بوش قد أعلن عن عقد بيع للأسلحة مع المملكة العربية السعودية بقيمة 20 مليار دولار خفضت بعد ذلك إلى 7.5 مليار دولار من قبل الكونجرس. وبعد سنة في شباط ضربت مبيعات الأسلحة حسب تقرير صادر عن البنتاغون الرقم القياسي وصل إلى 33 مليار دولار ونصف هذه المبيعات كانت في الشرق الأوسط. وفي 30 أيار 1991 تكلم ديك تشني عن صفقة أسلحة لإسرائيل وللإمارات العربية المتحدة ولم يعلن عن قيمتها، وعلى مدى عام من حرب الخليج باعت الولايات المتحدة من الأسلحة ما قيمته أكثر من 15 مليار دولار. وباعتبارها المصدر الأول في عام 1997 وللسنة السادسة على التوالي باعت الولايات المتحدة في عام 1996 11.3 مليار دولار من العتاد الحربي أي بزيادة 23% عن عام 1995.

ولتعزيز موقفها المهيمن على السوق العالمية للأسلحة لم تتوان الولايات المتحدة عن التقليل من أهمية السلاح الفرنسي، وبعد أن أعلنت أن قوة الردع التقليدية لقوات التدخل الفرنسية ضعيفة أوكلت إليها دوراً هامشياً في العمليات التي جرت على أرض العراق ولم يتوقف الجنرال شوارزكوف ومن خلف الكواليس من الاستهزاء من العتاد العسكري لفرنسا. فالدبابات الوحيدة التي جابهت العتاد المستورد من الاتحاد السوفيتي كانت دبابات أمريكية وبريطانية قادرة على مجابهة عتاد عسكري وهي أقوى من الدبابات الفرنسية. هذه الحملة المدسوسة كانت تخفي استراتيجية على المدى الطويل في مجال بيع الأسلحة. فعن طريق تقليل أهمية العتاد الفرنسي الفعال والخفيف والأرخص استطاع

الأمريكيون السيطرة على الأسواق التي كانت في عجلة من أمرها لعقد الصفقات بعد نهاية الحرب.

كانت الأنظار متجهة إلى هدف نهائي – السيطرة الدولية – لذا استخدم الامريكيون سوق السلاح بصورة أخرى مخيفة وأكثر تخريباً، فليس فقط زادت صادراتهم منذ حرب الخليج حتى 25% من إنتاجهم العسكري (197 مليار فرنك) ولكنهم جذبوا أيضاً دول الاتحاد الأوروبي في كمين زادت نتائجه تبعية أوروبا للولايات المتحدة. إن اتفاقية ماستريخ ذات الوحي الليبرالي نصت على أن «الهدف هو تطوير الاتحاد الأوروبي كوسيلة لتعزيز الدعامة الأوروبية للحلف الأطلسي». هذا يعني من جهة إعلان بأن المنظمة الوحيدة الأوروبية العسكرية هي منظمة الحلف الأطلسي المسيطر عليها بالكامل من الولايات المتحدة ومن جهة أخرى إعلان بأن الاتحاد الأوروبي الغربي البعيد كل البعد عن تكوين نواة أوروبية مستقلة ما هو إلا «دعامة» لمنظمة الحلف الأطلسي(27).

منظمة الأمم المتحدة:

إضافة للشبكة الاقتصادية مع الغات والمنظمة العالمية للتجارة والاتفاقات التجارية الكبرى والمعاهدات الدولية وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي وللشبكة العسكرية مع الحلف الأطلسي تمتلك الاستبدادية الأمريكية شبكة دولية دبلوماسية سياسية وهي: منظمة الأمم المتحدة.

إن ميثاق الأمم المتحدة الذي وقع في سان فرانسيسكو في 26 حزيران ودخل حيز التطبيق في 24 تشرين الأول 1945 هو ثمرة استراتيجية

---

(27) *حتى أنّ الأمريكيين ذهبوا إلى أبعد من ذلك بإقناع الأوروبيين بإنشاء الـ «CALS» أو ما يعرف بـ: Computer-Aided Acquisition and Logistic Support (الدعم اللوجستي لسوق الجنود بمساعدة الحاسوب) وهي مجموعة تضم مكاتب للدراسات في جميع أنحاء المعمورة في مجال التسلح والتكنولوجيا العالية. والعضو الأهم في هذا الصرح هو البنتاغون: حيث أنه يمثل 80 مليار فرنك فرنسي من الإنفاق السنوي في مجال المعدات الحاسوبية العسكرية أو غير العسكرية، مما يؤهله للعب دوراً أساسياً في هذا الصرح المعلوماتي المتعدد الجنسيات. النتيجة بدون أدنى شك معروفة وهي ربط كل البحوث والاكتشافات ذات الطابع العسكري وحتى الصناعي في العالم بالقوة الأمريكية، أي الخضوع الكامل لأوروبا للقرارات الأمريكية فيما يخص القدرة الدفاعية.*

انكلوسكســونية تــم إعــداده خلال الحرب العالمية الثانية تحت رعاية الرئيس روزفــلت. الأنظمــة الأساســية لمجلس الأمن تؤكد على أنه يمتلك «مسؤولية الحفــاظ على السلام» (المادة 39) وهو المؤهل أن يقرر التدخل لدى أي تهديد للسلام. وعند اللجوء للمادة 39 يبرز نوعان من الوسائل يمكن استخدامها: تلك الــتي تفرض استخدام القوة (المادة 42) والوسائل التي لا تفرض استخدام القوة (المــادة 41). وكــل قــرار يتخذه المجلس يجب قبوله من الأعضاء كماويجب تطبيقه (المادة 25).

في حالات عدة على محكمة العدل الدولية أن تلتئم وتطلق حكمها في حال الــتعرض للقانون الدولي. هذا ما جرى أثناء حرب الخليج أو في الحالة الليبية: فــلم يعــترض أحد على قصف طرابلس في عام 1986 حيث قتلت خلاله ابنة الــرئيس القذافــي ولأنــه كان في الغالب يقطع الطريق أمامها لم تكن المحكمة تتدخل مما كان يتيح لبعض أصحاب القرار على الصعيد العالمي أن يكونوا في ســنأى عن أية مراقبة قضائية وأن يتخذوا قراراتهم بارتياح بالتدخل أو عدمه، فوظفت الولايات المتحدة ذلك كوسيلة متميزة لخدمة مصالحها وخير دليل على ذلك عدد مرات الحظر الاقتصادي المتخذة بالضغط التي مارسته على هذا البلد أو ذاك والمحاباة تجاه بعض الدول.

إن مهمــات الأمــم المــتحدة ذات العلاقة بالأمن الجماعي فشلت جميعها، الســبب الأول وراء ذلــك كان انعدام التفاهم حول الأمور الأساسية فلم يتمكن الأعضــاء الخمــس للمجــلس من التوصل أبداً لقرار سياسي حقيقي بل كانوا يفضــلون التوصــل إلى حــل وسط هش، لا يؤدي غالباً إلى حدوث أي تأثير. وعندما تمس مصالح الولايات المتحدة كما في حالة الصراع في الخليج لم يكن الأمــريكيون يجدون أية صعوبة في «إقناع» شركائهم من اتباع خطواتهم(28). فأثــناء الغــزو الــتركي في 13 شباط 1975 كانت حصيلة المعارك أكثر من 3000 قتيل في الجانب اليوناني وقام الأتراك بتهجير السكان مما ضمن للجزء الواقع تحت سيطرتهم قدرات اقتصادية أفضل. ولم يصدر أي ضغط من منظمة الأمم المتحدة في وجه الفعل التركي. كذلك يوم الغزو لتيمور بواسطة إندونيسيا

(28) لقد ضرب الأمريكيون الأرقام القياسية في استخدام حق الفيتو فبين عام 1970-1990 استخدموا أكثر من 60 مرة هذا الحق مقابل 26 لبريطانيا العظمى وغالباً لدعم المواقف الأمريكية على حساب دول العالم الثالث أو على حساب أوروبا، أما فرنسا فاستخدمته 11 مرة والاتحاد السوفيتي 8 مرات فقط.

في 7 كانون الأول 1975 بعد مغادرة الرئيس فورد ومستشاره هنري كيسنجر للـبلاد بثلاث ساعات قام الجيش الإندونيسي بشكل غير شرعي بغزو الجزيرة وسـبب ذلـك مـوت 100-200 ألف شخص. وخلال التصويت على معاقبة حكومة جاكرتا صوتت الولايات المتحدة إلى جانب الغزاة. وقد سمحت مشاركة الأمـريكيين لـلغزاة باستخدام قنابل النابالم من أجل إخضاع سكان الجزيرة في ظـروف وصفتها بعثة برلمانية أسترالية بالمذبحة التي لم يرتكب مثلها أبداً منذ الحـرب العالميـة الثانية. ومنذ ذلك الحين قدمت الإدارات الأمريكية المختلفة مـليارات الـدولارات للحكومة الإندونيسية ومنها 400 مليون دولار كمساعدة اقتصـادية من إدارة الرئيس كلينتون الذي باعها أيضاً سلاحاً بقيمة 270 مليون دولار.

مـثالان مؤثران لا يزالان حتى الآن في ذاكرة البشر، المسألة الصومالية ومسألة أقدم منها وهي قضية الكونغو.

الأزمة الكونغولية 1959-1960:

فـي سياق المحاولات التبعية للرئيس ويلسون غداة الحرب العالمية الأولى تـابع الأمريكيون في كل مكان بعد عام 1945 حملتهم الرامية إلى طرد الدول الأوروبيـة من دول العالم الثالث حيث لا تزال مسيطرة. وكما كتب جاك فاندر في كتابه عن الأزمة الكونغولية «لقد أصبح من الآن وصاعداً قوتان عظيمتان حقيقيـتان تسـيطران عـلى العالم وهما الولايات المتحدة واتحاد الجمهوريات السـوفيتية الاشـتراكية. وصـممت هاتان القوتان بحزم على اتخاذ موقف ضد الاستعمار بسبب أنهما لم تكونا قوى استعمارية ولأن ضعف القوى الاستعمارية وخاصـة فرنسـا وبـريطانيا العظـمى سـاهم بـتعزيز موقفها في المحافل الدوليـة».كـانت مهمـة الولايـات المـتحدة غير صعبة «لأن شرعية الدول الاسـتعمارية فـي مجموعة الأمم أصبحت مغايرة لتلك التي كانت من قبل عام 1940 كما أن المحن التي مرت بها خلال الحرب أجبرتها تدريجياً على التخلي استعمارها في آسيا أولاً ثم في أفريقيا.

أثـناء الصـراع العالمي وهكذا سقطت أسطورة القوى التي لا تقهر مثل بـلجيكا وفرنسـا وبريطانيا العظمى وإيطاليا وهولندا، بعد أن عملت هذه القوى عـلى أن تـبرز بعـناية هذه الأسطورة في وجه الشعوب الخاضعة للاستعمار

وعملت الولايات المتحدة بدأب على إزالة هذه الأسطورة فكانت جاهزة لتساعد بشكل خفيّ أولئك الذين يقاتلون المستعمرين وهذا ما حصل في فيتنام حيث تظاهرت بدعم فرنسا في الوقت الذي كانت تمد فيه سراً المقاومين التابعين لهوشي منه بالسلاح والعتاد. وهكذا فقد الأوروبيون مستعمراتهم الواحدة تلو الأخرى: الهند في عام 1947 وإندونيسيا في عام 1949 والهند الصينية بعد هزيمة الفرنسيين في ديان بيان فو في عام 1954 والمغرب وتونس حصلتا على سيادة محدودة قليلاً في عام 1956.

في هذه السنة نفسها حدثت «المخططات الأولى الحقيقية للتحرر السياسي في الكونغو». حتى لو كان الوضع العام مؤات لها خاصة بفضل الشخصيات البلجيكية التي عرفت تحت لقب«رجال تصفية الإمبراطورية» وعرفوا كيف يزاوجوا بين الديناميكية وآلة الاستعمار، إلا أن التأثيرات الخارجية لم تكن غريبة عن الموضوع. لقد نشط الأمريكيون بواسطة جماعات كالوتكوفر المرتبطة بأنصار يَهْوه والذين انتشروا في الكونغو تحت اسم الكيتوالا أو بواسطة برامج إذاعية إنطلاقاً من دول المنطقة كمصر مثلاً. في نهاية الخمسينات كان الوضع قد نضج من أجل القيام بتغير كبير. في 28 كانون الأول 1958 طالب باترس لومومبا في خطاب ألقاه في ليوبولدفيل بـ«تحرير الشعب الكونغولي من النظام الاستعماري وحصوله على الاستقلال». وعجلت انتفاضات 4 كانون الثاني 1959 الأمر نتيجة الحماقات العديدة للسلطات المحلية البلجيكية، السنة التالية سرعت بالتغير. كتب فاندر لندن يقول: «الأشهر الستة الأولى من عام 1960 لم تكن أبداً هادئة في كل البلاد»، الإدارة عاجزة عن فرض احترامها وخاصة في ريف ليوبولدفيل وحركات متذبذبة استقلالية في كتنغا حيث أعلنت حالة الطوارئ في 14 حزيران ومجابهات في كاشاتي. وفي 21 حزيران انتخب أحد أنصار لومومبا كرئيس لمجلس الممثلين وطُلب إلى لومومبا أن يقوم بتشكيل الحكومة التي حصلت على ثقة البرلمان (23-24 حزيران) وبعد الانتخابات الرئاسية التي كانت حصيلتها انتصار جوزيف كازافوبو (24حزيران) فقام بتسمية لومومبا كرئيس للوزراء، وفي 30 حزيران حصلت البلاد على الاستقلال.

الأيام التي امتدت بين 4-14 تموز 1960 فجرّت الأزمة النهائية وأخرجت المستعمر البلجيكي خارج الكونغو وتوجت الجهود الأمريكية من أجل وضع رجل نصير لأهدافها في سدة السلطة.

الجدول الزمني حدث على الشكل التالي: صعوبات أولى ظهرت بين صفوف القوى العاملة في ليوبولدفيل مصادمات في تيسفيل (5 تموز) فوضى عامة في ليوبولدفيل (7 تموز) اضطرابات في كوما وكنغوليو وماتادي. فقررت الحكومة البلجيكية أن تعزز قدراتها في قواعدها الأفريقية (8تموز) تلا ذلك اضطرابات مسلحة في إليزابيث فيل وفي لولوبورغ (9تموز) وتدخل القوات البلجيكية في كتنغا (10تموز) وفي ماتادي (11تموز) فتبع ذلك إعلان استقلال كتنغا. في 12 تموز وجدت وزارة المستعمرات استحالة استمرار الموظفين البلجيكيين بالقيام بمهامهم في أفريقيا وفي 13 تموز تفجرت الأحداث في ليوبولدفيل واحتلت القوات البلجيكية مطار ندجيلي. في 14 تموز قطعت العلاقات الدبلوماسية مع بلجيكا. بالواقع وإلى جانب الأخطاء التي ارتكبها البلجيكيون في بلدهم وفي الكونغو بالذات لابد من توجيه الاتهام إلى المناورات الأمريكية. في البداية هناك الشائعات التي أثارها عملاء المخابرات الأمريكية (C.I.A) والتي انتشرت في كل مكان حول طائرات سوفيتية قد تكون قد حطت في مطار ندجيلي وأن الضباط البلجيكيين قد حاكوا مؤامرة تؤدي إلى ذبح الجنود الكونغوليين. تبع ذلك غليان أدى لحالة من الفوضى كانت مصيرية. الشائعات نفسها ألهبت كيفو وكتنغا مما أدى للصدام المسلح في حامية إليزابيث فيل في 9 تموز أمام تهديد بتدخل المظليين البلجيكيين. ثم إن وراء إعلان استقلال كتنغا في 11 تموز نشطت المصالح الأمريكية، ومن جهة أخرى لابد أن نشير إلى الغموض الذي أثارته بين الناس والجيش والمناورات والأخطاء التي ارتكبت قصداً. وبالرغم من النية الحسنة للرئيس كاسافوبو ولرئيس وزرائه لومومبا الذين جابوا البلاد بهدف التهدئة ولوضع حد لسوء التفاهم إلا أن كل شيء كان قد تم. ولم يعد هناك مهرب من تدويل الصراع وهذا ما سعت إليه الولايات المتحدة مما أدى إلى تدخل الأمم المتحدة التي نشرت قواتها في ليوبولدفيل في 16 تموز.

بالتواطؤ مع الأمريكيين المستعدين دائماً للتدخل شن ممثلو منظمة الأمم المتحدة الذين كانوا على اتصال وثيق بسفارة الولايات المتحدة الأمريكية هجوماً على حكومة لومومبا التي عمل الأمريكيون على زعزعتها بواسطة جوزيف كاسافوبو الذي نحّى بومومبا عن الحكم بتشجيع من السفارة الأمريكية وأحدثت أزمة دستورية أغرقت البلاد بالفوضى وبالمواجهات بين الفصائل. وكان قائد عملية الأمم المتحدة في الكونغو أندريه كورديه – الموظف النموذجي– هو

الذي نقل أوامر واشنطن إلى المنظمة الدولية. ثم نظمت الاستخبارات الأمريكية (C.I.A) انقلابـــا دفـــع بــــ (موبوتو Mobuto) إلى السلطة وقامت باغتيال باتـــرس لومومـــبا. فعلق موبوتو فوراً عمل البرلمان والدستور. ودعم الرئيس كـــندي ترشـــيح الـــنقابي ســـيرل أندولا ليكون رئيساً للوزراء لأنه يتناسب مع الطـــروحات الأمريكية. في تموز 1961 عقد البرلمان اجتماعاً برئاسة منظمة الأمم المتحدة وخوفاً من التأثير الخارجي المعارض لمصالحها وخاصة من قبل فرنســـا حاصرت السلطات الأمريكية البناء بواسطة قوات الأمم المتحدة. وبغية إقامـــة حكومـــة تابعـــة لهـــا قامت السلطات الأمريكية بحفر نفق يصل خارج الـــبرلمان مع داخله وبواسطته كان مسؤول الاستخبارات الأمريكية يمرر رزم الـــدولارات من أجل شراء أصوات البرلمانيين (29). وفي الداخل كان محمود خيري أحد كبار الموظفين في منظمة الأمم المتحدة يقوم بدور الوسيط.

العملية الصومالية:

قضية أقرب إلينا، الصومال. في نهاية عام 1992 كان برنامج تدخل الأمم المتحدة في الصومال الذي وضعه بطرس غالي بسيطاً:

نزع سلاح الميليشيات.

دعوة المؤتمر الوطني للاجتماع.

إعـــادة توحيد البلد تحت سلطة تنفيذية مؤقتة تضم الجمهورية التي أعلنت عن تسميتها «أرض الصومال».

مـــنذ البداية عارضت الولايات المتحدة عدداً من نقاط هذه الخطة. فجورج بوش لم يتحرك إلا لاعتبارات بسيطة للسياسة الخارجية وكان يهدف منع خفض الميزانية العسكرية من قبل الكونجرس. لذلك رفض نزع سلاح الميليشيات. في كـــانون الأول 1992 أمـــر بإنزال القوات الأمريكية في الصومال في جو من الدعاية الضخمة وتحت أنظار وسائل الإعلام الأمريكية التي بثته بالتالي في كل أنحـــاء العـــالم ليـــبرز بهـــذا الإخراج السينمائي العاطفي وجه أمريكا المنظمة والفعالة.

يـــتكون الشـــعب الصومالي في أغلبيته من بدو رحل (70%)منظم بشكل

---

(29) *تم توزيع الكثير من هذه الرزم بشكل واسع في المقاهي والبارات.*

قـبائل. رئيس الحكومة زياد باري يتبنى بشكل دائم خطابين، الأول هو محاولة لإبراز أنه يمثل نظاماً حديثاً مترفعاً عن القبلية، والثاني هو شبه رسمي يتمسك بإقامة بنية قبلية متعددة الأوجه تفسد آليات إخضاع المجتمع التقليدي للقانون. لقد تصورت الولايات المتحدة بأن تفاهماً قسرياً ومكتوباً بين القبائل يمكن له أن يشكل حلاً لا يتعارض مع مصالحها الخاصة، فتوصلت إلى وثيقة لم تكن تعني شـيئاً بالنسبة للصوماليين المعتادين على الجمل الرنانة وعلى الحلول الخطابية الموثقة بالوعود.

أمـام فشـل المفاوضات عقد الجنرال عيديد وحلفاؤه من الاتحاد الوطني الصومالي سلسلة مؤتمرات محلية بأسلوب قريب من الطريقة التقليدية. ففي 31 أيـار 1993 تم عقد اتفاق بين الاتحاد الوطني الصومالي والجبهة الديموقراطية مـن أجـل إنقـاذ الصومال ومنظمة المجرتين التي تمسك بشمال البلاد. طبعاً منظمة الأمم المتحدة مستقلة لا تستطيع إلا أن تقبل التسوية التي كانت من عمل الصـوماليين بأنفسهم. في أول الأمر أعلنت الأمم المتحدة بشخص أمينها العام بطـرس غـالي تأييدها للمعاهدة. وبعد لقاء تم مع رئيس الولايات المتحدة بدل بطـرس غالي رأيه وأعلن أن الاتفاق غير صالح. إذ أن المؤتمرات التي أدت إليـه كـانت «غير مؤهلة». ورداً على ادعاء عيديد بأن التسوية الصومالية لا يمكـن إلا أن تكـون قضية الصوماليين أنفسهم ردت الولايات المتحدة بموقفها الـثلاثي المعهـود: تحويـل عيديد لشيطان (وصف على الحال بالعدو العلني) وإطـلاق حمـلة إعلامية عنيفة وتحميل عيديد وحده المسؤولية الكاملة للحرب الأهلية (الأرقام أشارت إلى أكثر من 300 ألف قتيل).

القضـية الصومالية التي بدأت بجو من السرور عند الإنزال على الطريقة اليوليودية وبتعظيم العمل الإنساني الأمريكي الذي يهدف إلى إنقاذ آلاف الناس مـن الجـوع مـع تصـفية الفائض الزراعي الأمريكي وهذا الهدف لم ينساه الأمـريكيون أبـداً، انـتهت هذه القضية كما نعلم إلى الغموض الكامل حيث تم الانسحاب في نهاية الأمر بطريقة أقل تمجيداً. لقد وصف روني بروماني رئيس مـنظمة أطباء بلا حدود مشهد جنود الأمم المتحدة من الأمريكيين بشكل خاص قـائلاً:«فـي الغـالب كـانوا سكارى ويبولون في الشوارع وهم واقفون على الأسـطحة ويرسلون وراء النساء ويضربون الرجال بقسوة وفي بعض الأحيان الأطفال».

«سياسة المعيارين والمكيالين» التي طبقتها الأمم المتحدة بقسوة ضد الدول

الـــتي تـــزعج أمـــريكا وبرحمة وتسامح تجاه أصدقاء الولايات المتحدة انتهت بالاســـاءة للمنظمة التي تراجعت هيبتها. وبدأت ترتسم ردة فعل على هذا الواقع وبشـــكل مفـــاجئ مـــع مجيء الأمين العام الجديد كوفي عنان مع أنه معروف بـــ«رجل الأمريكيين» الذين فرضوا انتخابه. فالابتزاز الذي تستخدمه الولايات المـــتحدة برفضـــها دفع ديونها المتراكمة منذ سنوات تجاه الأمم المتحدة إن لم تصـــبح مطواعـــة في يدها أثار باستمرار غضب الأمين العام. أما ملف منظمة الأمم المتحدة الموجود بين أيدي المحافظين المتزمتين في مجلس الشيوخ بقيادة جيســـي هـــلمز ليـــس مرشح للحل لأن الإجراءات المتخذة تهدف إلى تخفيض الحصـــة الأمريكية من 25% إلى 20% من الموازنة ودفع المستحقات السابقة بالتقســـيط وبـــتخفيض يصـــل لـــ 60% وكذلك بتخفيض حاد في قوات الأمم المـــتحدة الـــتي عانت بالأصل من تخفيضات قاسية وترافق كل هذا مع إجبار المـــنظمة على إخضاع حساباتها لما يوازي في أمريكا لسوق الصرف ألا وهو مؤسسة الحسابات العامة.

كان جواب كوفي عنان معبراً عن الدور الذي يلعبه الأمريكيون بالتلاعب بـــالأمم المتحدة وتوجيهها على طريقتهم، لقد قال:« ليس من وظيفة الأمين العام أن يفرض إرادة الولايات المتحدة على الدول الأعضاء الآخرين الـــ 184».

■ ■

الفصل الرابع :

إخضـــــاع العقـــول

اعتــبرت الولايات المتحدة منذ البداية أن الإمساك بالاحتكارات الثلاثة هو أمر أساسي:

الأول:

يتعلق بالقوة العسكرية وقد حصلت عليه بواسطة منظمة الحلف الأطلسي وقبعات الأمم المتحدة الزرقاء وبيع الأسلحة والسلاح النووي على مستوى العالم الغربي (في ماعدا فرنسا).

الثانـي:

هــو احــتكار الاقتصـــاد وكان قد أصبح فعلياً بشكل جزئي منذ اتفاقيات بريــتون وودز عــام 1944 حيــث أصــبح معيار النقد الدولي العملة الوطنية الأمريكــية : الــدولار، ولا يــزال هذا المعيار قائماً حتى الآن. كما أن النظام الدولــي الــناتج عن الاتفاقيات خاضع لمخاطر السوق (حيث تستطيع الولايات المــتحدة التأثير فيه) ولاحتمالات النتائج الأمريكية وخلف هذا النظام مؤسسات دولــية (صندوق النقد الدولي – البنك الدولي) من أجل خدمة مصالح الولايات المــتحدة والمجموعــات الاقتصادية المستفيدة على مستوى العالم بأكمله. ومنذ ســقوط جــدار برلين وانهيار الشيوعية استطاعت الولايات المتحدة تحقيق هذا الاحــتكار بشــكل كــامل لأن الأيديولوجــية الاقتصادية الوحيدة المعترف بها والمطــبقة في العالم أُصبحت الرأسمالية الليبرالية والتبادل الحر وهذا ما كانت تطالب به النخب الأمريكية. أخيراً بواسطة الاتفاقيات الدولية المتعددة كاتفاقيات الغات GATT (المنظمة الدولية للتجارة) أمسكت الولايات المتحدة ببقية الأمم وجعلتها رهائن. فقد تضمنت شبكتها الاقتصادية نقطة مركزية ذات وجهين:

1- الأيديولوجــية الليبرالــية والســلطات الاقتصـــادية والمالية والسياسية الأمريكــية التــي تتخذ بموافقة المجموعات المستفيدة للأمم الأخرى القرارات الاقتصادية التي يشعر بتأثيرها الكون بأكمله.

2- التكــتلات الاقتصـــادية مــثل نظـــام النقد الدولي والهيئات التابعة له ومؤسسة الدولار كمعيار والاتفاقات الدولية كل هذه التكتلات تسيطر على مراكز القرار الوطني للأمم وتتحكم بها.

الثالث:

بـــدون شـــك هـــو الأكثر خطورة لأنه استبدادي بجوهره ألا وهو احتكار وسائل الاتصالات ومن المفيد هنا أن نعرض لمحة تاريخية مختصرة.

تقزيم العالم:

مـــنذ القـــدم فهـــم أصـــحاب السلطة بأن التحكم فقط بالأدوات العسكرية والبوليســـية والسياسية ليس كافياً لتأمين بقاء ديمومة هذه السلطة. حتى قبل أن يضـــع الفلاسفة في أثينا أيام سقراط وما بعده مفهوم الأيديولوجية أدركت طبقة الحكـــام ومؤيدوهـــا أن مـــا يقـــود الشعوب يتشكل من مجموعة من المعتقدات والعـــادات الحاضـــرة في الأذهان على شكل صور حيث حلت معظم رموزها وتحولـــت لـــتقاليد. الوظيفة الأساسية لهذه التقاليد ولهذه الرموز تقوم على إقحام المعـــتقدات والعادات بالرؤوس من أجل أن تجعلها متناسبة مع الطاعة والولاء. لذلـــك وجـــدت باكـــراً فكـــرة أن الناس يولدون داخل مجموعة لها بالطبع بنية اجـــتماعية وعـــلى كل فرد فيها أن ينسج معها وبدت هذه الفكرة لدى أصحاب الامـــتيازات بأنها أحد المفاهيم الأولى التي يجب أن تصبح تقليداً. نتج عن ذلك تعزيـــز للمجتمع الذي أريد   له أن يكون ما أمكن غير قابل للعزل مع إبعاد كل إرادة ولو ضعيفة للاعتراض على وضع النظام القائم.

عـــلى عكس اليونان حيث كان من النادر وصول الأحرار إلى مركز مهم فـــي حكومة الحاضر، جعلت روما الذرائعية والمتسامحة من الليونة الاجتماعية مصـــدر لـــتجدد الـــنخب الـــتي كـــانت تضمن قوة الجمهورية وبعد ذلك قوة الإمـــبراطورية. وبعيداً عن فكرة أن كل ما ينبثق عن روما يعكس إرادة مجلس الشـــيوخ والشـــعب كانت المجموعة الأيديولوجية الرومانية على قدر كافي من الغمـــوض لكـــي تســـمح بالمرونة الاجتماعية فاتحة عدة ممرات بين الطبقات الاجتماعية.

إن الفكـــرة المـــثالية «لـــلرجل النبيل» المثقف والإنساني وصاحب الفكر المنفـــتح والقريب من الإنسان المتعلم الصيني في مدرسة كونفوشيوس وما بعده هـــذه الفكـــرة وصلت إلى وضع نموذجي مع أشخاص كسيسرون Cicerone وســـنك Séneq وأنطونين أو مارك أورل، وأثبتت أنه بواسطة الجهد والإرادة والتوســـط وتطـــبيق المعرفة والعقل على الموجودات وكذلك بواسطة الاستقامة

والتمسك بالقيم الثقافية والأخلاقية كان يستطيع أي عضو في المجتمع أن يحسن وضعه الاجتماعي.

بعـد أن خرجـت أوروبا (التي برزت للوجود على أثر سقوط روما) من حال الانحطاط حيث غرقت فيه نتيجة اختفاء أروع نموذج تنظيمي في تاريخها وضـعت نفسـها تحت تأثير الكنيسة في نوع من النظام الاجتماعي الذي ذكرنا بالنظام اليوناني القديم. كان تسلسل الطبقات خلال العصر الوسيط بدءاً من طبقة الأسـياد وصولاً لطبقة العبيد يشجع مع تقوقعه في نظامه الاجتماعي العلاقات بين طبقات الشعب والتي تقوم على نوع من تبادل الخدمات ومجموعة من القيم التـي تسـتبعد الشراكة الحقيقية، تبادل ذو طابع اقتصادي فقط على طريقة ما يسـمى بخذ وهات الذي سيجد فيما بعد استتباباً مع النهوض القوي لبورجوازية المدن. هذه الأخيرة التي كانت تقوم على مرجعيات تجارية وطيدة عملت ما في وسعها لإقامة نهج مزدوج: الأول أيديولوجي بطبيعته لم يكن يعترف بأي تنظيم اجتماعـي إلا بذلـك الذي كان يناسب شركاء الاقتصاد والذي كان بالقول كما بـالهدف يعتمد فقط على منطق الربح. والثاني ولأنه مرتبط بالأول كان يعتبر مـن الطبيعـي بأن الجري نحو الربح كالسياسة ينبعان من إرادة القوة، إن هذه الإرادة لـيس لهـا معـنى إلا أن تقوم على السلطة الناجمة عن حيازة الأملاك الماديـة والتـي هي بلغة عصرنا تتلخص بهذا التأكيد: السلطة تعود لمن يملك المـال. بـدون أي اعتبار للطبقات المحرومة انخرطت البرجوازية منذ القرن الـرابع عشـر بالحوار مع السياسيين (الملوك – الأمراء – الأسياد – العائلات الكبرى الأرستقراطية) كتطوير للفكرة القائمة بأن السلطة قابلة للاقتسام. فإذاً لم تكن البرجوازية بعد التي تملك رأس المال قد حصلت مبدئياً على القوة السياسية إلا أن البرجوازيين كانوا يملكون بالمقابل القاعدة التي تقوم عليها هذه السياسة: القوة المالية. فبحسب وجهة نظر البرجوازية الصاعدة فإنه يحق فقط لمن يملك شـيئاً (مـال – عقـارات – أراضـي – سلطة سياسية) بأن يشترك في اتخاذ القرارات وهو المؤهل لكي تتعامل معه على قدم المساواة. أما من لم يكن يملك أي شـيء ممكـن ترجمته كماً وعداً فإنه في أحس حال لم يكن يمثل إلا خزاناً تنهل منه لإنتاج المملكة الاقتصادية.

لكـن هـذا الوضـع كـان يناسبه بالطبع أن يبقى هؤلاء المحرومون في مواقعهم ويكتفون بالقناعة بدورهم وأن يكونوا وحدات للإنتاج. لذلك راحت تحل جمعيات الإغاثة والإخاء وتعاونيات الحرفيين التي كانت (بالإضافة إلى اتفاقات

الشــرف حيث كان الأعضاء مدعوين لاحترامه) مسلحة لتدافع عن نفسها ضد المحــاولات المــتعددة لتكوين الاحتكارات من جانب البرجوازية التجارية. أما بالنســبة للشعب الضعيف والمنهك القوى فقدكان باستطاعة البرجوازية الاعتماد عــلى الكنيسة المؤسساتية للإبقاء على خضوعه للأمر الواقع. على هذا الصعيد كــانت أغلبية أعضاء الطبقات الأرستقراطية والأكليروس والتجارة متفقة على أنــه لديهم مصالح مشتركة وطيلة العصر الوسيط أعطت رؤية العالم بدعم من الكنيســة لأهــل أوروبــا تفســيراً للعالم وللمجتمع كان مطمئناً في ذات الوقت للطــبقات الحاكمة والطبقات الأدنى التي تشكل لهم اليد العاملة والمستهلكة. إلا أنــه وتحــت تأثيــر الأدباء والفنانين والأمراء المتنورين وبعد إعادة اكتشاف مؤلفــات الــتراث القديــم لليونان والرومان استطاعت العقول أن تتحرر. أما الكنيســة وبشكل اقل قطعية وبدفع من بعض أبنائها الذين ذكروها بواجبها نحو الفقــراء وبإرثها ما قبل المسيحية (الذي كان خليطاً من التسامح وتذوق الجمال) خطــت نحــو العقائد المتعددة. وما أن طل القرن السادس عشر حتى كانت ردة الفعل حاضرة.

وبواســطة الجمع بين العقلية التجارية وبالمراعاة الدقيقة للمبادئ الإنجيلية وضــعت الحــركة الإصــلاحية الــبرجوازية الرأسمالية على طريق السلطة السياســية. من وجهة النظر الدينية كانت الرأسمالية البروتستانتية بسبب انتمائها لســلالة النخــبة ولعملها الجيد واليقين الآخر هو أن هذه النعمة تتحقق بالنجاح المــالي والــتجاري والمادي، إضافة على أن التمسك الأخلاقي والتمسك بعالم الأعمال شكلت الشرط اللازم لحلول مملكة الرب على الأرض الآن.

عــلى الصــعيد الاقتصــادي أصبحت العقيدة الليبرالية بصفتها الأولية قد وجدت لتشكل المقاس المناسب لأصحاب الأملاك عن طريق رؤيتها للعالم حيث أن التــنوع السياســي والجغــرافي والتاريخي وفي العادات والتقاليد والقوانين والــثقافات يشــكل عائقــا للمــبادلات الــتجارية. وما أن وجدت البرجوازية البروتســتانتية نفسها في موقع مؤثر على القرارات السياسية حتى أعلنت إدراج هــذه الــرؤيا في عملية من الطقوسية عبر التعاون الوثيق ما بين النخب دينية كانت أم مثقفة.

وباعتــبار أن الفكــر التسامحي قد أرسل للمحرقة كان على البروتستانتية الــتي من البدء كانت منقسمة على نفسها (وهذا سبب تشعبها إلى عدة طوائف) أن تواجه مظاهر المقاومة أو الرفض من قبل الأنظمة القائمة. وكونها مضطهدة

ومجبرة على الهجرة وجدت هذه الطوائف المتعنتة نفسها قد وصلت إلى مرحلة البحث عن أرض موعودة تسمح ببناء أمة جديدة تبعث بوقت واحد عقيدتها الدينية (القدس السماوية) وطموحاتها الاقتصادية.

هذه الأمة كانت الولايات المتحدة.

إلا أنه وإن كانت المعتقدات الدينية التي حملتها حركة الإصلاح لم تنتصر بسهولة في أوروبا (فقد قامت على الفور حرب جديدة أقل حماسة وهي الحركة المضادة للإصلاح) إلا أن الإنجيل الليبرالي استمال أصحاب الأملاك أينما وجدوا. وباعتبار أنها كانت كنيسة حقيقية لم تنتظر المؤسسة الليبرالية طويلاً كي يعلن «أباء كنيستها» أمثال لوك وسميث وريكاردو وبنتام عن «العقائد» (كالمنفعية والأيدي الخفية ومجموعة المصالح الخاصة التي تقود إلى خير الجميع والتبادل الحر وإطلاق سياسة دعه يعمل دعه يمر) التي لا يمكن إثباتها بالوقائع وعن نوع من أنواع «العقيدة المسيحية» التي احتوت على عدة نصوص مثل مقالة «ثراء الأمم» وعلى «خوارنه»وعلى «مؤسسات» لكي تشرف على التطبيق الصحيح للمبادئ (اليوم هذه المؤسسات هي البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والمصارف المركزية المستقلة لإضافة إلى الرجال الذين يديرونها).

ضمن هذا الأفق أصبح من الواضح للبرجوازية الليبرالية أنها اقتربت من الهدف (خلال النصف الثاني للقرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر) وكان يجب بمجرد دخولها معابد السلطة كما حدث سابقاً في أوج زمن الكاثوليكية في العصور الوسطى أن تقنع الشعوب أنه لا يوجد نظام أفضل من نظامها. ومن أول انعكاسات الثورة الصناعية في إنكلترا في السنوات التي تلت عام 1770 كان التعبير أكثر فأكثر عن الطموحات البرجوازية الرأسمالية الليبرالية.

قبل ألفي عام طالب أفلاطون من أجل ضمان وحدة المجتمع المدني إضافة للفصل الواضح بين الفئات السياسية والعسكرية والاقتصادية ضرورة تعليق السلطتين الاقتصادية والعسكرية بالسياسة وهذا يضمن أن لا يكون للمسؤولين السياسيين أي أفضلية مالية للدخول بقضايا اقتصادية كما يضمن عدم إعطاء أي مسؤولية سياسية لرجال الاقتصاد. بعد ألفي عام وقرون قليلة ملازمة للثورة الصناعية في نهاية القرن الثامن عشر حصلت فئات المصالح الأوروبية على ما

كـــانت تـــرنوا إليـــه دائمـــاً ألا وهـــو إزالة الحدود بين الكتلة السياسية والكتلة الاقتصـــادية من أجل أن يندمجا في أحضانهما. وضمن هذه المبادئ تمت تربية جيل الشباب. إذاً كان لزاماً أن يتم تعديل النظام المدرسي القائم.

فـــي هـــذه الأثناء تحركت الطبقات الكادحة وكل أولئك الذين في الطبقات الأخرى لم يتقبلوا أن تقوم بكل اطمئنان في إنكلترا طبقة أرستقراطية من الملاك الذين يستغلون الشعب. وأصبح الأدب بشكل خاص البديل الأيديولوجي الحقيقي وكما لاحظ تري أككلنتون فقد شهد نهاية القرن الثامن عشر والنصف الأول من القـــرن التاسع عشر (إن لم يكن ثلاثة أرباعه) إنكلترا تتحول إلى دولة بوليسية ذات مؤسســـات كـــان عـــليها الحفاظ على مكاسب المستفيدين من النظام نفسه. وأقامت الأنظمة البرجوازية الجديدة في أوروبا أيديولوجية نفعية شرسة ومدعية حـــلمت الطـــبقة الوسطى التي ولدت بعد الثورة الصناعية أن تجعلها أبدية وأن تنشـــرها في كل مكان. هذه الأيديولوجية كما عبرت عنه مقدمة كتاب ديكنـــز «الأوقـــات الصـــعبة Hard Times» كـــانت تهدف إلى «تقديس ما هو عملي وتقـــليص العلاقـــات الإنسانية إلى نظام تبادلي سلعي مع ازدراء الفن بحجة أنه ليـــس أكـــثر من زينة غير مفيدة». ومقابل فظاظة الرأسمالية الهدامة للعلاقات الاجـــتماعية التي حولت العمل إلى وسيلة للاستلاب تحت غطاء نظام الرواتب الـــذي شكل الرصيد الأدنى لعبودية جديدة ولا يرى شيئاً غير قابل لكي يترجم إلى كميـــات من التبادل في السوق الحرة، مقابل ذلك صنع الرومنطقيون (ورد ثـــورث – كولـــريدج ثـــم وبشكل أعنف شيلي – كيتس – بيرون) من الخيال الخلاق «أحد الأطواق النادرة» حيث كانت القيم الإنسانية لها حق الحياة والدفاع الذاتي في وجه المبادئ الآلية وغير الإنسانية للرأسمالية الصناعية.

أخـــذت ردة الفعـــل الحقيقيـــة شـــكلها مـــن خلال الأدب. ديكنـــز طبعاً وديزرائيـــلي أيضـــاً الذي وصف «الأمتين» (الأغنياء والفقراء) في كتابه سيبل عـــام 1845 وجـــورج غســـينغ فـــي العمال في داون 1880 وانكلاسد 1884 وديمـــوس 1886 الـــذي سخر من أنانية وخبث الطبقات المالكة ولكنه عبر عن شكه في قدرة الطبقات الكادحة على التحرر وعلى إظهار مبدأ الغيرية للوصول إلى هـــذا الهـــدف... وكذلك أتش. جي. ويلز في الزمن الآلة وراويات أخرى كـــثيرة... وردة الفعـــل هـــذه ظهـــرت أيضاً في حركات النقابيين والحركات الاجـــتماعية السياســـية وفي المحاولات الإصلاحية التي لم يفد بعضها وخاصة تـــلك الـــتي حدثـــت عام 1832 إلا الطبقات الوسطى على حساب العمال. كما

ظهـرت ردة الفعـل عـبر الجهـود المعزولة ولكنها كانت حاسمة في تقرير فـريدريك أنجـلز حول واقع الطبقة الكادحة في إنكلترا (1845) وجهود كارل ماركس بشكل خاص.

وقد أدت هذه السنوات من النضال والاستئثار على مستوى القارة بأسرها إلى جعـل البرجوازية الرأسمالية أن تدفع الثمن وأن تتخلى عن بعض المواقع، إلا أنه كانت تنتظرها أيام أفضل فقد كانت أنظارها تتجه إلى ما وراء الأطلسي. فأعطـتها الحرب العالمية الثانية والعالم المتجه نحو الأمركة بعد بريتون وودز الفرصـة للانـتقام. وهنا تكمن إحدى عقد المسألة، فأن يكون للولايات المتحدة امـتلاك الهيمنة العسكرية والاقتصادية هذا لا يتحقق إلا إذا توصلت في الوقت نفسه على الصعيد العالمي إلى نسج شبكة من التواطؤ والاتفاقات المستترة تضم فـي أغلب البلدان بعض المجموعات السياسية والاقتصادية والعسكرية المتنفذة والتي ترى في الولايات المتحدة النموذج الأمثل للأمة التي ترجمت مادياً مفهوم «الأمة لشركة مغفلة» وقدمت لها النموذج الذي تقتدي به هذه الأمة التي تمسك بسـيادتها والـتي يجب تقليدها وإلا فاتنا قطار «الحداثة». ولكي تستطيع الأمة الرأسمالية الليبرالية الأمريكية أن تصل إلى تحقيق مهمتها التي كانت تعتقد أنها مكلفة بها سماوياً كان يجب على أكبر عدد ممكن من أغنياء العالم أن يقدموا لها العون في هذه المهمة أو على الأقل أن لا يشكلوا عائقاً لها.

إن التعاطف العملي لهذه المجموعات المتواطئة مع الولايات المتحدة يشكل ضـرورة لها لكي تتابع مسيرتها كي تصل إلى الهيمنة الأخيرة ألا وهي الهيمنة على الاتصالات.

الخبز وألعاب السيرك(*):

اشـتمل عالم الاتصالات على «الخبز والرهانات» التي شدت إليها اهتمام حكـام رومـا القديمة. فإذا كان الخبز ينتمي بشكل أكبر إلى الدائرة الاقتصادية ولكنه ليس غائباً بشكل كلي عن دائرة الاتصالات بالمعنى الأوسع للمفهوم لأنه يسـاهم في وقت واحد في العادات الغذائية وفي الشكل الأكثر حداثة واستهدافاً

(*) عـبارة مشهورة وجهها باحتقار الشاعر «جوفينال» (60-130م) إلى سكان روما، في أشعاره الهجائية، ويقصد بها أنهم لا يهتمون إلا بتوزيع القمح المجاني وبألعاب «السيرك».

لـــلدعاية ألا وهـــو عـــالم الإعلانات. فتغذية الطبقات الشعبية وعدم القدرة على الاســـتجابة لـــلحاجات الغذائية للجميع والعمل على إلهاء أصحاب الحظ السيئ والمحـــرومين والمهملين بالألعاب كل ذلك شكل دائماً الهم الأكبر للحكام، ضمن هذا المنظور يظهر فن الاتصالات الذي يتضمن فن الدعاية وقد احتل فيه المقام الأول.

نســـتطيع أن نفهـــم أهميـــة الاتصالات عند قراءة تعريفها: فهي مجموعة الأفعـــال التي يتبادل من خلالها الكائن البشري مع أبناء جنسه الأنباء والمشاعر والانطـــباعات والانفعـــالات والأفكـــار والمعـــتقدات والطقوس...إلخ تتم هذه التبادلات بواسطة أقنية ووسائل نستطيع شكلياً تقسيمها على الشكل التالي:

1- وسائل محدودة (تربط عدداً محدداً من الأفراد داخل دائرة تتفاعل فيما بيـــنها بشـــكل حميمي) مثل المحادثة وتبادل وجهات النظر والدردشة والمحاضـــرات والـــندوات الشفهية والبطاقات الحميمية والملاحظات المكتوبة والأفلام والتسجيلات على المستوى السمعي البصري ...إلخ.

2- وســـائل جماهـــرية: الصـــحافة المكـــتوبة والتلفاز والسينما والطباعة والإعلان والفنون التشكيلية...إلخ.

نلاحـــظ أن مجموعـــة كـــل مكونات الاتصالات بالشكل التي تم تحديدها (تبادلات ووسائل) تضم كامل الدوائر الإعلامية التي تكون النشاط البشري فيما يمكن أن يكون الشيء الأساسي لأن ذلك كما نرى يشكل روحها. إذاً نستطيع أن نـــدرك بســـهولة كم أن السيطرة الإقطاعية التي أنجزت عملياً على هذه الدوائر بواســـطة قواعـــد الســـوق والتبادل التجاري باتت تشكل اليوم انفصالاً قاتلاً في تطور الحضارة الغربية كما عهدناها حتى يومنا هذا. نلاحظ أخيراً بأن الإمساك باحتكار هذا المجال يعرض الحرية البشرية للخطر في أعز ما تملك. ضمن هذا الإطـــار نقـــول أنـــه قد أنجزت خطوة لا عودة عنها في الاتجاه السيئ من قبل الولايـــات المتحدة ومن بعض المجموعات الكبرى الصناعية والمالية والتجارية فـــي العـــالم. وبســـبب المناورات التي بدأت منذ عشرات السنين والتي شملت عمليات ضم وانضمام وتفاهم بين مجموعات صحفية واتصالات وبين أصحاب مصـــانع صـــهر المعادن الثمينة والمواد العالية التقنية من كتب وأفلام وصحف ومنـــتجات من كل صنف أصبحت هذه المجموعات تحت سيطرة فئات لا يعادل قوتها المالية أي شيء في العالم مع تقلص واضح في عددها وانخفاض في عدد الأيادي التي يمكن أن تحركها. هذه الفئات عملت على بسط نفوذها بشكل واسع

على الصعيد الكوني.

وهكذا فإن المناورات التي هدفت إلى فرض أيديولوجيتها ثم احتكار وسائل نشرها (أي الأيولوجية) قد بدأت بشكل جدي منذ نهاية الصراع العالمي الأخير. لقد فهمت الولايات المتحدة الأمريكية منذ البداية بأن الفوز بالعقول يمر بهذا الإلغاء لهوية الآخرين وهو ما يسمى بالمثاقفة واتسبدالها بهوية جماعية قيمة بنظرهم والتي بالطبع هي هويتهم. ولكي يصبح العالم أمريكياً يجب أولاً أن نقنع الآخرين بتفوق النموذج الأمريكي على ما سواه، بعد ذلك كان يجب شن حملات هجومية ضد كل ما يمكن أن يشكل تهديداً له.وبمساعدة مجموعة أصحاب المصالح الاقتصادية وأصحاب الثروات العالمي استطاع الأمريكيون الهجوم على أساسين لهوية الشعوب: الإرث الجماعي والأداة الثقافية والعاطفية التي تتيح للفرد إمكانية التفكير والحكم واتخاذ القرار.

إن الإرث الجماعي للشعب هو لغته وتاريخه ونبوغه ومكتسباته الفنية والأدبية والعلمية والقافية وتقاليده أيضاً التي تشتمل على نظام القيم لأي مجموعة بشرية والذي يتضمن سماته(30) الثقافية وعاداته وتقاليده وتراثه وطريقة لبسه وغذائه وأسلوب عمله ولهوه وتصوره طرق تسليته وحبه وموته والأداة تتكون من تصوراته التحليلية والاستنتاجية والجمالية وحساسيته وتفهمه التي تقوده إلى فهم شامل للعالم وإلى تطبيق عملي لتفكيره ولقراره أي في نهاية المطاف إلى اختيار اتجاهاته لممارسة أفعاله. وعند تزوير إدراك شعب ما لإرثه بإبعاد هذا الإرث شيئاً فشيئاً وإبداله بإرث مختلف عن طريق صناعة عادات وهيكليات تفسيرية نابعة من مصدر أيديولوجي غريب نكون بهذه الطريقة قد قمنا باستلاب روح هذا الشعب وتحويله إلى قطيع.

وضمن الإطار العام للهجمة الليبرالية على الصعيد الكوني تهدف إمبريالية الولايات المتحدة إلى جعل التقاليد والتذوق والرغبات ذات نمط واحد وإلى تسوية وتوحيد العادات والمظاهر وإلى القصور الذهني وإلى التطور التبسيطي الدولي. الهدف النهائي من وراء ذلك هو تقسيم البشرية إلى كتلتين متواجهتين: الأولى وفيرة العدد مؤلفة من الزبائن (المشترين والمستهلكين ودافعي الضرائب) اللذين يساهمون بأعمالهم بزيادة ثروات الطبقات المالكة وبدفع

---

(30) *الوحدة الدنيا للمعنى الثقافي غير الظاهرة، أي ضمنية وغير مدركة كما في علم الدلالة حيث أن السمات للغات الطبيعة لا تظهر في البنية اللغوية المستخدمة وتسمى بالوحدات الدنيا للمعنى.*

مسيرة المعمورة. الثانية قليلة العدد مؤلفة من الباعة (صناعيين وتجار وممولين ووسطاء تجار) اللذين يساهمون بشكل ضعيف بمسيرة تجمع ما، وهم بشكل أو آخر غير معنيين بهذا التجمع. فهم يكتفون بتقويم السوق التجاري من أجل قواتهم لأن باستثمار فوائدهم الضخمة يساهمون بخدمة مضاعفة الأرباح لصالحهم بشكل كامل. إن هذا التصدير الشكلي حتماً يتيح لنا قراءة فظة ولكن منسجمة مع الواقع المعاصر.

لكي يحافظ هذا النظام القائم على فعاليته كان عليه أن يعمل بعمق من أجل تفتيت كل ما يشكل الهوية الجماعية التي يراها عوائق لنظام التبادل. ولكي تفقد الشعوب في كل مكان والتي عرفت بمجموعات من رجال ونساء وأولاد يجمعهم ببعض ثقافة مشتركة تعمل فعلاً على تضمانهم لكي تفقد هذه الشعوب في كل مكان ردود فعلها الجماعية المغروسة في ذاكرة مجتمعها كان يكفي أن نحولها لكتلة أي إلى كومة مكدسة من الأفراد اللامباليين دون تميزيه ودون ثقافة ذاتية عديمي الجنسية مستهلكين في نظام التبادل مدعوين إلى الأداء الوظيفي داخل بنية محكومة فقط بالقوانين الاقتصادية. هذا المشروع لإقامة الكتل وصل إلى إقامة قانون الغاب وحرب الجميع ضد الجميع التي تشجع كسب الثروات وتنتصر لقانون الأقوى والأسرع والأقل تردداً والأكثر مكيدة والأكثر تسلحاً بعقلية الكسب والأكثر أنانية وذلك عن طريق إزاحة المنافس واحتكار السلطات واستغلال المنتجين المستهلكين. كل هذا يمر عبر تدمير النخب القادرة أن تقود سياسياً وتضيء ثقافياً الشعب. ويتم مثل هذا التدمير بشكل أكثر فعالية عندما تكون الطبقة المالكة تمسك بعصب هذه الحرب ألا وهو المال.

المعركة المقصود فيها هنا هي مواجهة بين الإنسان الاقتصادي الذي نذر نفسه لإله التجارة والمال والذي قرر أن يجعل من الكون سوقاً واسعة لا حدود لها والرجل المثقف الذي يرى أن سؤال سقراط: من أكون؟ هو السؤال الجوهري. إن منع الأفراد من طرح هذا السؤال أو عند طرحه نمنعهم من الإجابة عليه خارج الطريقة المخطط لها ذات الوجه الواحد والتي تم تكليفها، هذا المنع شكل القضية التي شغلت منذ الأزل الأنظمة الاستبدادية. وبشكل منطقي كان على الاستبدادية الليبرالية أن تنذر نفسها من أجل ذلك.

على سبيل الذكر الولايات المتحدة تقوم بالجمع بين الدور الرمزي للرأسمالية الليبرالية وبين الإرادة الإمبريالية التي عليها تأدية المهمة الإلهية التي

أوكلت إليها. وإذا لم ننس بأنه وفي كل مكان هناك شراكه موضوعية بين الكتل صاحبة المصالح وبين الولايات المتحدة وخاصة في سعيها للسلطة وهي شركاء بالذات في مؤسسات احتكار هذه القوة العجيبة لمجال الاتصال نستطيع حينها أن نتناول مسألة الاتصال بنظرة جديدة وذكية.

عن التزوير كفنّ هام:

لمـــاذا يمكـــن أن يشـــكل احتكار وسائل الاتصال ميزة حاسمة لمن يستطيع الإمساك به ؟؟ لأنه كما قلنا يمثل كامل الوظائف الذهنية للبشر وللشعوب إنه يشكل روحهم. يرتكز النجاح الأول الأمريكي في مجال الاتصال على تناقض ومفارقة. فـــرغم أنهـــا أمة مخاتلة وصلفة وشرسة(31) ومسؤولة عن عدة تدخلات خارج حدودهـــا الشرعية منذ نهاية حرب الاستقلال(32) كما أنها كانت موضع كراهية عدة شعوب إلا أن الولايات المتحدة ورغم كل هذا استطاعت أن تكوّن رأياً عاماً يؤيدهـــا. ويفســـر ذلك الدعاية والإعلام. فتزوير التاريخ والتلاعب بالإعلام وهما الـــلذان أدانهمـــا أورويل Orwell عام 1984 وهما ما كان يميز الأنظمة الفاشية والماركســـية كانـــا ودون معرفة الرأي العام في صلب الأساليب التي استخدمها الأمـــريكيون بدهاء. لقد كان ذلك بفضل عدة عوامل وهي: السيطرة الطويلة على الدعاية واحتكار وكالات الأنباء الدولية الكبرى وقوتهم المالية وكذلك أيضاً سلبية مؤسسات الإعلام والتربية والحكومات في مجمل بلاد العالم.

لقد تجلت الدعاية الأمريكية والدعاية الموالية لها في بداية الأمر من خلال الـــدور الذي قامت به الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية. دون شك لقـــد أدت أمـــريكا خدمة مميزة لأوروبا التي كانت ترزح تحت الحذاء النازي. آلاف الشباب قتلوا على شواطئ النورماندي وفي غابة منطقة الأردين من أجل تحرير الأوروبيين من الطغيان الذي كان لبعض مفاهيمه كنقاوة العرق والقضاء عـــلى الضعفاء عشية 1939 صدى مؤيد في بعض أوساط ما وراء الأطلسي. وتجبرنا الحقيقة أن نقول أنه من بين الفرق العسكرية الأربع للحلفاء التي نزلت عـــند شواطئ فرنسا في 6 حزيران 1944 كان هناك فرقتين فقط أمريكية وهي الفرقة السابعة بقيادة المايجور جنرال كولنـــز والخامسة بقيادة المايجور جنرال

---

(31) *نذكر هنا بقول ملفيل الذي ورد سابقاً*

(32) *انظر الملحق: التدخلات الأمريكية الرئيسية في العالم.*

جــرو. الفرقــتان المتبقيتان كانتا بريطانية (الفرقة 30 للجنرال بوكنل والأولى للجنرال كروكر والفرقتان ضمتا ألوية بريطانية وكندية). أهالي مناطق الإنزال كـــانوا عــلى معرفة بذلك حتى أن الأقاويل التي سرت حينها كانت تردد «نزل الـــبريطانيون! نزل البريطانيون!» فبالنسبة للجميع في ذلك الوقت كان المنقذون بـــريطانيون قـــبل كـــل شيء. حملة تغير الحقائق خلال 20-30 عاماً أعطت للأمـــريكيين فقـــط الشـــرف الكـــامل بتحرير أوروبا. بالواقع اتفق الأوروبيون والأمريكيون مصادفةً على عدد من القيم، وهكذا من جديد لم تتأخر الفرصة كي تـــأتي لتـــتيح لـــلولايات المـــتحدة أن تضع يدها على حلقة ثالثة مما ضمن لها الزعامة الدولية.

مصدر مثل هذه القراءة المعادة لتاريخ الحرب العالمية الثانية يكمن في أن الأمـــريكيين كـــانوا من أوائل من مارس الهيمنة على وسائل الإعلام الأساسية الـــتي بفضـــلها لـــم يتوانوا عن أن يفرضوا في كل مكان صورة وهمية عدائية للثقافات القومية. هذه الوسائل تتكون من وكالات أنباء ودعاية وسينما وتلفزيون ومن مؤسسات استفتاء واتصالات.لقد سمحت لهم السيطرة على وسائل الإعلام الأساسية أن يمارسوا بدءاً من فترة ما بين الحربين تأثيراً حاسماً على العناصر العظـــمى الـــتي تشـــكل الدائرة الروحية للشعوب: التقاليد والتربية واللغة هذه العناصـــر تشـــكل مجموع كل النشاطات التي يستطيع من خلالها شعب ما أن يتميز عن الشعوب الأخرى ويؤكد ذاته كونه فعلاً أمة فريدة.

في عام 1848 ولدت في الولايات المتحدة وكالة الأنباء الأسوسيتث برس (الصـــحافة المتحدة)تبعها بعد ذلك يونايتد برس الأسوسيتث (مجموعة الصحافة المـــتحدة) عـــام 1907 وانترناشيونال نيوز سرفس (وكالة الأنباء الدولية) عام 1909 وانضـــمت عـــام 1958 إلى وكالـــة يونايتد برس انترناشيونال (اتحاد الصـــحافة الدوليـــة). وإذا أضـــفنا إلى ذلك وكالة رويتر التي تنتمي اليوم إلى صـــحافة بـــريطانيا العظـــمى وأوســـتراليا ونيوزيلانـــد كمعظم الوكالات غير الأمـــريكية في العالم التي تكتفي في أغلب الأوقات بأخذ أخبارها من الوكالات الأمـــريكية نستطيع أن نحصل عندها على تكتل قادر أن يسيطر على 90% من الأنـــباء المبثوثة(33) وبواسطة الصحف الرئيسية ذات الصيت الدولي (نيويورك

---

(33) الوكالـــة التـــلغرافية السويسرية مثلاً لا تشذ عن هذه القاعدة فهي تستوحي برقياتها من الوكالات الأمريكية وقامت مؤخراً بنشر بياناً تهكمياً لخطاب فيدل كاسترو أمام أعضاء الحزب الشيوعي الكوبي.

←

تايمز الصادرة عام 1851 ونيويورك هرالد تريبيون) والمجلات (لريدير دايجست وناشينال جيوغرافيك مكازين والبلاي بوي والتايم ونيوز ويك) وشبكات التلفزة (أن.بي.سي - أي.بي.سي - وفي عام 1980 سي.أن.أن C.N.N المحطة الكونية الأولى) تمسك الولايات المتحدة بسلطة ذات أهمية لا يستهان بها تسمح لها منذ عشرات السنين بالتكيف بتفكير عدة مليارات من الأشخاص. فعن طريق الصحافة والسينما والتلفاز والراديو قامت طريقة تكيف الثقافة والتقاليد والإعلام والسياسة واستخدام القوة وحتى كتابة ولفظ الإنكليزية بالطريقة الأمريكية وإدخال هذه الطريقة في العقول.

إن وسائل الاتصالات حيزاً متميزاً للتحالفات بين الوسائل الاقتصادية وسلاح النشر الجماهيري وهذا ما وصل إليه التعاون بين وكالات الأنباء الأمريكية الموجودة في كل دول العالم خلال حرب الخليج: احتجاز الأخبار، إيصالها بالقنوات المختلفة بتحيز منهجي للروايات الأمريكية مرفقة بحملة من تسميم العقول(34). إن الأحداث التي سبقت الحرب مثلاً ما كانت إلا صدىً لما كان قد حدث سابقاً قبل الحرب الكورية أو الحرب في فيتنام(35).

سلاح الدعاية:

إن لم يكن الأمريكيون هم الذين اخترعوا الدعاية إلا أنهم بالمقابل هم الذين جعلوا منها سلاحاً فعالاً للتحكم بالجماهير وللغزو السياسي والاقتصادي والثقافي. فالدعاية التي استخدمت بشكل منهجي ومكثف بعد الحرب العالمية الأولى فرضت نفسها في كل مكان ولم تترك متراً مربعاً واحداً من الجدران واللوحات والواجهات وحتى في السماء بفضل استخدام الطائرات: فحولت الإنسان إلى أداة خاصة بها لترويج ميزات هذا النوع من السجق أو الشمع الملمع وانتشرت بشكلها المهين لرجل يحمل لوحتين إعلانيتين على صدره وظهره.

فكل جملة مبهمة لفظها رئيس الدولة الكويتية حولت إلى جمل ساحرة بما في ذلك ذكر تشي غيفارا الذي اغتيل بأمر من واشنطن منذ ثلاثين عاماً. إن سويسرا التي استوحت مباشرة دستورها من الدستور الأمريكي تقوم بشكل حقيقي بتغذية شغفها للولايات المتحدة وللنموذج الأمريكي.

(34) انظر الملحق.

(35) انظر الملحق.

ومهمـــا ظهرت ناعمة ولطيفة بالنسبة لعدد كبير من الناس لأنها أصبحت جـــزءاً من حياتنا اليومية إلا أن الدعاية رغم ذلك تشكل خطراً قد يستهان به إلا أنه قاتل. إن الطريقة التي صنع بها الأمريكيون الدعاية جعلتها خطيرة بطبيعتها وبأســلوب استخدامها وبانعكاساتها الناتجة عنها. وبما أن الدعاية ترتكز بالطبع ليــس عــلى المعرفة التي يجب أن نملكها عن الشيء بل عن اللذة التي نحصل عليها ومن جهة أخرى على المعين الوحيد وهو الارتياح الشخصي لذلك أدخلت إلى المنتج الذي تروجه الشعور بالسعادة الذي أمتد إلى مجمل نظرتنا إلى العالم الــذي تمــثله. فــي كــتاب «السعادة الملائمة» قال فرانسوا برون عن الدعاية بأنهــا:«تضــفي انعكاســات حمقاء على أناس أذكياء». وإعطاء مشاعر الفرح لــلواقع يــتم بطــريقة مضحكة لعوبة ملائكية وظاهرياً ليست عدوانية. ولأنها تتعامل مع كل شيء تتناوله على أنه سلعة لذلك فإن الدعاية تجعل رؤية الشيء معوجــة لدى من يخضع لها بخلق تناقض بين القيمة والنوعية الضمنية للسلعة وبيــن التقديم المبالغ به: في الحقيقة لا تقدم الدعاية أي دليل بأن السلعة هي حقاً تمثل ما يقال عنها.

الخطــر يصــبح أكــبر عــندما تستعمل الدعاية وسائل أكثر تضليلاً. إن الأســاليب الحاليــة بعــد أن أثبتت نجاحاتها في عدة مجالات (كاللغة المنمقة) وأصــبحت أكــثر فعالية بفضل تقنيات مهمة (صور مركبة) ضاعفت عشرات المرات الأثر الحاسم للدعاية على المشاهد أو القارئ. فعندما نربط نوع سجائر أو رائحــة عطر بصور تظهر فعل التدخين أو التطيب مع مشهد جميل وخيالي لكــنه طــبيعي المظهر صحي ساحر مع صورة أبطال (من يدخن أو يتطيب) جميــلين معــافين، تنجز الدعاية هكذا عدة عمليات بلاغية ذات أثر لا علاقة له بهــذا الالــتفاف الــذي يبقي صعب الإدراك من قبل عقل غير متمرس وقليل الحــذر. إن مسخ الواقع علناً عن طريق إعطاء ميزات مشهد ما وطبائع البطل الممثل للسلعة التي هي بالحقيقة تعرض الصحة للخطر (السيجارة) أو هي تافهة (رائحــة) – حتى لو كان من المفضل أن تكون رائحتنا طيبة لا نتنة – إن هذا المسخ يستطيع أن يؤثر بعمق على المخيلة لدرجة جعلها مضطربة. إن القصف الإعلانــي الــذي يجعــل المشــاهد أو المستمع وسيلة والصفعات التي تنتظر المتــنــزه عند كل زاوية شارع تسبب لمخيلة أغلب الناس المعاصرين أضراراً ضــخمة وعميقة. فعندما تحتل الدعاية بهذه الطريقة الحيز المكاني بحيث تصبح الأفلام والأخبار والأفلام الوثائقية والحوارات السياسية والثقافية ليست أكثر من

شـواطئ خياليـة في عالم دعائي غير محدود. حتى لو حاولنا تجاهل ذلك فإن الدعايـة سـوف تـؤدي إلى تهجير المخيلة الذاتية والجماعية (عنصر داخلي المنشأ) لتضع مكانه مخيلة أخرى (عنصر خارجي المنشأ).

إن مـا تفعله صفعات الإعلان هو تدمير ذري للحقيقة المرئية والمسموعة وتعـليب لـلواقع يضاف إليه بواسطة الالتفاف البلاغي المنمق الإلغاء الزمني الضـروري للتفكير ولهضم المعلومة المغلوطة المرسلة (والمسببة للسعادة). إن الـتورط السياسـي والاقتصـادي نتيجة ذلك يبدو كبيراً. سياسياً هي تؤدي إلى المـثاقفة (محـو ثقافة أخرى) بإبدال مخيلة بأخرى أي المخيلة المتعددة التمثل الخاصـة بالـثقافة الأوروبيـة بمخيلة أحادية البعد، تجارية نابعة من الاختزال الاقتصـادي المـلازم لليـبرالية. اقتصـادياً تقوم الدعاية بالتأثير على العقول بوضعها في قالب ذي بنية معدة هدفها تجاري بحث وتستخدم الغاية الوحيدة لكل خطاب، فهي لا تحترم أي شيء أو غير قابلة للتعبير عنها بأرقام السوق. وهكذا تختلط «عملية تشويه العالم» وخاصة العالم البشري المتوارث من آلاف السنين للحضـارة اليونانيـة اللاتينية المسيحية عن طريق التفاهات، تختلط بعملية قلب القيم وبالتحويل الأحادي البعد للكون.

السلاح التلفازي:

مـنذ أكثر من عشرين عاماً ارتبطت الدعاية بشكل قطعي مع التلفاز. لقد شـكلت الشاشة الصغيرة جزءاً أساسياً من تكوين جميع المنازل. وإن استخدمت بذكـاء فهـي تسـتطيع أن تكـون أداة ثمينة لاكتساب المعارف، وبالمقابل إن اسـتخدمت بـدون روية تصبح بدون شك أداة خبيثة. إن تعميم نظام البث عبر الكـابل سمح بالتقاط عشرات الأقنية وستصبح مئات بعد زمن قصير بل آلاف، وبالـبرامج المبـثوثة مـن جميع الأنحاء من المفترض أن تساهم بنمو البشرية والشـعوب وبالانفـتاح نحو الآخر والثقافات وطرق التفكير. إلا أن الواقع كان عكس ذلك.

لنسـتعرض بإيجاز الحرب الثقافية بين الولايات المتحدة وأوروبا (وخاصة فرنسا كهدف أساسي) والحرب التكنولوجية والعلاقة مع السينما.

التـلفاز هـو أداة قويـة للمـثاقفة، وتستخدمه كبرى التكتلات الإعلامية في الولايـات المـتحدة مدعومة في أغلب الأوقات من المسؤولين عن أكثرية القنوات

الأوروبيـــة. مــراجعة بســيطة للـــبرامج الرئيسية الفرنسية تعبر بوضوح عن هذا الواقع.

قـــناة عامة كالقناة الفرنسية الثانية France 2 تبث حوالي 300 دقيقة من البرامج اليومية التي تساهم تدريجياً بالدعاية للطريقة الأمريكية بالتفكير وبرؤية الغـــالم وهـــذا يحـــتل 25% مـــن البرامج المبثوثة. يضاف إلى ذلك الصفعات الإعلانية ذات الطابع الأمريكي – الليبرالي. إلى جانب هذه النسبة المئوية التي لا تختلف عنها النسبة المبثوثة على القناة الثالثة FR3 التي يتناقص دورها كقناة عامـــة فرنســـية وأوروبية شيئاً فشيئاً. هناك أيضاً النسب على القنوات الخاصة وهـــي معبرة. على القناة الفرنسية TF1 هناك حوالي 810 دقائق بث معظمها أمـــريكية أو أمـــريكية الشـــكل، ولأسباب تجارية تحتل هذه البرامج 67% من إجمـــالي البث. وإذا كانت القناة السادسة M6 تقدم لوحة مشابهة تقريباً إلا أنها تضـــاعف مـــن هـــذه الظاهرة عبر الأغاني المصورة Clips التي تولد تأثيراً مضـــللاً. أخبار ذات طابع موسيقي وكل شيء – بما في ذلك الإطار حيث يقف المغـــنون – يقوم على أساس الصور الهاربة ذات الحركة الدائمة وبالكاد تحبس الأنفاس من واحد إلى آخر وتمنع الانتباه والتفكير من التركيز.

كـــل ذلـــك ســـيكون له على المدى الطويل نتائج تضر بالملكة الضرورية لاكتســـاب المعرفة والثقافة، وهذه الملكة هي التركيز. فالعالم لم يعد يُدرك ككل بـــل كتسلسل احساسات مرئية ومسموعة عابرة وخاطفة إذاً، تافهة تحمل بذاتها قيمـــاً مشـــابهة لها لا معنى لها. وهكذا يبدو طالب المدرسة عاجزاً عن تركيز انتباهه لأكثر من خمس دقائق ويصبح عاجزاً دماغياً بهذه القدرة الضامرة على قراءة بلزاك وشتوبريان أو زولا. خيبة الأمل هذه حيث لا دليل لها ولا مراجع أكيـــدة تجعـــلها أن تهيم من فكرة إلى أخرى مع استحالة أن يستطيع أن يجمع بيـــنهما. لقد امتلأ عالمه بصور ملونة مصنوعة من أمواج زرقاء من شواطئ كاليفورنيـــا وبيـــوت فخمة مع مسابح لأغنياء فلوريدا ومن مخيمات الجامعات الخاصـــة عـــلى الشواطئ الشرقية أو على شواطئ المحيط الهادي. إنها صورة ممـــزوجة بمشاهد الفتيات بوجوه لينة وباستدارات سيلوكونية، رؤية العالم على هـــذا الشـــكل الـــتي فرضـــت مـــع مرور الأيام على الشباب بواسطة التكرار والجعجعـــة بلا طحين عن طريق دفعات من الصور والأصوات لا ترتكز على العالم كما هو بالواقع بل على مشهد العالم. فتنحي الحقيقة بغموضها وبتنويعاتها ليظهـــر بدل عنها رؤية كالبطاقة البريدية باردة وبسيطة ومتحركة. المشاهد هنا

لا يصبح أكثر من ناظر(36) عاجز عن أي ردة فعل ما عدا تقليده للصورة التي ترسل له كصورة عنه. هذه الصفة الأخرى للتلفزيون الأمريكي – الليبرالي التي هي التبادل السلعي المتمثلة بالبيع عن طريق التلفاز Téléshopping يطبع كل ما يعرض على الشاشة.

العلاقات الإنسانية تُختصر بأيديولوجية السوق عن طريق العرض والطلب وهنا تطرح نفسها الفرضية الأساسية وهي أننا نستطيع أن نحصل على كل شيء ولكن لكل شيء ثمنه. وككل مشاهد يستطيع إنسان نهاية هذا القرن أن يشبه بأي شخص من أولئك اللذين يمرون أمامه. إنه يستطيع أن يقرر اكتساب أي سلعة يستخدمها هؤلاء الأشخاص بشرط أن يشتري سيارة أمريكية مثلهم وبذلة من الحرير مثل أبطال المسلسلات الأمريكية ويشتري فيلا ومسدس وطائرة وخلاط ولم لا امرأة جميلة أيضاً. ولكي يحصل ذلك يلزمه بالطبع المال، لذلك يبدو من الضروري أن يتوفر لديه الكثير منه. هؤلاء اللذين يتبخترون أمام عينيه ألا يبرهنون له بشكل خاص أنه لا يوجد هناك أي شيء أهم من المال وأليست كل الوسائل مسموحة وكل المخططات مشروعة وكل الحيل مطلوبة لكي يحصلوا عليه بالحيلة كي يسمحوا للآخرين بالنيل منهم؟!! إنه انعكاس للنظام الذي يتطلب أن نصبح هذا البطل الذي نشاهده ونعجب به ونرتهن له. كل الحركات تصبح متجهةً نحو التبادل الوحيد الذي يستحق كل الاحترام، إنه التبادل الوحيد الذي يستحق كل الاحترام إنه التبادل السلعي، تبادل يفقر أكثر عند من الناس ويزيد بثروات الأقلية منهم. للمنتجات الأمريكية هذه جانب آخر مفسد فهي تدفع أيضاً للمنافسة وبما أن الشغل الشاغل للتلفازات الأجنبية وخاصة الأوروبية والبرازيلية أن تبحر باتجاه الريح فقامت تنسخ أكثر فأكثر الطرق الروائية والأدوات المكونة للمسلسلات الأمريكية وغالباً ما كان يحصل ذلك بشكل ممسوخ فمرة ضاربة طبلة باللباس العسكري الأمريكي تهز بأوراكها على طول الشوارع وأخرى طلاب يلعبون بكرة السلة يرسمون من جديد المشهد العمراني الفرنسي والإيطالي أو البرتغالي بألوان شوارع وجامعات الغرب الأمريكي جاعلين بهذه الطريقة الحدود مبهمة أكثر فأكثر بين عالمين قاما بتطبيع مراجعهما الثقافية: أحدهم الأوروبي وهو تابع للآخر: الأمريكي.

---

(36) فكرة الخطر من أن يصبح العالم عالم من الناظرين كان قد رفضها الكاتب آلان غريه في كتابه «الناظر».

المدفعية الهوليودية:

المعــركة بين الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا التي هي في وقت واحد معركة تكنولوجية وتجارية وثقافية بدأت منذ ولادة هذا الفن الذي سيصبح مهماً وهــو السينما. بداية الصراع كانت حول من هو الذي اكتشفه فكانت المواجهة بيــن الأخويــن لومبر وتوماس أديسون. وكما برهنت مؤخراً معركة اكتشاف مــرض الســيدا لا تقبل الولايات المتحدة بسهولة أن تعطي أبوة الاكتشاف في بعــض المجــالات المهمــة لأحــد غيرها وخاصة إذا كان هذا التصرف يدرّ الأربــاح. ففــي مجــال السينما السنعفة هي من حق أوروبا وعندما احتل ليون غومون Gaumont وشارل باتيه Pathé المركز الأول في السوق الدولية كظم الأمــريكيون غيظهــم والحقــد يملأ قلوبهم. ولما ولدت السينما الناطقة استطاع الأمريكيون جذب كل النجوم والمواهب الأوروبية الواعدة في المسرح والسينما، 80% من الأفلام الهوليودية التي عرفت شهرة واسعة في فترة ما بين الحربين لــم يكــن لهــا أبــداً أن تحقق ما حققته لولا المبدعين مثل شابلن وهيتشكوك وستنبرغ وعشرات غيرهم أو ممثلين وممثلات مثل أنغريد برغمن وبول برينر وشــارلي شابلن ومادلين ديترش وأرول فلاين وغرتا غاربو وكاري كرنت ... إلخ بعضهم كمارسيلو ماستروياني كان له شرف مقاومة هذا الجذب.

أدرك الأمــريكيون مبكراً جداً الدور البارز الذي يمكن أن تلعبه هذه الأداة المؤثــرة على العقول لتسحرها وتفرض على العالم صورة إيجابية عن النموذج الأمــريكي. وهكــذا وإلى جــانب المال ميزت البساطة المانوية(37) والفعالية بالتصوير الأفلام الهوليودية. وتشكل ظاهرة والت ديزني مثالاً صارخاً في هذا المجــال. والــت ديــزني المتعاطف مع النازية والمهاجم في لجنة مكارثي كل أولــئك الــلذين يــتهمهم بالشيوعية لم يخترع الصور المتحركة ولم يكتب حتى ســيناريوهات أصــلية. عرف ديزني (مدفوعاً بروح الاستثمار وبموهبة رجال الأعمــال الحادة) كيف يستفيد من اختراع فرنسي لم تعطه فرنسا أهمية مستغلاً الجاهــزية الماليــة الكــبرى لأمريكا بعد الحرب العالمية الأولى فأقام مصنعاً ســينمائياً ضــخماً. ويجــدر بنا هنا أن نعترف لديزني ولكل من وضعهم حوله ببراعــته بالوصــول إلى نوع من الإتقان في تحريك الرسوم وفي حركة التنقل

(37) *نسبة إلى ماني الفارسي صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام.*

وفـــي فعاليـــة تحـــريك العواطـــف وكذلـــك في إضفاء روح النكتة والبساطة والمباشـــرة. إنـــه متكـــلف الشاعرية ولكن عند القراءة السطحية له يبدو مؤثراً ظريفاً ساحراً، السبب الذي يجعل من تحفة ديزني عند تحليلها موضوعاً ذا أثر مخـــرباً. فجماليـــة الصور المطبوخة وعفوية التعاطف والمعاداة مع الشخوص المـــأخوذة ولكن بالطبع بدرجة أعلى من مسرح بن جونسون (1573-1623) جعـــلت المشـــاهد مجـــرد ناظراً سلبياً تمت السيطرة عليه بسهولة. ومنذ البداية يعرف ما يؤاجه فالطيبون والسيئون معروفون من النظرة الأولى والمشاهد يعلم أن الولايات المتحدة الطيبة سوف تنتصر بالنتيجة.

إن قراءة روايات بيرّو Perroult وغريّم Grimm ومقارنتها مع ما تقدمه والـــت ديـــزني أو حـــتى قراءة الرواية الفنية والمعقدة لرواية نوتردام ده باري ومقارنـــتها بفيـــلم أحدب نوتردام تتيح لنا أن نفهم كل انحرافات عملية الاقتباس وإعـــادة الإنتاج. لقد صنع ديزني من روائع عالية المستوى تحتوي على أبطال يتمـــتعون بصـــفات داخلية معقدة قصصاً ذات صور مبسطة وطفولية بتصوير جـــذاب وحـــوارات مرة ملائكية وأخرى مخيفة لبناء عالماً نموذجياً مانوياً. لقد كـــان جـــان بيـــر شـــوفنمان عـــلى قدر كبير من الحق عندما رأى بأن الثقافة الأمـــريكية بأســـلوبها الـــتي اعتمدته في استوديوهات ديزني بإنتاجها حكايات وأساطير أوروبية إنما تقوم بعمل خطير وهو «أنها تحتفظ بالقصة ظاهرياً ولكن تحول معناها العميق لاستغلالها لخدمة نظام قيمها (كالفردية والاستهلاكية) بعيداً كـــل الـــبعد عـــن النموذج البنيوي القائم في المجتمعات الأوروبية». وكامتداد للـــنموذج الأمـــريكي ولأيديولوجيـــة السوق وخطورته لأنه في الغالب جذاب، وسعت أفلام الصور المتحركة بدورها تأثيرها بإقامة مؤسسات ديزني لاند التي تهـــدف أن تنغرس في كل أنحاء الكرة الأرضية. يقول الفيلسوف أندريه كونت ســـبونفيل «ليست أورو ديزني بالطبع إلا نقطة ماء – ربما كانت أكبر قليلاً من غيرها – في المحيط الذي يكاد يغمرنا بل أستطيع القول أنه قد غمرنا وأغرقتنا فعلاً».

تمتـــلك الإنـــتاجيات الهوليودية الضخمة جزءاً لا يستهان به من مشروع المـــثاقفة الـــتي بـــدأت بـــه الولايات المتحدة. يشهد على ذلك أسلوب التلاعب بالـــتاريخ الأوروبـــي وإعادة تركيبه بألوان وجهة النظر الأمريكية. لقد صور التاريخ الروماني في فيلم رائع ولكنه غير شريف على الصعيد الفكري، إنه فيلم Cluo Vadis (كـــلوفاديس) وهو يقدم البرهان على ذلك، أخرج الفيلم وعُرض

علـى الشاشـة الكـبيرة فـي جميـع أنحـاء العـالم في عام 1951 وشكل مـثالاً ممتازاً على ما تستطيع الولايات المتحدة عبر صناعة السينما فعله بثقافة الأمم الأخرى. ديكور مذهل وثياب فاخرة، صورة مدهشة لعظمة وجمال روما القديمة. الأبطال كانوا رائعين (أغلبهم إنكليز) والجو فخم وملتهب في آنٍ واحد: كـل شـيء وجـد حتى يؤثر في العقول. كل شيء صنع فنياً وتقنياً لكي يقطر بفعالية سماً نافذاً ولكنه قاتلاً. لقد استعار ميرفن لروا (1900-1987) الذي ولد فـي سـان فرانسيسـكو والـذي وصفه اوستينوف في (دير مي Dear Me) باللامثقف، سيناريو كلوفاديس من رواية لهنريك سينكيفز وهو كاثوليكي بولوني متعصب، وتجهد الرواية والفيلم من أجل إعطاء الإمبراطورية الرومانية صورة مشـوهة مبسـطة ومغايرة للواقع بشكل يحمل أغلب المشاهدين الجاهلين على الخـروج من هذا السفر في القرن الأول بعد الميلاد مشوشين ومعادين لروما. يكفـي أن نذكـر هنا مقدمة الفيلم لنفهم ذلك حيث تعرض فرقة عسكرية قاسية ومعجـرفة تجـر وراءها قطيعاً من الرجال المقيدين بالسلاسل وينهال الجنود عـليهم ضرباً بالكرباج دون أي سبب ظاهر وبعد لحظات يسقط بعض السجناء أرضـاً بعـد أن انهـارت قواهـم ويدهسـون فوراً بأرجل الجموع الجريحة والمضـطربة. ويـأتي صـوت من الصالة ليصرخ بصوت لاذع ضد خيلاء الإمـبراطورية الـروماني: لُحسـن الحظ ولد المخلص الذي سيعيد الحق. هذه الطـريقة رغـم فعاليـتها ولكـنها لن تستطيع أن تصمد أمام التحليل التاريخي الصحيح ولكن لا يقوم بهذا التحليل إلا حفنة قليلة من المشاهدين.

لأوروبـا نصيبها بالطبع من سيطرة السينما الأمريكية منذ الثلاثينيات. لن نتكـلم هـنا عـن المبدعين والممثلين الذين كان عليهم أن يهربوا من الأنظمة الاسـتبدادية ليسـاهموا بالنهوض العظيم للسينما الألمانية والإيطالية والإسبانية والنمسـاوية بنسـب مختـلفة ولا عـن مضمون الأفلام حيث تظهر السيطرة التكنولوجية والمالية والتجارية على عالم السينما. يكفي هنا أن نذكر فقط تاريخاً مأسـاوياً وهـو عام 1947 عندما أُجبر رئيس الحكومة الفرنسية ليون بلوم أن يمـنح مقـابل إعانة مالية خاصة موافقته على إعطاء السينما الأمريكية وضعاً مميزاً.

مـنذ ذلـك الحيـن دخـل نموذجان في عالم المنافسة، فمن جهة النموذج الصـناعي الأمريكي الذي لا يحترم كثيراً الابداع والمبدعين والذي كان ينظر إليهمـا كسلع وكان ينوي سحق الجميع ويطالب دائماً بحيز أكبر وبحقوق، أكثر

ومـــن جهة ثانية النموذج الفرنسي الذي يرتكز على مفهوم أكثر ثقافية. الوضع الحـــالي بـــات معـــروفاً وخاصة بعد معركة الغات GATT الخاسرة من قبل الأوروبييـــن بالرغم من المظاهر. ففي فرنسا مع أن وضع السينما أفضل عليه ممـــا هو في إيطاليا وفي ألمانيا، تتمتع الأفلام الأمريكية بحرية كاملة بالتوزيع. بين 70-80% من الأوقات المتاحة للعرض في التلفاز كما في صالات السينما تحتـــلهما الأفلام الأمريكية كما أن الشركات الخمس الأوائل لتوزيع الأفلام في أوروبا هي شركات أمريكية(38).

مقارنـــة سريعة في هذا المجال يمكنها أن تقدم لنا فكرة واضحة، في عام 1992 فـــي الوقت الذي عرض على شاشات السينما في الولايات المتحدة 492 فيـــلماً أمـــريكاً مقـــابل 27 فيلماً أجنبياً فقط كان لها حق الدخول إلى الصالات الأمـــريكية. فـــي عـــام 1983 35% مـــن بطاقات دخول السينما كانت لأفلام أمـــريكية. ووصـــلت النسبة إلى 57% عام 1993 بينما تبلغ هذه النسبة 71% على مستوى أوروبا حتى أنها وصلت إلى 80% عام 1996. بالمقابل لا تحتمل الولايـــات المتحدة في بلادها أكثر من 1 - 3 % من الأفلام الأوروبية، وهناك شروط قاسية توضع في وجه دخول هذه الأفلام. ومن جهة أخرى مقابل موجة النســـخة الأصلية التي تلقى عندنا في أوروبا إقبالاً كبيراً جداً بالأصالة واحتراماً للمخرجين غير الناطقين بالفرنسية ومن أجل دبلاج أكثر أمانة للحوار الأصلي، نـــرى المشاهدين الأمريكيين يرفضون في آن واحد الدبلاج والترجمة المكتوبة فـــتعرض الأفـــلام الأجنـــبية بنسختها الأصلية في صالات صغيرة لا تشد إليها الجمهور الواسع. كما أن هناك تراجع في النظام التعليمي الأمريكي لدرجة أنه يجب دبلجة حتى الأفلام البريطانية وإلا لن تفهم من الجمهور الأمريكي.

فـــي أوروبا اختفت معظم الإنتاجات الوطنية في هاوية الصناعة السينمائية الأمـــريكية : 85% من السوق الألمانية هي سينما أمريكية وتحولت استديوهات بابلســـبورغ العظيمـــة في برلين إلى صالات متاحف بعد أن أنتجت سلسلة من الـــروائع في عالم السينما مثل الملاك الأزرق أو السيد الملعون أو لونوستر انو لمـــرنو. فالشروط الأمريكية لفتح أسواقها في هذا المجال هي شروط انتحارية

---

(38) في بـــلد مثل بولونيا واحد بالمئة فقط من الصالات مخصصة للأفلام الوطنية، أما باقي الصالات فهي لاحتكار الأفلام الأجنبية وبشكل خاص الأمريكية. أما في هنغاريا النسبة هي 3% للأفلام الوطنية و 97% للأفلام الأخرى.

بالنسبة للبلد الذي يقبل هذه الشروط. ويمجد جاك فالنتي زعيم الشركات الأمريكية استخدام قانون الغاب في هذا المجال (بالرغم أنه يناضل كي لا يُعمل به في بلاده) أنه يعلم أن الاختلال الكامل للأنظمة سيمنح الصناعة الهوليودية السيطرة المطلقة على السينما العالمية.

تملك الحكومة الأمريكية حصتها في مثل هذا المشروع، فعندما يقوم المنتجون باغراق السوق في العالم بالأفلام السينمائية والتلفازية بدءاً من السوق المحلية، فهم يحاولون علناً خنق المنتجين الآخرين والأعمال الوطنية مبعدين تدريجياً المضمون الثقافي التقليدي واحلاله بمضمون الأيديولوجية الأمريكية، كما حدث عام 1992 حيث عرضت المحطات الفرنسية 200 ساعة من الصور المتحركة مقابل 200 ساعة من إنتاج أمريكي أو ياباني عندها نستطيع أن ندرك بأن المعركة ليست متساوية. وبعيداً عن عملية احلال صور أجنبية مكان صور فرنسية مشابهة ، فعندما نعرض صور متحركة أعدت بواسطة الحاسوب بأسعار رخيصة نكون بذلك نعمل على تعويد المشاهد الأوروبي على طريقة معينة من التفكير. وعندما تفرض شركة كولومبيا الحصول على حق توزيع الأفلام الأمريكية بمفردها في أوروبا، وعندما تفرض الشركات الأمريكية الكبرى إفساح المزيد من المساحة الإعلامية للمنتجات الثقافية لبلادها فهي تساهم في مشروع تهديم الهوية الوطنية للدول الأخرى عن طريق توحيد مستوى الذوق والبنى الفكرية(39).

لقد سبق أن أعلنت الشبكة الأمريكية لتوزيع الأفلام السمعية البصرية AMC عن نيتها في بناء مجمّعات تحتوي كل واحدة منها على عشرين صالة وذلك في دول العالم كلها. في باريس وقّع مكتب الشبكة اتفاقاً مع أونيفرنس بحجة تشجيع تسويق الأفلام الفرنسية في الولايات المتحدة ومقابل ذلك تعطى

---

(39) *عندما نشاهد فيلم كرتون فرنسي مثل «الملك والعصفور» لبول غريمو ثم نرى مباشرةً لساعات طويلة بل لأشهر وسنوات رسوم متحركة يابانية وأمريكية (طبقاً للنسبة مع الإنتاج الأوروبي) نتأثر فعلاً بالتناقض ما بين الأكوان المعروضة. إن رائعة غريمو هي نموذج للعمل الذي تتنافس فيه الشاعرية والعمق الفكري وهذا ما يميز الفكر الأوروبي المركب الذي لا يمكن أن يكتفي بتفسير بسيط أحادي البعد. أما مستويات القراءة فهي غنية ذات معانٍ متعددة ومرجعية هادفة. بالمقابل الرسوم المتحركة الأمريكية الممتازة التقنية (وربما لهذا السبب) تدهشنا بالبساطة الجارحة بتقديمها الواقع، والرسوم اليابانية تتميز بالعنف الذي لا يمكن إلا أن يترك أثاره المدمرة والدائمة .*

للأفلام الأمريكية حرية واسعة في الأسواق الفرنسية. في هذا السياق يبدو رأي المخـــرج السويســري آلان تانر أنه نير، لقد قال «إن هوليود نجحت ليس لأن أفلامهـا أفضــل بــل لأن الأمر يتعلق بآلة حرب مدهشة تغرق العالم بصور عدوانيـــة تحمــل أكـــثر فأكـــثر أيديولوجية فاشية» بفضل المليارات والتقنيات الخاصة. علينا أن نعلم أنه في سويسرا يبدو الأمر عادياً عندما تعرض صالات المديــنة تســعة أفلام أمريكية من أصل عشرة أفلام، أما الفيلم العاشر ليس من الضروري بأن يكون أوروبياً.

المــنحى الذي اتخذته السينما الأمريكية في نهاية الثمانينات يثير القلق، لقد ولى بعيداً زمن الروائع الأمريكية الناقدة والخلاقة كأعمال فورد وكاسافت ومان وهيوستون وولز أو حتى كفيلم «هير» الذي عارض تدخل أمريكا في فيتنام أو فيلم «الرقص مع الذئاب» لكوستنر (يحاول أوليفر ستون اليوم أن يكون استثناءً ســعيداً). فمــنذ عشـــر سنوات امتازت سينما ما وراء الأطلسي وفي آنٍ واحد بسوقية محتواها وبحربها التجارية المدمرة ضد دول العالم.

اعــتمدت سوقية المحتوى على فظاظة المواقف واللغة التي انحسرت إلى أبســط تعابيـــرها كالتقــليد الصـــوتي والشتائم والكلمات البذيئة. واتخذت البنية المانويـــة التي ميزت السينما والفكر الأمريكي بعداً مبالغاً به. لقد أصبح العنف دائماً متجاوزاً حدوده والقيم المسيحية اتخذت فقط شكلها المزدوج البعد أي هناك دائمـــاً خطر أساسي (الشريرون) يهدد العالم فتقوم الولايات المتحدة أو رئيسها (الطيبون) بإنقاذه.

لقـــد عرضـــت بذكاء دراسة أجريت مؤخراً الآلية التي تقوم عليها معظم الأعمال الأمريكية موضحة أن مبدأها الأساسي هو عملية استعادة قانون أرسطو حـــول تهذيب النفس والإيقاع الجامح تولد شعوراً مزيلاً للقلق قادر أن يجد حلاً للـــتوترات الميتافيزيقية التي تتجاوز الجمهور الذي هو بالأصل أمريكي (ولكنه ليـــس فقـــط أمـــريكياً) وقدراته بالإمساك بثقافته تراجعت شيئاً فشيئاً ويفقد أكثر فأكثر إدراكه لهويته بارتمائه على عتبات بدائية وغريزية لحقيقته النفسية. وكما كـــتب مؤخـــراً أحد النقاد حول فيلم «كون أير» وفيلم «ذي فان» فقال: «تحول الظاهـــرة التكنولوجية الخالصة هذين الفيلمين إلى شريط غنائي تسجيلي (كليب) لمحطـــة تـــلفزيون MTV والذي هو أحقر ظاهرة تلفزيونية عالمية». علينا أن نفهم إذاً بأن على الفيلم أن ينطلق بسرعة تتضاعف أكثر فأكثر وأن يحتوي على أكـــبر عـــدد ممكـــن من المشاهد القصيرة. فإذا تابعت السينما سيرها على هذا

الطريق سنرى قريباً أفلاماً طويلة مؤلفة من سلسلة من الصور التي لا تستطيع العيـــن أبـــداً تسجيل محتواها: لقد انتهى عصر الديكور وانتهى عصر الملابس وانتهى عصر الممثلين وبقيت فقط اللقطات السريعة المنومة مغناطيسياً.

يرتبط هذا الفقر العدواني للمحتوى بالميل لسياسة احتكار الأقليات للتوزيع. إن معظـــم الســـوق الدولية اليوم يعود ملكيته إلى ست شركات أمريكية التي لا تتأخر باستخدام سياسة التحميل أي شراء أحد الأفلام الأساسية ويجبر المشتري أن يحمل معه سلسلة من الأفلام الأخرى الهابطة والتي لا يمكن بيعها بغير هذه الطريقة. ومقابل هذا التهديد تتخذ أوروبا موقفاً تافهاً وتتبع سياسة تدمير ذاتي.

لقد بات قريباً اتخاذ قرار إلغاء الحصة النسبية التي تجبر التلفزيونات على عـــرض كمية دنيا من الأفلام الأوروبية. يؤدي هذا الإلغاء على المدى القصير إلى فقـــدان حوالي مليون فرصة عمل وعلى المدى البعيد يؤدي بكل بساطة إلى فقدان كل السينما الأوروبية الأصلية.

السلاح المطلق: احتكار عالم الاتصالات

يضاف لدى الأمريكيين إذاً احتكار عالم الاتصالات إلى جانب الاحتكارات الاقتصـــادية والعســـكرية. الرهانات المغطاة من قبل هذا الاحتكار هي رهانات أساســـية ليـــس فقط كما يؤكد فرانسوا لوتر «بسبب قوة النمو في هذا القطاع» وليـــس أيضـــاً «بســـبب أن نمـــوه يـــتحكم ببنية طرق الإنتاج والاستهلاك في المســـتقبل» ولكـــن لأنه يؤدي إلى السيطرة على الأدمغة والذكاء والاحساسات. فعمـــلية زرع مئات الأقمار الصناعية حول الكرة الأرضية ليس هذا وحده كافياً لإغـــراق العالم بالأصوات والصور، المطلوب أيضاً ألا تقوم الدول بتشويشها. فإن قررت حكومة ما باسم الخصوصية الثقافية والحفاظ على الهوية الوطنية أن تمنع التقاط الموجات تكون بذلك قد أدت اللعبة بمهارة.

أما السؤال المزدوج: هل تريد الولايات المتحدة ضمان سيطرتها على عالم الاتصال ؟ وهل تستطيع القيام بذلك؟ الجواب إيجابي في الحالتين.

هي تريد ذلك هذا لا يقبل الجدل أبداً، فالرئيس كلينتون ونائبه آل غور أكدا بـــأن إحـــدى المعـــارك الأساسية للولايات المتحدة هي معركة «الأوتسترادات الإعلاميـــة Information superhighways». السبب المعلن هو اقتصادي، باعتراف آل غور تدر السيطرة على هذه الطرق في غضون عشر سنوات مئة

مليار دولار كما أنها من جهة أخرى ستعمل على إيجاد أكثر من مليون ونصف فرصة عمل من الآن وحتى عام 2003. ولكن هناك سبب آخر ألا وهو السيطرة على الاتصالات العالمية. في نهاية عام 1996 أكد جوزيف س. ناي العضو السابق في البنتاغون وهو اليوم على رأس مدرسة كينيدي في هارفرد بأن «أمريكا وبفضل قدرتها التي لا مثيل لها بالدخول بدوائر الأنظمة الإعلامية سوف تؤمن في مستقبل قريب سيطرتها السياسية على العالم».

هل لديها الوسائل؟ يغطي مصطلح «وسائل الإعلام المتعددة» من طرف إلى آخر من السلسلة أدوات كثيرة التنوع من المكونات والمصنعين ومجالات السيطرة والمضامين والتوزيع وتأثيرات الاتصال. وفي كل مجال من هذه المجالات تكاد الولايات المتحدة أن تحقق السيطرة عليه.في مجال المكونات يبدو الرهان أساسياً إن كان فيما يتعلق بالإنتاج أو المراقبة، فقد ضمنت المجموعة أو المجموعات القادر على السيطرة ميزة لا يستهان بها في مسيرة السباق للسيطرة على مجمل سلسلة الاتصالات. فالحاسوب والهاتف والتلفاز من جهة والبث السلكي والأشرطة الدقيقة والرقائق والموجات والأقمار الصناعية (الوسائل) من جهة أخرى وأخيراً استوديوهات السينما والإعلان والصحافة والتأهيل (مضمون) كل ذلك شكل المجموعة التي تشحذ كل المطامع. فقط من أجل الامتلاك والإنتاج والتوزيع تم إنشاء شركات احتكارية عملاقة. ففي الولايات المتحدة انطلقت عام 1982 عملية الليبرالية بتفكيك المحمية الاحتكارية A.T.T. ونتائجها باتت معروفة.

وهكذا عقدت شركة مايكروسوفت حلفاً مع أي.بي.أم IBM لضمان السيطرة على السوق العالمية للحواسيب. فالحاسوب كأداة رئيسية في التواصل مستقبلاً فيما بين القنوات سيسمح بتجميع الألعاب والأفلام والأخبار والدعاية والتأهيل في كتلة اتصالية متداخلة. أما التلفزيون فهو الرهان في حرب خسرتها مسبقاً أوروبا على مستوى البرامج وكذلك على المستوى التكنولوجي.

مع الـCNN الشبكة الدولية الأولى أغرق تيد ترنر أكثر من 80 مليون عائلة في أكثر من 142 بلداً بالأخبار التي هي صوت أمريكا وعيونها وارتفعت الأرباح من 1.2 مليار فرنك عام 1993 إلى أكثر من ثلاثة مليارات فرنك عام 1995. القناة الفرنسية الأولى (TF1) والتي تشكل مع القناة السادسة (M6) موقعاً متقدماً للولايات المتحدة في فرنسا بسبب دوافعها التجارية الصرفة اتبعت خطى أمريكا بطريقة لا إرادية وأسست محطة LC1 التي لم تكتف فقط بتقليد

الـــنموذج بل استوحت منها المضمون وكشبكة الـــCNN استخدمت الـــLC1 أســـلوب احـــتكار النشـــرات السريعة لتقنع المشاهد باللجوء إلى اللعب بجهاز الـــتحكم. في هذا الصدد يقول رئيس تحرير الـــCNN «عندما يرى المشاهدون في زاوية الشاشة عبارة (مباشر) يتوقفون عن تغيير المحطات لبرهة. وقبل أن يتســـلل الملل إليهم نقوم بعرض تقرير مباشر آخر مع صحفي مختلف. فإذا كنا نـــريد فعلاً أن نكسب المزيد من المال، يجب أن يتابع المشاهدون برامجنا لكي يشـــتروا منتجات من يمول إعلامنا»، يساهم تجزئة الأخبار بشلل ملكية التركيز لدى الأفراد وبذلك يسهل التحكم بهم. ولكن السيد ترنر لا يتوقف عند هذا الحد، فبفضـــل قمـــره استرا ASTRA ومحطة الصور المتحركة نت وورك Net work التـــي تبـــث علـــى مدى 24 ساعة في الـــ 24 ساعة فهو ينثر الصور المـــتحركة «هانـــا وبـــربارة» وأفـــلام شركة MGM بواسطة محطته للأفلام السينمائية TNT في أنحاء العالم(40).

الحـــرب التكنولوجـــية هـــي أيضاً خسرتها أوروبا. لقد استخدم اليابانيون والأوروبـــيون الـــنظام التماثلـــي لتطوير بثهم التلفزيوني المستقبلي. لقد تعالت الأصوات في أوروبا للتحذير ضد هذا الخيار للنظام التماثلي ولكن دون جدوى فهي لم تمنع الخسارة الكبرى. أما الأمريكيون فقد اختاروا النظام الرقمي.بهدف أن يجعلـــوا مـــنه نظاماً عالمياً، وبالتعاون مع مجموعة تجارية كبرى اعتمدت اللجـــنة الفيدرالـــية للاتصالات بشكل نهائي النظام الرقمي ونتيجة لذلك وبفضل الضـــغوط (ابـــتزاز اقتصادي وتهديد سياسي ... إلخ) كسبت الولايات المتحدة اللعبة. أما في المجموعة التي تتألف من AT&T و NBC وZenith وMIT اخـــتارت فيلبس الأوروبية النظام الأمريكي (نذكر هنا أن مدير فيلبس في شمال أمريكا هو جي.بيتر بنغهام).

يستنفر البث السلكي والرقائق الإلكترونية طاقات لا يستهان بها، سيتمكن الأمريكـــيون بفضل الرقائق الإلكترونية أن يضمنوا السيطرة المطلقة على البث الســـلكي (الكـــبل) كما حدث في البث التلفزيوني ذي الدقة العالية. العملاق انتل Intel مع رقائق البانتيوم Pentium والشركة المتحدة: أبل-أي.بي.أم Apple-IBM مع بي.سي. PC سيحتلون المراتب الأولى لصناعة تجهيز الحواسب مما

---

(40) بهـــذا الصدد تبدو بريطانيا العظمى مساعداً قيماً لأن البريطانيين يشكلون رأس الحربة الأمريكية في أوروبا الشمالية فمحطة سبرتشنل مثلاً قامت بشرائها المحطة الأمريكية CNBC.

سيســمح بــرؤية آلات فيديو تتمتع بصفات مشابهة للتلفزيون. ونضيف لذلك ما يعرف «بكليبر شيب» وهو طريقة جديدة بالتشفير تسمح بتشفير الصوت آلياً أو تشــفير معطــيات سرية وإدخالها في الحاسوب وتشفير فاكس أو هاتف. يتعلق الأمــر بجملــة مــن الأسرار من كل الأنواع: مصرفية وقضائية وطبية وحتى عسكرية وسياسية، إن «الكليبر شيب» قد تم اختراعه في الولايات المتحدة وهو يحــتوي علــى مفاتــيح تسمح للمستخدم أن يشفر أو أن يفك رسالة ما، إلا أن الحكومــة الأمريكــية احتفظــت بنسخة ثانية عن المفتاح لتستطيع في حال أي مخالفــة أن تــتعرف على الشخص المشفر والشخص الذي له علاقة بالرسالة المتبادلة.

تمــتلك بعض الدول أنظمة تشفير وتفكيك من نوع دي.إي.أس DES وهو النظام الأمريكي القديم. هذا ما نجده في سويسرا مثلاً حيث تتعامل المصارف مــع الأســهم المالــية بواســطته، ولكــن ليس فقط المُصنع بل تعمل الحكومة الأمريكــية على فرض «الكليبر شيب» في كل مكان بدلاً عن الأنظمة التقليدية. وتجتهد الدول الأمريكية الزبون الأساسي لــ «الكليبر شيب»على جعل الأنظمة القديمــة لاغية ملزمة المستخدمين اعتماد الرقائق الإلكترونية الجديدة لتجنب أي تعارض. وإن لم يتوصل النظام الجديد من فرض نفسه فإن الحكومة الأمريكية تفكر بإبطال الأنظمة الأخرى.

وبمــا أن الحكومــة الأمريكــية تعــي أهمية الفرصة المتاحة عن طريق ممارســة السيطرة السياسية الحاسمة فقد صممت على مساعدة الموزعين بنشر الــرقائق الإلكترونية الجديدة مستعدة مرة أخرى أن تخرق قوانين الحماية التي فرضــتها وذلــك بتقديم تسهيلات عبر مساعدات مالية حكومية مقنعة للحصول على تصاريح للتصدير(41).

لــدى الدولــة الأمريكــية في هذه الحرب الخفية الجياشة كثير من الحلفاء الأقويــاء بشــكل مجموعات صناعية ومالية التي تؤلف فيما بينها تحالفات غير قانونــية ومدانة على الصعيد الأخلاقي. من بين هذه المجموعات العملاقة التي

---

(41) إذا توصــلت الولايات المتحدة أن تفرض على المصارف والإدارات ومديريات الشرطة والمخابرات ومراكــز البحوث العلمية في الخارج باقتناء «الكليبر شيب» فسوف يدق الناقوس مهدداً استقلال الأمــم وحريات الشعوب التي أصبحت وهمية أكثر فأكثر. لقد بدأت المعركة فعلاً لأن وزارة العدل الأمريكية قد تقدمت بطلب للحصول على 50 ألف خط هاتفي مزودة بالرقائق الجديدة.

تشـــكل ألوية المعركة هناك مثلاً شبكة البث السلكي TCI و(تايم ورنر Time Warner) حلـيفة (يـو.أس. وست US West) وعملاق البث السلكي فيكوم الـــذي امتص شركة برمونت آخر شركة سينمائية هوليودية مستقلة وذلك مقابل مبلغ غير معقول وقدره 100 مليون دولار. إن فيكوم-برمونت هي الأولى في العـــالم على صعيد توزيع أشرطة الفيديو، وبلوكبستر انترتنمنت التي تصل مع شركة MTV الإنكليزية إلى 230 مليون مشاهد في العالم تحتل المركز الثاني على الصعيد العالمي لأن تايم ورنر استولت على المركز الأول.

أمـــا مـــيديا لاب ميت في بوسطن فهي مخبر للأبحاث بفضل المساهمات الثميـــنة للباحثيـــن الأوروبيين الذين لم تعد تشغلهم مصالح القارة العجوز ومن الآن يـــبدو أن نتائج هذه المساهمة حاسمة. وشركة الاتصالات هوكز هي اليوم تســـتعد لإطلاق تجربة نظام جديد للأقمار وهو التلفزيون المباشر Direct TV الـــذي سيبث 150 قناة. المجموعة مؤلفة من أي.تي. أند تي AT&T وسيلكون غرافـــيكس Silicon Graphics وتايم ورنرTime Warner تحضر مشروع جوال «كل الخدمات من نت وورك Net work» وهو عبارة عن مكتبة رقمية قـــادرة علـــى توفـــير 500 فيلم رقمي هذا ما عدا الألعاب والأخبار والرياضة وســـوق البـــيع التلفزيوني والتأهيل والخدمات المتعددة بواسطة الحاسوب. أما تي.سي.آي TCI تحضر إطلاق مسفر عالمي المستوى لـــ 540 قناة. وعملاق البـــث الســـلكي قدم البرهان بأن السيطرة على الشبكات وتصنيع الأسلاك يمثل رهانـــاً مهمـــاً. ألم تقم تايم ورنر Time Warner بزج نفسها مؤخراً في مزاد مجـــنون لكي تمتلك الشركة السويسرية موتر كولومبوس Motor Columpos وهـــي تضم 200 ألف عائلة مشتركة بالبث السلكي؟!! فمع يو.أس. وست US West التـــي حملـــت إلينا عبر تحالفها مع تايم ورنر Time Warner نموذج المســـتقبل التلفزيونـــي المتفاعل وتحالف بول أتلنتك مع العملاق تليكومنيكشن، تستعد الولايات المتحدة للسيطرة على الاتصالات العالمية.

تصيب النتائج كل مجالات الفكر وهوية الأفراد والتبادلات بين البشر وبين الـــدول. إن الســـيطرة الأمريكـــية علـــى الاتصالات مبرمجة كما يدل توزيع الاختصاصات في هذا المجال. أوروبا التي لا علاقة لها بالمفهوم ولا بالصناعة اســـتأثرت بالتجمـــيع وبتقديم الخدمات وبتوزيع الأدوات التكنولوجية المرتبطة بالاتصـــالات. فالأوروبـــيون بعد أن تم تجاوزهم وأزيحوا من السباق للسيطرة علـــى التكنولوجيا اكتفوا بدور التابع الذي يستقبل الأدوات التي تم تصنيعها وما

عليهم إلا بتجميعها. أما الإلكترونيات ذات الاستهلاك الواسع فكانت من نصيب اليابان التي من الصعب التغلب عليها في عدد من الاختصاصات.

وفيما يخص البرامج إن كانت متعلقة بالحواسب أو التليفزيون أو السينما أو الإعلام فقد احتفظت الولايات المتحدة بها بشكل كامل لنفسها. اليابان والولايات المتحدة بلدان، والثاني يسيطر على الأول والاثنان هما سيّدا الاتصالات الدولية. وعلى أوروبا أن تقوم بمهمة الحراسة. لقد لعبت الطريقة التي عومل بها منذ عشرات السنين العلماء والمعرفة العلمية على السواء، دوراً مهماً بتهميش التكنولوجيا الأوروبية. لقد اضطر الكثير من الباحثين بسبب التخلي عنهم بأن يذهبوا ويعرضوا على الأمريكيين إبداعهم الذي لم تكن السلطات العامة في أوروبا مهيأة لتشجيعهم. حالة البروفيسور مونتنيه لا تزال حاضرة في الأذهان فقد أجبر عام 1996 أن ينهي نشاطه كباحث متقدم في مجال السيدا (الأيدز) لأنه بلغ سن التقاعد فذهب يتابع أعماله في الولايات المتحدة.

وسائل إعلام مختلفة تنشر محتواها بقنوات أمريكية ويابانية ستكون كلياً من ابتكار الولايات المتحدة أما أوروبا فستكون مجمدة تستخدم بشكل سيئ التطور التكنولوجي: هذا ما يجب أن نتعود عليه. واليوم الموعود الذي سيشهد استسلام أوروبا بات وشيكاً، ففي 15 شباط 1997 أشرفت المنظمة الدولية للاتصالات على اتفاق سيتيح بموجبه تسليم عشرات الأسواق إلى مضاربين عمالقة أمريكيين(42). الآن من بين المضاربين الأوائل الخمسة عشر في العالم عشرة منهم أمريكيون وهم : أي.تي.تي. - بلثوث - جي.تي.أي. - نينكس - بل أتلنتيك - أم.سي.أي - أمريتش - سبرنت - ثوثرن بل - يو.أس.وست. وقد أصبحت أوروبا بالنسبة لهذه المجموعة هدفاً مفضلاً، وبضغط من لجنة بروكسيل والشركات الكبرى المتعددة الجنسية بدأت الحكومات الأوروبية بعملية إنهاء الاحتكار الحكومي بواسطة الخصخصة وبسبب حالات من المقاومة مارست هذه السياسة على مراحل.

وتؤكد فرانسواز لوتر بأن «المستقبل هو ملك لمجموعة شبكات ولشركات الخدمات المتخصصة التي تجمع ما بين نقل ومعالجة المعلومة، وسوف ينتج

---

(42) راجع حول هذا الموضوع مقال دان شيلر أستاذ الاتصالات في جامعة بنسلفانيا - سان ديغو - وقد نشره في جريدة لوموند دبلوماتيك - آذار *1997*.

عن ذلك تقسيم الأسواق بشكل دقيق وانفجار للحدود ما بين الاتصالات والمعلوماتية والسمعي البصري وتكثيف للمنافسة». حرب الجميع ضد الجميع هنا أيضاً سوف تخدم أهداف التكتلات الأمريكية.

تشويه الثقافات:

ترتبط السيطرة على الاتصالات بالضرورة بمضمون، فإذا كان على المكونات المختلفة للسلسلة أن تعمل على التوجيه نحو الأيديولوجية الأمريكية فسوف تطال هذه الأخيرة كل المجالات: الغذاء واللباس واللغة....إلخ.

الزي الكوني:

تكشف طريقة اللباس عند شعب ما قبل كل شيء عن البيئة المناخية التي يعيش فيها، ولكنها أيضاً تذهب لأبعد من ذلك، ففي اللباس تظهر المفاهيم والاحساسات وثروة خيالهم وميزات تطورهم التاريخي والفلسفي والثقافي. اللباس هو الروح وهو التكوين تماماً كالأدب واللغة. يكفينا أن نفتح القاموس على الصفحات المخصصة فيه لثياب شعوب أوروبا عبر القرون لنكتشف تنوعها وغناها من ألوان وتفصيل وأساليب تشهد على واقع ثقافي يرتكز على التنوع والإبداع.

صادفت بداية ضحالة اللباس وألوانه المتنافرة في أوروبا مع بداية التحول الصناعي (القرن التاسع عشر) وزادت حدتها بعد الحرب العالمية الأولى وتعمقت أكثر فأكثر بعد الحرب العالمية الثانية بانفتاح الأسواق للنفوذ الأمريكي حيث تسيطر العقيدة التقليلية والتكيفية. فمن الضرورة التجارية – البيع في كل مكان لتأمين السيطرة الاحتكارية – ولدت عملية تجانس الأذواق واللباس خلال مرحلة التوحيد الصناعي للأنماط. ومن حالة غياب رهافة الذوق ولد اللباس الفظ (العملي والذي لا يفنى) أو اللباس المبرقش.

لندخل إلى أي قاعة مدرسية في أي مكان كان في العالم ولننظر إلى الصبيان والفتيات الجالسين على مقاعدهم، يرتدي الأغلبية اللباس الموحد مفروضاً على جيل بأكمله مطلبه الأساسي بالمقابل هو أن يمتلك حقه بألا يفعل كباقي الناس. إنهم يعتقدون أنهم يملكون هذا الحق عندما يستسلمون لغريزة «الجماعية» التي تدفعهم بالتالي إلى ارتداء اللباس الموحد الأمريكي: الجينز،

وهكذا لا يعود هناك أي تمييز بالجنس ولا بالشكل فهذا اللباس المستورد مباشرة من الولايات المتحدة أو المقلد يحول لابسه إلى راعي بقر ويمكن أن يكون لونه أسـود أو أزرق أو أحمر لذلك أصبح سروالاً عالمياً(43). إذا جمعنا كل أولئك الـرجال والنسـاء والأولاد الذيـن لكي يكونوا كالموضة يرتدون قمصاناً من كاليفورنيـا وقـبعات تكساسية وكسكيت لاعبي البيسبول وقمصان تحمل علامة إحـدى الجامعات الأمريكية أو برمودا من فلوريدا سنحصل على صورة دقيقة عن خضوع الكرة الأرضية لقواعد اللباس الأمريكية.

إضـافة لذلك وكالأمواج تتابعت الموضة الأكثر تفاهة وفي بعض الأحيان كـان الـزمن الـذي يفصـل بين الواحدة والأخرى قصيراً جداً بل إنها كانت متواكـبة. مـرة كـانت ارتداء قمصان طويلة جداً فوق صدرية صغيرة تسمح برؤية السرة ومرة أخرى كانت ارتداء بنطال جينـز واسع أكبر بثلاث مقاسات عـلى الأقل غن القياس الحقيقي حتى يتحول من يرتديه إلى أشبه بأكتع هارب مـن جليد ساحلي تعرض لهزة أرضية، وأحياناً كان ارتداء أحذية ثقيلة سوداء مثل الفحم تحمل مسامير فتجعل من يرتديها وكأنه من عمال مناجم كلونديك أو كفـتيات خطـبن حديـثاً لفرنكشـتاين المخيف فتيات هزيلات راغبات بتشويه أنفســهن، وبطريقة المصادفة تظهر أحياناً طالبات أنيقات لا نعرف من أين أتين فـتحمل لهـذه الـلوحة القاتمة بريقاً متفائلاً كنقطة بيضاء في مزيج ألوان حفل جهنمي.

الذوق الوحيد:

لا تقـدم الولايـات المتحدة الكسوة فقط بل تطعم أيضاً وتروي الظمأ، في إيطاليا مثلاً هناك ألف طريقة وطريقة للعمل على تناسب الشراب مع المعجنات وفـي الـريف الفرنسي يوجد ألف وصفة لإعداد الأطباق التقليدية، وألف طبخة وطـبخة يطهيهـا الإسبانيون بمحبة وفن، وفي اليونان والبرازيل والصين هناك أطـباق لا نهايـة لها للأذواق المختلفة والطعم المتنوع ورثناها بكرم من آلاف السـنين. بالمقابل صنعت الولايات المتحدة أطباق لا طعم لها ولا تمييز معقمة باسم «الطعام السريع» ما يعرف بالتعبير الركيك فاست فودFast Food. ثلاث

(43) *حالياً يوجد أيضاً قمصان جينـز وسترات جينـز .. إلخ.*

آلاف سنة من المطبخ المتنوع والفني باختلافه والذي يشكل مرآة للمزاج القومي الفريد والذي يتناسب مع الرغبات اختصرت إلى أطعمة ذات شكل واحد في ما يمكـن أن نسـميه «الكـلب الحـار» (هـوت دوك Heat dog) أو همبرغر Hamburger. أصبحت السندويش ليس أكثر من بسط لأوراق من الخس ولحم زهـري أو أخضـر وقطـع من الخيار البلاستيكي بين طبقتين من الخبز تقدم مـلفوفة بورق مقصب. بدورها المطاعم مثل الكافيه رويال ومكسيم وشه ثانت ايفيت أو البتي روتيه (حيث مدام مارت تطهي أهم الأطباق العائلية التي تلذذت بها الأجيال) اختصرت إلى يافطة بسيطة وهي: ماكدونالد (أو ماكدو كما يلفظها الشـبان)(44) . لقـد اسـتبدلت الـبطاطا المقلية على الطريقة البلجيكية الدسمة والسـميكة وعـلى الطـريقة الفرنسية المقرمشة والمحمرة بطريقة «الفريت» بالطـريقة الأمريكية(45). وعند ماكدو تقاليد المؤسسة هي أيضاً تقاليد أمريكية فاللجان ممنوعة والرواتب مبتذلة وساعات العمل الأسبوعية لا سقف لها، وعند حـدوث أي خطـأ في الصندوق فإن عامل الصندوق يعوضه مباشرة من جيبه ويسـتقيل أو يلاحق قضائياً. ولا نزال مذهولين مما حدث في المحكمة في بداية 1997 فـي لـندن المقامة من السلسلة ضد عاملين لديها عضوين في مجموعة لأصـدقاء البيـئة اتهما بالذم والقدح. لقد ربح ماكدو القضية وحكم له بمبلغ 96 ألف دولار كتعويض وردٌ للاعتبار ولكن المحكمة كلفته 16 مليون دولار أجرة محـامين هذا إن لم نحسب ما دفعه للدعاية المضادة بحربه ضد العاملين اللذين فضـحا أساليبه. همبرغر وكاتشب فوق كل الأطباق وانتشار النخاسين في كل مكـان هـذا هو مشهد المطعم الأممي (والذي يُنتظر أن يصبح وحيداً) بروعته المأساوية.

وكـان على المشروب الدولي الكوكا كولا أن يصبح المتمم للغذاء الدولي الذي تقدمه سلسلة مطاعم ماكدو، لقد اخترع هذا المشروب عام 1886 بواسطة جون بمبرتون في مختبره الصيدلاني في أطلنطا (وهو مركب من جوزة الكوكا

---

(44) *مطاعم الفاست فود Fast Food مثل ماكدو انتشرت في كل مكان، فلا يمضي أسبوع دون أن نـرى اختـفاء مطعـم أو مقهـى تقليدي ليقوم مكانه مطعم يرفع (بعد إجراء قليل من الديكـورات) أعلام السلسلة الأمريكية أو الايرلندية أو الإنكليزية ويصبح ملجأ التلاميذ بين الحصص الدراسية أو عند نهاية اليوم الدراسي.*

(45) *تعمـل سلسلة بيتزا هات Pizza Hat على الدفع لنسيان معجنات نابولي لصالح بيتزا اصطناعية معدة بلا ذوق مغمورة بالكاتشب.*

وأوراق الكـــولا وأوراق الكوكـــا ومـــن الســـكر والكـــافيين) ويتكون من هذه المستخلصات النباتية وقد أبقي على طبيعة المزيج والنسب الممزوجة سراً. في عـــام 1892عـــندما اشترت اساكنتر صيغة التركيب تم إضافة الصودا الفوارة المتلألـــئة وتـــم إطلاق شركة الكوكا كولا. وبالتوازي مع منافستها البيسي كولا الـــتي أسست بدورها عام 1889 انطلقت الكوكا كولا لغزو العالم. البلد الوحيد الـــذي حـــاول دون فـــائدة بعـــد عام 1944 مقاومة استعمار الكوكا هو فرنسا وبالـــتوازي مـــع الجبنة الملفوفة بالورق المقصب ومع موسيقى الروك والعلكة والســـيارات ذات الصـــادمات اللامعـــة والبرادات قامت الكوكا كولا ثم البيسي بإزالـــة الـــثقافة الأوروبية بواسطة سلاح الغذاء (المثاقفة الغذائية). أسست هذه الشـــركات اليوم مصانعَ لها في كل القارات مع ميل أكبر إلى البلدان حيث اليد العامـــلة رخيصة، وتدفع هذه الشركات رواتب بالكاد تكفي أصحابها مع غياب كـــامل لـــلحماية الاجـــتماعية لتحقق بذلك أرباحاً هائلة. وكما الحال لدى ماكدو والجيـــنـــز فالكوكـــا كولا تغرق يومياً الكرة الأرضية وحتى الأهل والمعلمون الواعـــون من هذه المخاطر يقفون صامتين عند أرصفة المقاهي بصحبة أبنائهم الذيـــن لدى سؤال النادل:«ماذا تريدون أن تتناولوا» يجيبون بصوت واحد مثل المذعورين:«كوكا،كوكا، كوكا...».

لغة عالمية جديدة:

بقي مجال آخر للتأثير الأمريكي، إنه مجال اللغة. إن اللغة الأم لكل شعب مهـــددة بـــالعدوى الأنكـــلو – أمـــريكية. كانت اللغات دائماً عبر الأزمان قابلة لاســـتعارة الكـــلمات، وفـــي اللغة الفرنسية هنالك كلمات كثيرة أجنبية مختلفة الجـــذور، وقـــد أغـــنت هذه الكلمات باستمرار اللغة الفرنسية ونستطيع أن نجد الظاهرة نفسها في لغات الأرض كافة. أما ما هو جديد في نهاية هذا القرن هو أن الإنكـــليزية المحكيـــة في الولايات المتحدة التي تجمعها طريقة اللفظ لبعض الأصوات إضافة إلى المفردات وبعض التراكيب النحوية وكتابة إملائية خاصة، تحـــاول أن تتعامل مع باقي اللغات بنفس الأسلوب الذي تتبعه أمريكا بالسياسة والاقتصـــاد وبالثقافة أي أسلوب الإبادة التدريجية. إن الاستعارات الأجنبية للغة الفرنســـية أو الإنكـــليزية أو الألمانيـــة هـــي متممة لبنية هذه اللغات فهي تأتي لتضـــيف كلمات أو تعابير لم يكن لها بشكل عام مقابل ولذلك كانت الاستعارات تعتبر دعامة قيمة. أما الاستعارات الأمريكية فهي مختلفة لأنها تأتي لتحل محل

كلمات أخرى فهي استبدالية فلا تضيف بل تقتل وتحتل.

كما انغرست المجموعات الاقتصادية الأمريكية في بلد ما وقامت بإبعاد المنافسين المحليين وباحتلال الأرض عمدت الكلمات الأمريكية بنفس الطريقة فأخذت شيئاً فشيئاً من اللغات الكلمات واحتلت مكانها. يقول كلود أجيج Claude Hagége في الولايات المتحدة «لا يمر الدفاع عن الإنكليزية عبر السلطة السياسة، فمن أجل دعم اللغة تقترح المؤسسات الخاصة في أغلب الأوقات على الجامعات الأجنبية بإبعاد الفرنسية من التعليم في جامعاتهم». أما في الجامعات السويسرية توجد أقسام الآداب واللغة الإنكليزية منذ أكثر من قرن. وحتى نهاية السبعينات كان لا يعقل أن يتخرج طالب من هذه الأقسام إن لم يكن لديه معرفة معمقة عن معظم الأدباء البريطانيين. ثم قبلت الجامعة أن يختار الطلاب في امتحاناتهم أحد الأدباء الأمريكيين وبعد ذلك وفيما عدا شكسبير لم يعد يفرض أي أديب. وبدأ المدرسون الأمريكيون أو الدارسون في أمريكا بالازدياد أكثر فأكثر وهم يشكلون اليوم ليس فقط الجزء الأساسي في الهيئة التدريسية في أقسام اللغة الإنكليزية في مختلف الكليات والثانويات والإعداديات بل إن أكثر الطلبة الراغبين بالانتماء «للحداثة» باتوا يحتقرون الأدب الإنكليزي ويفضلون الأمريكي الذي يتمتع ببنية مستقلة يمكن التمكن منها هذا إن لم نأخذ بالحسبان الدعم القيم والأكيد الذي تقدمه سفارة الولايات المتحدة في برن.

في هذا الخصوص هناك تعميمٌ معبرٌ صادر عن قسم الإعلام للولايات المتحدة في 12 كانون الأول 1988 تعلن فيه سفارة أمريكا في برن بإطلاق برنامج جديد للمدرسين في الثانويات يحصل بموجبه على منحة فردية من أجل متابعة دراستهم لمدة شهر في الولايات المتحدة الشرط المطلوب للحصول على هذه المنحة هو ضرورة أن يكون موضوع الدراسة إعداد برامج الثانويات السويسرية هدفها إغناء معرفة الطلبة بمعلومات عن الواقع الأمريكي، ويحدد الشرط بأن على البرنامج أن يتوصل إلى «نشر المعلومات عن الولايات المتحدة بين الطلبة في المرحلة الثانوية». أما المدرسون الذين يقع الاختيار عليهم فسوف يحاطون بخبراء أمريكيين طيلة فترة إقامتهم في الولايات المتحدة. ولن يطول الوقت حتى يدرك المهتمون بهذا البرنامج بأن ما يهدف إليه هو مشروع كبير يطمح لنشر المعلومات الإيجابية عن أمريكا. كثير من الأساتذة تم الاتصال بهم اتصالاً شخصياً ودُعوا للاشتراك في مكتبة الفيديو في السفارة

بشـــرط أن يكـــون محـــور تعليمهم يرتكز على اللغة الأمريكية وعلى الولايات المـــتحدة. ومن أجل تشجيعهم أرسلت السفارة لهم مجلة أمريكية تعليمية شهرية مجانـــاً. والأســـاتذة الذيـــن يرفضون الإذعان لهذا الشرط الأساسي أي إعطاء الأولويـــة التعليمية للرؤية الأمريكية لا يستلمون المجلة ولا يسمح لهم بالدخول إلى مكتبة الفيديو في السفارة.

إن أمـــركة العالم بواسطة اللغة تشكل سلاحاً خطيراً يستعمله الأمريكيون بحذاقـــة بواســـطة الجذب تارة والقوة تارة أخرى. كتبت الصحفية فرجيني دو مـــرون تقـــول:« لقـــد تـــم اكتساح عالم الإعلان والسيطرة عليه بواسطة اللغة الأنكلوسيكسونية» كما قالت الكاتبة الكندية من كيبيك ليز بزونت التي استشهدت بمقـــال ظهـــر في المجلة الأمريكية «فورن بوليسي» يمتدح الإمبريالية الثقافية (الأمريكية) ويدافع عن المقولة التي تؤكد أن تنوع الثقافات هو السبب الأساسي للصراعات وللهمجية في العالم:« يجب إذاً الرد على ذلك ليس بإبعاد الإنكليزية والـــثقافة الـــتي تحملها ولكن باليقظة والعمل على إحياء التعامل باللغة الفرنسية وهـــو الفعـــل الوحيـــد الـــذي يمكنه أن يقف حاجزاً ضد المحاولة الإمبريالية للإنكليزية»

الـــلغة الإنكليزية البريطانية نفسها طُمست لمصلحة ما أسماه بحق الكاتب اتيـــبل«المـــزيج الـــلغوي الأطلســـي». حول هذا الموضوع يقول الكاتب جان ديـــتور:«انقـــض هذا المزيج على اللغة الإنكليزية وشوهها أكثر مما شوه اللغة الفرنســـية». لقد ساعدت إرادياً أو لا إرادياً العلوم والصناعة واللغة المحكية في الجامعـــة والرياضـــة والتـــلفزة والسينما على نشر المفردات والكتابة الإملائية الأمـــريكية الـــتي غـــزت الشاشات والأماكن العامة ورفوف الإعلان ومنتجات المخـــازن الكـــبرى والتقارير الرسمية. لقد انطلقت فكرة التعديل الإملائي للغة بواســـطة نيو وبستر بعد حرب الاستقلال واعتبر هذا التعديل بمثابة حرب باسم الوطنية والتفوق الأمريكي. وفي عام 1783 ظهر كتابة التهجئة للغة الأمريكية. ونـــتيجة لـــلحماس الذي أظهره توماس بين وأزره ستيلس وتيموتي دويك ووليم سميث وكتاب آخرون ومثقفون وأساتذة وقضاة ورجال سياسة الذين اعتبروا أن الأمـــة الأمريكية تمثل المشعل الذي سينير العالم وصلت الولايات المتحدة لقمة المجـــد والشرف فحلم وبستر أن يبدع لغة أمريكية خالصة تتميز عن الإنكليزية المحكيـــة في إنكلترا الغارقة في الفساد والجنون والاستبداد. ووضعت المؤلفات والآداب الأمـــريكية وبســـتر كـــأي فرد من الأمريكيين الأوائل «ينكي» مشبع

بالـــتفوق بكل ما هو أمريكي. ومن حينها دخلت العناصر الأساسية للتغيير إلى ميـــدان الفعل فانتشرت الكلمات والتراكيب والتعابير والإملاء الأمريكية وأخذت مكانها بدلاً من مثيلاتها الإنكليزية.

أليـــس مـــن المدهش مثلاً أن يرصع الطلبة والتلامذة والمهندسون والأطر الإدارية والسكرتيرات والتجار ورجال الأعمال في كل أنحاء العالم نصوصهم وتقاريرهم ورسائلهم بكلمات أمريكية فيكتبون مثلاً Center بدلاً من centre و Thru بـــدلاً مـــن Through وcolor بدلاً من colour وdéfence بدلاً من defense وtraveler بدلاً من traveller وtheater بدلاً من theatre ...إلخ أمـــا المفـــردات فلها نصيبها أيضاً فبعد يوم عمل في الورشة نقول الآن نلتقي الـــبيت بـــدلاً من في البيت (home بدلاً من at home) وللتعبير عن المرض نقـــول sick بـــدلاً من ill وفي الشارع نقول نمشي على حافة الطريقة بدل من كـــلمة الرصـــيف (Sidewalk بـــدلاً من pavement) ...إلخ والتعابير أيضاً سارت في المنحى ذاته فيقول التلاميذ الذين تعلموا في أمريكا (I just went home أتيـــت لتوي إلى الوطن) والجملة الإنكليزية السليمة هي (I have just gone home) وهـــل معـــك سيجارة (do you have a cigarette? بدلاً من Have you got a cigarette?)... إلـــخ وطالت هذه الطريقة بالكلام أسلوب لفظ الأحرف ذاته فحلت لفظ {R} الاسترجاعية مكان مثيلتها الإنكليزية الخفيفة والأنيقـــة وحـــلت اللكـــنة الأمـــريكية الفظة بدلاً من لغة البي.بي.سي B.B.C الإنكليزية المنمقة.

لا يوجـــد تـــلميذ أو بالأحرى طالب جامعي جدير بأن يحمل هذا اللقب إلا ويفكـــر بـــأن يجـــري دورة فـــي جامعة أو معهد عالي أمريكي. وهكذا أخذت جامعات هارفرد وشيكاغو ويال وبرنستون ونيويورك ولوس أنجلوس وأقسامها للاقتصاد والحقوق والآداب والأم.أي.تي MIT في بوسطن ومجموعتها العملية ومعـــاهد الأبحـــاث تهـــيّء وتخرج الكوادر المستقبلية والموظفين بل وتحكمت بالمسؤولين السياسيين المقبلين في كل أنحاء المعمورة. الجميع بالقصد أو بدون قصد حملوا وطبقوا ونقلوا النموذج وأسلوب التفكير والأساليب والحلول وردات الفعـــل الأمـــريكية الشـــكل.كم من الناس الواعين لا يستعملون يومياً المفردات الأمـــريكية؟!! وقـــد يندهشـــون حيـــن نقول لهم هناك كلمات أخرى يمكن أن يســـتعملوها للتعـــبير عـــن أفكارهم دون الإساءة للغة الفرنسية. إن عملية إلغاء المفـــردات للغة الأم وانهيار المخزون المعجمي والتفقير التركيبي كل هذا يشكل

المــواد الأساســية للأمية وهي تساهم أيضاً بتشويه اللغة الإنكليزية الأوروبية وبتعميم إجباري للغة عامية ولكنة أمريكية في المحافل الرسمية كلها.

انتصار الابتذالية:

فــي كــتابه «حــرب الذوق» الصادر عام 1995 برهن فيليب سولرز كم أفســدت الليــبرالية والأمركة حضارتنا وقارن عصر النور مع عصرنا فأشار بوضــوح إلى دأب الأول بعــدم الإســاءة للحس الجمالي في أسلوب التعبير أو اللــباس أو الغذاء وإلى استسلام الثاني الذي يتهمه بحق بأنه تخلى عن مسؤولية إثــبات الهويــة ووضــع الذوق العام تحت تصرف متطلبات السوق ودراسات علـماء الاجــتماع. طالمــا أنــه يأتي من خلف الأطلسي «ما هو سياسي وما اقتصــادي صــحيح» إضافة إلى المشاعر والعواطف والنرجسية التي أصبحت رائجــة بفضل التلفاز الأمريكي للتحالف مع نمو غير معقول للأمية وللتعصب المذهبي (الاقتصادي والديني ..إلخ) من أجل نشوء بنية كونية استبدادية وسوقية في آنٍ واحدٍ. فهذا الانتصار حسب سولرز للتزمت الذي يقود دائماً إلى الفاشية.

تقــع المســؤولية الكــبرى في هذا الإطار وبدون شك على الجزء الأكثر انفــتاحاً نحــو الخــارج مــن الشــعب الأمــريكي والأكثر ظهوراً في وسائل الإعــلام.فالقسوة الأخلاقية والخشونة والتعنت أصبحت إرثاً من الماضي الذي أطلعــنا فيمــا ســبق على خطوطه العريضة. وكما أوضح دانيال بورستين فقد ســاهم المناخ وأسلوب الحياة في أمريكا والأصول المهنية (طباعة أو فلاحين) لســكان القــادمين مــن أوروبا على خلق مجتمع أمريكي مؤلف من أناس لا يمــلكون الكثير من التهذيب وغير مرهفين. فالحدس السليم المبسط والنفعي أخذ ســريعاً مكــان رهافــة الحس ولعبة المضاربة والمنافسة وقانون السوق كانت الشــعار الأعــلى فــي هذه المبارزة والتجربة الخشنة في المواجهة حلت محل الــتفكير الفلسفي. ويتابع بورستين فيقول إن المسيرة نحو الغرب كَوَّنَتْ الإنسان الأمــريكي كمــا نعــرفه اليوم. لقد أوجد هذا الخليط من الأفراد المختلفين من إيرلــنديين وألمــان وبولونيين ويهود وإيطاليين وإنكليز من يوركشير وسفولك وأزكــس ولــندن وجميعهــم مــن نفس الطبقة الاجتماعية، نوعاً من التوازن المقياســي لهــذا الشعب على الصعيد اللغوي وعلى مستوى التصرفات. ويؤكد بورستين فيقول «إن الحياة في أمريكا كانت منبعاً ومصدراً للتماثل».

عملية التماثل هذه أو التأخذ تمت ضمن مفهوم التبسيط الذي يحمل الفظاظة والخشـــونة رغـــم محاولات رجال مثل وبستر لكي يحفظ للغة الأمريكية ضمن رؤيـــة التسلط والمفاخرة نقاءً يقربها من الإنكليزية البريطانية في القرن السابع عشـــر والقرن الثامن عشر وبالرغم من جهود الأغنياء للاحتفاظ بنمط معاشي قريب من البرجوازية الإنكليزية.

لايـــزال يظهـــر هذا التبسيط اليوم في طريقة التعبير وفي الأساليب الفظة وغيـــر المهذبـــة لإنســـان الشارع كما للإنسان الذي يعمل بالسياسة الخارجية. ومـــلخص القـــول كمـــا يؤكـــد بورستين فإن اللغة الأمريكية تكونت في قالب عناصره «من ربان السفن ومن باعة الفرو ومن الكشافة ومن أولئك الذين كان عملهم يرتكز على مدح مزايا بلدانهم والقتال ضد الهنود واستصلاح الأراضي» وتميـــزت بالاكتشافات المتعددة للغة محكية لا تكترث كثيراً بالقواعد» وبرهنت حسب تعابير بورستين عن «الحيوية المشتعلة» كما كان عليها أن تتأقلم مع كل المفـــاهيم والأهداف والأوضاع الجديدة وهذا لا شك فيه. فالنتيجة كانت «نوعاً من التمجيد للعامية» ونصراً للمخلفات عند نهاية «جلسة سكر» وكان لهذه اللغة وقعهـــا الموســـيقي وقواعدهـــا الفظة. ويضاف لذلك أسلوب التكلم وهو الشكل الأمـــريكي للـــتحدث بمـــبالغة «شـــبيهة إلى حد غريب بلغة الدعاية في القرن العشـــرين» وهي «اللغة التي لا صح فيها ولا خطأ إنها لغة العظمة في المبهم» ونجدهـــا فـــي التصرف الكلامي وفي الحركات المبتذلة والمبالغ بها للسياسيين وللممثـــليين ولرجال الأعمال الأمريكيين. ويضيف بورستين فيقول هذا الصوت الصـــارخ والمـــبالغ بـــه الـــذي ولد من «حيوية بدائية» والذي استخدم «على المـــراكب البسيطة وفي مسيرة العربات وفي مخيمات عمال المناجم ولدى باعة الفـــرو» انتهى به المطاف ليهبط «من أعلى الكراسي ومن المنصات ومن منبر الكونغـــرس. لقد ارتفع هذا الصوت إلى أعلى السلم الاجتماعي راح المبشرون والأساتذة وأعضاء الكونغرس يتكلمون كالعامة».

أثـــر هـــذا الغياب للتميز وهذه الفظاظة اللفظية والفكرية باللغة المعاصرة لأكثر الأمريكيين. يجب علينا إذاً أن نعمل ضد هذا الخبل وهذا التهور.

■■

الفصل الخامس :

هل نستطيع أن نتخلص من الإمبريالية الأمريكية؟

وأنت ، يا أمريكا

أبناؤك كبار ولكنك أنت أكبر من كل شيء

تمسكين النصر بيسارك والعدل بيمينك

أنت، مبدأ الوحدة وتمسكين بكل شيء

توحدين وتمتصين وتتسامحين

بك أنت، وبك أنت فقط أتغنى إلى الأبد

أنت وأنت فقط تساوين العالم

بمشاهدك المنسجمة والمتعددة والمتنوعة واللامحدودة

أنت تحتوين العالم في لغة واحدة ودائرة واحدة

إنك القدر الوحيد ولا انقسام فيه لهذا العالم

(والت وايتمان)

ابحري! ابحري بقدر ما تستطيعين يا سفينة الديمقراطية

طوقك من كل القيم

قاعك ليس الحاضر فقط بل الماضي العريق

أنت فوق قاعدة ليست بمثل الغرب بل

إنها تبحر مختصرة الأرض كلها

(والت وايتمان)

«...... تصـرف بناء وقوة عسكرية كافية لردع أية أمة أو مجموعة أمم تجرؤ على أن تتحدى سيادة الولايات المتحدة».

(تقرير ولفووترز)

«إن الله مع أمريكا، إن الله يريد أن تقود أمريكا العالم»

(ريتشارد نيكسون)

أقل من مائة عام تفصل بين القصيدتين لوايتمان وما بين التقرير الذي طلبه البنتاغون من ولفووترز. والمدة الفاصلة ما بين القصيدتين اللتين افتتحنا بهما الفصل وبين تصريح الرئيس نيكسون في خضم حرب فيتنام هي أقل أيضاً. ومنذ السنوات الأولى للقرن السابع عشر عندما وطئت أقدام مستعمري فرجينيا الأوائل أرض العالم الجديد وهم مقتنعون بأنهم سيشيدون إمبراطورية مدعوة للسيطرة على الكرة الأرضية إلى يوم ذكر الرئيس كلينتون لهذه المهمة ومروراً بالهدف الإمبريالي الذي تم إعلانه في نهاية القرن التاسع عشر وتهديدات رونالد ريغان وجورج بوش – أي فرق يوجد ما بين هذه التهديدات ودعوات القديس برنار الذي دعى رهبان الهيكل أثناء الحملة الصليبية الثاني إلى القتل «باعتبار أن الخضوع للموت أو إعطاؤه لا جرم فيه حسب المسيح»؟ – خلال هذه الفترة إذاً لم تتبدل كلمة في خطاب الولايات المتحدة.

هوت إمبراطورية الشرق عبر صيحات الحبور والاستبشار، وأدىّ ذلك إلى سقوط الجدران وارتعاش فرائص العالم وفكرنا حينها أن ذلك كان مقدمة للسلام الضائع وللديمقراطية ولسعادة الجميع. فإمبراطورية الغرب بقيت وحدها والذي ينبغي أن يكون واعداً ظهر أنه مثقل بالتهديدات وبالمخاطر. فأكثر من أي وقت مضى باتت أمريكا كدولة عظمى وحيدة وليست جاهزة لتنسى أحلامها بالسيطرة حتى وإن كانت هذه الأحلام تندرج في نوع من التناقض. لأن كما يُذكر بذلك أنفردو جي.أيه. فلادو «الرأي العام الأمريكي المتمسك دائماً بزعامة العالم هو كثير الحذر بالنسبة للتدخلات العسكرية البعيدة عن بلاده». نعم للسيطرة بالتأكيد ولكن ليس بثمن دم الرجال الأمريكيين. إنهم يفضلون أن يسيطروا بواسطة التجارة والروابط الاقتصادية وبالاتفاقات التي تجبر الآخرين والتي تستطيع الولايات المتحدة تفسيرها بحرية لصالحها. هناك أيضاً هذه الأسس الصلبة المؤلفة من فضاءات معينة في العالم تستقبل القواعد والبنى التحتية وانطلاقاً منها يبديان كل تدخل ممكن في أي وقت أو هذه الناقلات الضخمة التي تخوض غمار البحار والمحيطات وتسمى بالأسطول السادس والسابع ...إلخ.

تمسك الولايات المتحدة اليوم بيدها الأوراق الأساسية في اللعبة الكونية

بالطبع. فلا يمكن اتخاذ أي قرار جوهري ولا إقرار حل حاسم دون موافقتها. في القارة العجوز الأمريكيون هم الأسياد بالرغم من المقاومات التي تنشأ هنا وهناك في المجال الاقتصادي. إن اتفاقيات دايتون هي تجسيدٌ لعجز الأمم الأوروبية عندما تنفجر أزمة كبرى عسكرية أو سياسية، ألم يتم التوقيع تحت مظلة الولايات المتحدة في 14 كانون الأول 1995 كما قال قادة كروات وصرب وبوسنيين «مسجونون في قاعدة عسكرية» في الوقت الذي كان فيه «الروس والأوروبيون ينتظرون طويلاً عند الباب»؟؟ تعالوا لنتذكر هنا باختصار بالجدول الزمني لهذا التنازل.

عندما ضعفت الفيدرالية اليوغسلافية التي خلقت من التوزيع الذي قام به تيتو سنة 1945 للصرب على أربع دول (كرواتيا – البوسنة والهرسك – مونتنغرو – صربيا) وهذا ما لم يقبله الشعب الصربي، ساهمت عدة عناصر بتصعيد التوتر بعد وفاة المارشال من هذه العناصر نشر عزت بيكوفتش عام 1983 لبيانه الإسلامي الذي عبر فيه عن إرادته بإقامة أنظمة إسلامية وباتباع سياسة لعموم المسلمين. إلا أن العامل الأساسي الذي حمل الولايات المتحدة على ممارسة الضغط على يوغسلافيا بواسطة صندوق النقد الدولي كان بسبب الدين الضخم الذي أخذته يوغسلافيا خلال السنوات الأخيرة لنظام تيتو. طلقة الرحمة أتت من ألمانيا التي اعترفت غداة اجتماع الدول الاثنتي عشر في بروكسيل في 16 كانون الأول 1991 بكرواتيا وسلوفانيا دون أن تستشير أحداً، بل طلبت من شركائها الأوروبيين أن يفعلوا مثلها. وهكذا وضمن أجواء الانبعاث القومي الهائج باتت الحرب أمراً لا مفر منه. أما الولايات المتحدة التي جعلت من ألمانيا شريكاً مميزاً لها في أوروبا دعمت القوميين دون تحفظ. فألمانيا هي الرابط الأساسي بين أوروبا الغربية وأوروبا الشرقية بما فيها روسيا لم تتوقف يوماً عن خدمة المصالح الأمريكية منذ نهاية عهد المستشار أيزنهاور، وقد بدت أنها حليفة قيمة أكثر فأكثر يوم تبعت سياسة واشنطن لتوسع الحلف الأطلسي.

عندما اندلعت الحرب استخدمت الولايات المتحدة المشاكل الاقتصادية الصربية للدفع إلى التفجير النهائي للفيدرالية اليوغسلافية، وتم التصويت في 30 أيار 1992 على فرض عقوبات اقتصادية ضد بلغراد بالرغم من تحفظ الدول الأوروبية إلا أنها لم يكن باستطاعتها مقاومة الرغبة الأمريكية ويُفسر هذا التحفظ ليس فقط بخطر انفجار يوغسلافيا وهذا لم يكن لمصلحة الأوروبيين بل

كان هناك تقرير الأمين العام للأمم المتحدة بطرس بطرس غالي في 2 حزيران 1992 يشير إلى مسؤولية الكروات في تصعيد الصراع، وهذا ما اعترف به أيضاً الجنرال الفرنسي موريون، إلا أن الأمريكيين أجلوا نشر هذا التقرير. وفي 3 حزيران طلب الكروات رسمياً التدخل العسكري ضد الصرب وقد ساندتهم ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية التي كان يهمها حينها بعد حرب الخليج إرضاء المملكة العربية السعودية ودول إسلامية أخرى. وفهم الأوروبيون بأن البيت الأبيض كان يرغب تدخلاً عسكرياً أوروبياً لا تشترك به القوات الأمريكية.

اتخذت الولايات المتحدة قرارها بالتدخل عندما أعدت باريس خطة قابلة لإقامة السلام تقسم بموجبها البوسنة والهرسك إلى ثلاث دول كونفدرالية: إسلامية وكرواتية وصربية وكان لابد من تقديم تنازلات من أجل الوصول إلى اتفاق شامل. إلا أن مذبحة سوق سراييفو التي لم يتأكد أحد من فاعليها لم يترك المجال للتفكير بكل الفرضيات (نذكر هنا انفجار مين الذي شكل الحجة لغزو كوبا عام 1898) هذه المذبحة إذاً حملت الأمريكيين على التدخل في الصراع. عندها طلب الأمين العام للأمم المتحدة (ويمكن أن نسأل لماذا؟) من الحلف الأطلسي وليس من مجلس الأمن بالتدخل عسكرياً. وبعد استعراضات القوة الأمريكية في بحر الأدرياتيك وقصف المواقع الصربية في البوسنة (من 29 آب إلى 20 أيلول 1995) لم يعد هناك أي نقاش لكف يد الأوروبيين وأقرت اتفاقيات باريس في 14 أيلول 1995 العمل بمقررات دايتون* (21 تشرين الثاني) بإشراف قوات الأيغور وهي قوات لتطبيق القرارات بإشراف الحلف الأطلسي قوامها 60 ألف رجل ثلثهم من الأمريكيين. وأصبحت عملية الإبعاد الأوروبي فعلية عن تسوية ملف هو أوروبي بشكل كامل عندما اتخذ مجلس الأمن قراراً في 15 كانون الأول منح به الحلف الأطلسي مسؤولية تطبيق اتفاق السلام في البوسنة. وحتى نهاية عام 1997 لم تجد أي قضية حلاً لها وبقي الوضع السياسي المصطنع لهذا البلد _كما كان الحال عام 1919) في حالة توتر ولم يتوقف عن التشرذم سياسياً واجتماعياً وخاصة بسبب مسألة اللاجئين الذين لم يتخذ بعد قرارٌ بعودتهم. أما القوات الجديدة SFOR التي تتولى مهمة نشر الاستقرار والتي أنشئت في كانون الثاني عام 1997 (30 ألف رجل) فإن الولايات المتحدة تمتلك أكبر فرقة منها. ولم يبدل الإعلان قرار انسحابها في حزيران 1998 أي شيء لأن مستقبل المنطقة ومستقبل كامل البلقان هو اليوم بين يديها.

تـــركت المرحلة الانتقالية التي بدأت عام 1989 بسقوط جدار برلين مسألة أساســية معـــلقة وهي إعادة بناء قوة أوروبا حسب ميشيل فوشه يطرح سؤالاً ثلاثـــي الأبعـــاد:«هل يجب على أوروبا أن تصبح قوة عظمى أي دولة جماعية قـــادرة على التأثير بما فيه التأثير العسكري ؟ هل يتعلق الأمر ببساطة بالدفاع عـــن المصالح أو جملة المصالح المتطابقة ؟ أو هل يجب التفكير بعقلية ما بعد الحـــرب الـــباردة من تواجد وتأثير وإشعاع ؟ » أمام هذه الأسئلة الثلاثة ومهما كان الجواب واضحاً إلا أنه ليس بالبسيط وخاصة فيما يتعلق بوسائل العمل التي يتطلبها.

لـــم تكن الدول الأوروبية عبر التاريخ إلا دولاً متكونة موحدة لها مشروع جمـــاعي وكل محاولة لقلب هذا المشروع من قبل أقلية مّا كانت تواجه بمقاومة الســـلطات السياسية. فلم يتحمل أي ملك في الماضي قيام مجموعات أو أقليات عـــرقية تستأثر بحق توجيه الواقع السياسي أو حتى امتلاك جزء من هذا الحق وإلا عرض بذلك الوحدة الوطنية للخطر.

لهذا قام فيليب لوبل بالتخلص تارة من اليهود وتارة أخرى من كهنة الهيكل كمـــا هـــدّد اللومبارديين لأنه رأي في الثلاثة رمزاً بل أكثر من الرمز للسلطة المالية والاقتصادية القادرة على جعل السلطة السياسية رهينة بيدها. إن أوروبا كونفدرالية كانت أو فيدرالية مؤلفة من دول قومية لا يمكن لها مستقبلاً أن توجد خارج الوحدة السياسية المجسدة بشكل دولة قوية مستقلة ولها دورها في الخارج وهذا يتطلب أن تضع تحت وصايتها السلطة الاقتصادية وبالطبع إمكانية امتلاك الـــتأثير العسكري.ومهما يكن الشكل السياسي الذي تختاره هناك مبادئ تطرح نفســـها فـــالدول القومية بأولوياتها الموروثة من التاريخ تشكل نقطة انطلاق لا يمكن تجاوزها، ثم إن أوروبا لا يمكن أن تكون مغايرة للبنية الملازمة والمعقدة لـــلدول الـــتي تشكلها وهذه الدول تتكاثر بالطريقة التي رسمها ليبراليو المدرسة الكلاســـيكية وأصـــحاب الفكـــر النفعي. إذا أرادت القارة أن تصبح قوة سياسية عظمى في هذا العالم عليها أن تجسد المفصل السليم والصلب الذي يرتكز على قواعد تاريخية وثقافية وعلى حقائق قومية في فرنسا وألمانيا وإيطاليا...إلخ ولا يســـتطيع تطابق المصالح القومية أن يكتفي بأن يكون القاسم المشترك الصغير السياســـي والاقتصـــادي بل يجب أن يكون محصلةً لمجموع المكونات القومية وصوغها بواسطة سلطة سياسية قومية مهما كان شكل البنية التي تختارها. هذه العملية لبناء الدولة الأوروبية القومية ولتنظيم المصالح القومية في وقت واحد،

تبدو على الفور بأنها ضرب من الوهم إذا لم تظهر للعالم دليلاً على عقبات الوجود وعلى التأثير السياسي الاقتصادي وعلى الإشعاع الثقافي الذي لابد له إلا أن يمر بعملية إعادة الاعتبار للغات الأوروبية على مستوى العالم أجمع على حساب الإنكليزية الأمريكية المرجع.

حيال هذه المخاوف الضاغطة ستصطدم كل محاولة أوروبية لاثبات وجودها بما أسماه ميشيل فوشه «قوى الحضارة المادية التي تنتشر على الصعيد العالمي». هذه القوى إن أردنا أن نعترف بذلك أم لا، هي قوى أمريكية وحتى الحقائق القومية الخاصة تساهم بتقوية القوة المركزية متناقضة مع ما تحتاجه أوروبا لكي تؤكد وجودها كقوة سياسية ذات سيادة. هذا الدور قامت به ألمانيا وإنكلترا وإسبانيا وإيطاليا عندما تضع العصي في العجلات التي تديرها فرنسا في كل مرة تحاول فيها هذه الأخيرة معارضة الولايات المتحدة. هذا الخلاف القائم هو أحد الأسباب التي جعلت فوشه يقول بحق بأن الاتحاد الأوروبي «يواجه خطر أن يحتل موقع المقاول في المؤسسة وفي الاستراتيجية المقررة بواسطة واشنطن».

وإن كانت أوروبا تتجاهل ذلك لأنها تفضل ألا تراه أو لأنها عمياء أو جبانة – وتتجاهل الوزن الناتج عن وحدة وجهات النظر ووحدة الأساليب فهذا التجاهل ليس موضع شك. إن أوروبا اليوم 25% من الناتج الدولي وتمثل عملاتها الثلاث الأساسية 43% من مجموع ديون صندوق النقد الدولي مقابل 40% للدولار وتحتل صادراتها واستيراداتها المركز الأول في العالم. رغم ذلك فكل شيء يبدو وهمياً بمفاهيم القوة السياسية الحقيقية لأن الولايات المتحدة أقامت الحواجز في كل مكان وهي قادرة على التحكم بالمؤسسات العالمية (الحلف الأطلسي والأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي والمنظمة العالمية للتجارة) وتثير الكثير من ردات الفعل بكل سهولة لإسقاط أي محاولة للاتحاد الأوروبي من أجل الوصول إلى سيادة قراراته الأساسية. لذلك تبدو أوروبا حالياً غير قادرة أن تحقق ذاتها لغياب الوحدة الأكيدة والعلنية، ولغياب الصورة الجديرة بالثقة والمقنعة والتي تستطيع أن تجذب إليها دول آسيا المتضايقة من العجرفة الاقتصادية الأمريكية من الكفاف الصيني. إن ظاهرة استقبال 215 ألف طالب من العالم الثالث في الجامعات الأمريكية مقابل 50 ألف طالب يختارون الجامعات الأوروبية هي ظاهرة غير بريئة فهذه العقول التي تعد بالطريقة الأمريكية تساهم بقوة بتغيير العالم حسب النموذج الأمريكي.

لا نستطيع هنا أن نندّد بالشكل الكافي بالجبن الأوروبي وخاصة في مجال الدفاع. يشير بدقة فلادو في سياق وصفه للنموذج الدولي فيما يخص القوة العسكرية إلى الطريقة التي تطور فيها مفهوم «الحرب». فإذا خضعت كل الأمم إلى «المراجعة الشاملة العميقة لسيطرتها على العنف المشروع» وإذا لم يعد استعمال القوة المسلحة ممكناً دون عقاب إلا أنه هناك استثناء كبير هو الولايات المتحدة. إن مفهوم «المجتمع الدولي» بدلالاته الإيجابية يخفي واقعاً مخادعاً ومقلقاً. فإرادة هذا المجتمع الأسطوري ورغباته نستطيع تفسيرها قليلاً من خلال مؤسسات دولية (صندوق النقد الدولي) أو إقليمية (الحلف الأطلسي) وهي مؤسسات بعيدة كل البعد عن الحيادية وعن اللامبالاة. في هذا الإطار يقول فلادو «بالتأكيد إن المصالح التي يعبر عنها المجتمع الدولي تستطيع أحياناً الولايات المتحدة أن تتصرف بها وتستخدمها بطريقتها لأنها هي الأقوى»، ونحن لا يمكننا أن نقول ذلك أفضل. اختراع مفهوم آخر أوجدته الولايات المتحدة يشكل أحد التفسيرات للقانون الدولي حسب الرهانات الخاصة بعملاق ما وراء الأطلسي، هذا الاختراع هو «الدول الطعم» وبعبارة أخرى شيطنة الحكومات التي تمثل أفعالها أو وجهات نظرها أو المواقف التي تتخذها ازعاجاً للأمريكيين الذين نتيجة ذلك يرمون عليهم الخزي والعار ويتعاملون معهم «كدول عصاة»، عند رؤية الواقع لا يمكننا أن نقتنع بشكل كامل بأن القانون الدولي قد تقدم منذ بضع عشرات السنين إلا إذا قبلنا بأن أنظمة الأقوياء التي يقودها بالطبع أقوى الأقوياء تشكل بحد ذاتها تقدماً. ولا يبدو أن انتصار القوة العظمى المخربة قابل أن يسعد أي إنسان في العالم إن لم يكن أمريكياً أو متعاوناً معه بروحه. هنا أيضاً تتحمل أوروبا بشكل خاص مسؤولية كبيرة، فبدلاً أن تكتفي بطلب المساعدة من الولايات المتحدة في كل مناسبة أوتوماتيكياً كعادتها أو بسبب الكسل، عليها من أجل مصالحها أن تخلق قوة ومراكز عسكرية أوروبية فقط كما أن تسليحها ومعداتها ومراكز قرارها أوروبية بشكل كامل ودون أي استثناء. يتطلب هذا المشروع بالتأكيد زوال الحلف الأطلسي وترحيل القوات والموظفين الأمريكيين إلى الجانب الآخر من المحيط الأطلسي وللأسف نحن لانزال – لأن الجنرال ديغول لم يعد بيننا – على بعد سنوات ضوئية من هذا الأمل.

إن أوروبا ليست المنطقة الوحيدة في العالم التي تقع تحت الوصاية الأمريكية، الشرق الأوسط هو في نفس الموقع.

الأمـــريكيون هم المنسقون لعملية السلام التي من أجلها كما ذكّرنا مؤخراً إدوارد ســعيد قــدم الفلسطينيون الكثير من الضمانات وتنازلوا كثيراً (لا شك كــثيراً جــداً) والأمريكيون مازالوا حتى هذا التاريخ، يقودون المفاوضات مع الأطــراف المعنية بمفردهم لأن الأوروبيون قد استبعدوا هنا أيضاً، وسوريا لا تجــري محادثات إلا مع الولايات المتحدة، وذلك منذ حرب الخليج حيث أسعفها الحظ باختيار المعسكر الرابح والتي أعطت الولايات المتحدة مصداقية لا شيء موضـــوعي يبررها فعلاً. وإن كان الفشل الذي منيت به اتفاقيات أوسلو أزعج واشنطن إلا أن السيطرة الأمريكية على المنطقة لم تتأثر بذلك. ومع وجود نقاط ارتكاز مثل المملكة العربية السعودية والكويت ومصر والأردن بجانبها إسرائيل المــتذبذبة والمحيــرة أحياناً ولكنها الحليف الأبدي لها، فالسيطرة التي تمارسها الولايــات المــتحدة على منابع النفط لا يمكن أن يناقشها أحد. وخاصة أنها من جانب آخر تناور لكي تستطيع محاصرة إحدى الدول التي تقاومها وهي إيران، فــإلى جــانب حظـــر التبادلات الاقتصادية والتجارية مع طهران وفرضه على العـــالم أجمع بواسطة قوانين (هلمز – بورتون واماتو) تحاول الولايات المتحدة استخدام ما لديها من أساليب لعزل هذا البلد. وبشكل متناقض لموقفها فهي تدعم طالــبان الحـــركة الأصولية المسلحة المتطرفة (مما يدفعنا أن نفكر جدياً حول الـــدور الذي يمكن أن يلعبه الأمريكيون في الجزائر). ما تريد الولايات المتحدة تحقيقه بالمدى المنظور يتجاوز الخنق الممكن للنظام الإيراني. فشركة أونوكال الأمـــريكية تتمســـك كثيراً بتنفيذ مشروع أنبوب الغاز الذي يصل بين الباكستان وتركســـتان، ورغم التحفظات المهمة ساندت تركستان وأزبكستان حركة طالبان ليـــس إرضاءً فقط لواشنطن، بل أيضاً بسبب التفكير بإشادة أنبوب الغاز. وأمام التعـــنت العقائدي لطالبان عبرت الولايات المتحدة عن انزعاجها مما أدى بهدف الاقتصـــاص إلى تقارب بين كابول وطهران، أما فيما يخص الروس فقد دعموا قيـــادة مســـعود عدو طالبان. إن ما تستطيع إيران أن تكسبه من هذا التفاهم مع أفغانستان هو واضح بالطبع، فهي تخفف من التضييق عليها في السندان ما بين الممـــلكة العـــربية الســـعودية وتـــركيا (الحليفتين لأمريكا) في الغرب وما بين أفغانســـتان وباكســـتان في الشرق، وعدا ذلك فهي ستصبح في موقع قادر على التصـــدي لعداء واشنطن وخاصة بعد عدم انصياع الأوروبيين بواسطة شركات شـــل (إنكليزية – هولندية) وتوتال (فرنسية) إلى التهديدات الأمريكية بالتدابير الثأرية.

فـــي المحيط الهادي حيث لا أحد يقاسمها العظمة شهدت الولايات المتحدة تـــأكيداً لســـيادتها عـــلى آســـيا عبر مجموعتين من الأحداث: الأول هو التوتر المفـــاجئ فـــي بحـــر اليابان خلال صيف 1995 عندما حاولت كوريا الشمالية المـــتورطة أكـــثر مـــن أي وقـــت مضـــى أن تهرب إلى الأمام بالإعلان عن طموحاتهـــا الـــنووية والـــثاني هو التهديدات الصينية ضد تايوان في ربيع عام 1996 الـــتي أدت إلى نشـــر حاملتي الطائرات للقوات البحرية الأمريكية وكان ذلك كاف لعودة الهدوء. أما فيما يخص ميثاق الأمن الذي يجمع منذ عام 1945 بيـــن الولايات المتحدة واليابان فقد تم تعزيزه طويلاً بإصدار إعلان مشترك في نيســـان 1996. وباعتبارهم قد جلسوا بثقة في مواقعهم الاستراتيجية في جنوب المحيـــط الهادي (جزر سموا وغوام ومريال الشمالية) وهي مواقع مهمة بسبب احـــتياطها مـــن الفحـــم لذلك كان الأمريكيون جاهزين للتدخل في جميع أنحاء المنطقة الواقعة بين سواحل الولايات المتحدة والمحيط الهندي. وتوزعت التبعية الآسيوية على محورين، أولاً المحور العسكري، فلم تكن اليابان هي البلد الوحيد الـــذي ربـــط أمـــنه بحلف مع الولايات المتحدة لأن جنوب شرق آسيا كان في الوضـــع نفسه. ثانياً وهو الأهم أيضاً المحور الاقتصادي. وكما في أوروبا فقد ارتـــبطت آســـيا بشـــبكة من اتفاقيات التعاون والدمج حيث أن شروطها راحت تضـــيق الخناق عليها.وقد نتج عن التكيف القسري مع القواعد الدولية وخاصة قواعـــد المـــنظمة الدولية للتجارة بعد مرحلة من النمو الاستثنائي، اضطرابات وعـــدم استقرار. فقد تراجع النمو في كوريا الجنوبية التي كانت ضحية الديون الكـــبيرة لمشـــاريعها. أمـــا تايلاند فقد دفعتها المضاربات العقارية إلى الرعب وكادت تصل إلى الإفلاس على الطريقة المكسيكية بعد انهيار عملتها. ومن جهة أخـــرى تســـتخدم الولايـــات المتحدة بذكاء لعبة المنافسة بين اقتصاديات الدول الآســـيوية المختلفة لصالحها باحتفاظها في الوقت نفسه بأسلوب الضغط بفضل المخططـــات البنيوية لصندوق النقد الدولي. وأخيراً على الصعيد الثقافي انتشر الـــتحول الغـــربي للشرق الأقصى بواسطة اللغة الإنكليزية والانترنيت وإعداد العقول الإدارية في الجامعات الأمريكية.

في وجه تطور على هذا النحو سوف تقوم حقاً عقبات، فالليبرالية المتطرفة على الطريقة الأمريكية والتي قُدمت كأمر يصعب التغلب عليه تعمل على صدم وتشنج المشاعر الوطنية للدول الآسيوية التي لها قواعد تاريخية متينة وعريقة. وتـــبدو الصـــين فـــي طليعة هذا الرفض بالاستسلام ولا ينقصها من أجل ذلك

العوامــل المتينة من جاهزية اقتصادية واضحة وفخر وطني شرعي قادر على الإنقاذ وإرادة قوية باستعادة الأراضي التي ترى أنها بالواقع قد سلخت منها. لا تخـاف الصين أن تسمع صوتها المخالف مزعجة به الأمريكيين وخاصة عندما أدانــت الحــلف بيــن اليابان والولايات المتحدة. إن الصين تمثل لأوروبا التي تنازلت منذ زمن بعيد عن حب نفسها مثالاً مشجعاً. بالنسبة لأفريقيا هي المكان حيث أوروبا وخاصة فرنسا قد خسرت الكثير وحصدت الولايات المتحدة الكثير مــن المكاســب الاستراتيجية الحاسمة. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أفريقيا الحالية المؤلفــة مــن قسمين اللذين بوقاحة حملا اللقبين «الدول المفيدة» و«الدول غير المفيــدة» بالــنظر إلى اللعــبة الاقتصادية الإستراتيجية الشاملة ماذا يمكننا أن نستنتج ؟ تظهر المنطقة الجنوبية التي تسيطر عليها دولة جنوب أفريقيا العملاقة كمنطقة مستقرة لا تزعج كثيراً الولايات المتحدة أما المغرب حيث التوتر والألم هي اليوم مسرح لإعادة توزيع الأوراق، وفرنسا التي تتمتع بورقة رابحة بفضل العــامل الــثقافي والسياســي المهم الذي هو اللغة الفرنسية بدأت تتراجع هناك لصالح الأمركة الزاحفة والماكرة. في تونس يحافظ النظام على وضعه بصرامة بواســطة حكومة لا تتردد أن تضع في السجن العناصر المزعجة (مثل محمود موادا زعيم الحركة الديمقراطية للإنقاذ الذي حكم عليه عام 1995 بالسجن لمدة أحــدى عشــرة عاماً وكمياس شماري النائب عن الحركة الذي حكم عليه لمدة خمــس سنوات سجن في 17 تموز 1995). بالمقابل توجد الصناعة في وضع مــرض زراعياً (الإنتاج بازدياد مما يسمح بتخفيض استيراد الأغذية) وسياحياً (مــع أنهــا في انخفاض بسيط) وبالرغم من أن العلاقات قد تعززت بين تونس والاتحاد الأوروبي بواسطة توقيع اتفاق التبادل الحر إلا أن دورها المساعد على الاســتقرار فــي المــنطقة لا يمكن أن تتجاهله الولايات المتحدة مما يتيح لهذه الأخيرة أن تركز اهتمامها على الجزائر وليبيا.

فــي الجزائــر حيث الشعور المناهض لفرنسا هو قوي (هناك الكثير من الأخطــاء الــتي ارتكــبت) ولم يعد سراً على أحد بأن أمريكا تراهن منذ عدة ســنوات مضت على انتصار إسلامي. هل لجهاز السي. أي. أيه .C. I. A كما يقــول البعض علاقة مع الحركة المتطرفة المسؤولة عن ارتكاب أبشع المذابح الــتي تدمــي الواقــع اليومي للجزائريين ؟ بدون أن نذهب بعيداً بهذا الاتجاه نستطيع على الأقل تقديم رؤيتنا المستقبلية.فأمام هذه الأعمال الوحشية سيتحرك الــرأي العــام الدولــي طبعاً وسيطلب تدخل الأمم المتحدة وإذا حصل سيناريو

تدخـــل شبية بالتدخل في الكونغو عام 1960 فسيكون ذلك أمراً مستساغاً وبين مصـــر الحليفة القوية والجزائر المسيطر عليها لن تتأخر ليبيا بالسقوط وهذا ما تأملـــه الولايات المتحدة. وبعد اتهامها دون دليل مقنع بحادثة «لوكاربي»وحادثة «تنره» خضعت ليبيا لحصار اقتصادي لأربع سنوات مما أدى إلى تفتيت بنيانها بشـــكل مـــلموس كما فكك نسيجها الاجتماعي. فعاودت الصراعات القبلية إلى الظهور في الوقت الذي فقدت السلطة السياسية المعزولة عن الشعب الكثير من هالتها وهذا الوضع الذي يذكر في بعض جوانبه بالوضع في تشيلي أيام الليندي أخـــذ يتدهور: تضخم نقدي خطر (600%) وارتفاع مذهل بالأسعار وتخفيض فـــي قيمـــة العمـــلة بـــلغ 75% خلال عشرين عاماً ومشاكل اجتماعية يصعب السـيطرة عـــليها: مخدرات وانحراف وإجرام مما أدى إلى تعزيز الإجراءات الأمـــنية. وقـــانون هلمز – بورتون المطبق (خارج كل شرعية حسب القانون الدولـــي) خارج الأراضي الأمريكية ينال من كل الشركات الصناعية والتجارية الـــتي تقيـــم علاقات اقتصادية مع ليبيا وقد وجد الكثيرون أنها إجراءات رادعة فعلاً.إن طلقة الرحمة لن تتأخر كثيراً لأن السيناريو الأمريكي الأخير قد بدأ. ألم يعـــلن جهـــاز الســـي. أي. أيـــه .C. I. A أنه اكتشف بفضل أقماره الصناعية للتجســـس في «ترهونه» معملاً للسلاح الكيميائي تحت الأرض؟ نحن نعلم منذ زمن بأن هذا النوع من الإعلان المبهرج يسبق عادة صيحات بدء المعركة. إن الدخـــول الأمريكي في بقية أفريقيا «المفيدة» يثير العجب عندما ننظر من خلال الخارطـــة إلى حجمه، ففي الواقع كل هذه الدول من زائير سابقاً إلى جمهورية الكونغـــو وغيـــنيا والغـــابون والكاميرون والسنغال وجمهورية أفريقيا الوسطى وأوغـــندة ...إلـــخ تمثل مصالح اقتصادية واستراتيجية عظمى. وفي كل مكان وخاصة في المنطقة التي تتعامل بالفرنك الفرنسي الأفريقي الذي خفضت قيمته أيـــام حكومـــة إدوارد بلاديور حلت المؤسسات الدولية (صندوق النقد الدولي – البـــنك الدولـــي) مكان المؤسسات التي كانت موجودة سابقاً ومرتبطة بفرنسا تم إعداد الخطط الهيكلية التي تناسب الواقع المستجد. وبمعنى آخر تحولت المنطقة الســـابقة لنفوذ الفرنك كي يصبح منطقة للدولار. وبهذا ينتهي إذاً النفوذ الفرنسي فـــي أفـــريقيا فيبدو أنه حقاً بأن شبه الجزيرة لبكاسي (بين نيجريا والكاميرون) الغـــنية بالبـــترول وبالصيد البحري والآبار الاستثنائية للبترول في خليج غينيا واحتياط المناجم في الكونغو تشحذ ذكاء المناورات الأمريكية في هذه المناطق. فـــتدريب رجـــال كـــابيلا بواسطة مستشارين عسكريين أمريكيين يمكن تفسيره برغـــبة الولايات المتحدة بالتقرب إلى أقصى درجة ممكنة مع السلطات الجديدة

في دولة زائير سابقاً بهدف استغلال النحاس ومعدن الكوبلت في شابا والألماس فـــي كاســـاي وفي منطقة وتاسا (التي تحتوي أيضاً على الذهب) والنحاس في مناجم كولويسي ولوممباشي.

هـــناك أيضاً التدخل السياسي – العسكري، وقد ظهر بشكل محسوس عن طـــريق البعـــثات التدريبـــية للمقاتلين في مختلف الدول التي يمكنها أن تشترك بشـــكل رمزي بقوات التدخل السريع لحفظ السلام «على الطريقة الغربية» أي الأمريكـــية. البلاد المعنية بذلك حتى الآن هي السنغال وأوغندا وأثيوبيا ومالي ومالاوي وغانا وهذه الدول تتلقى التدريبات والأسلحة من واشنطن (استراتيجية توســـع سوق الأسلحة مترافقة دائماً بالإشراف الدولي على التسلح). وإذا أضفنا إلـــى ذلـــك المناورات الحاسمة لشركات البترول مثل شفرون واكسن وتكساكو الســـاعية أن تـــأخذ مكان الشركات الأوروبية نستطيع حينها أن ندرك بسهولة خطـــورة الوضـــع. لـــيس عجيباً إذا أن تدعم الولايات المتحدة حكومة الرئيس الحالـــي للكونغو، باسكال ليسوبا الذي يؤيد عقد اتفاق معها على حساب شركة البـــترول الفرنســـية «إلف ELF» لدعمه ضد منافسه دينس ساسو نغسو. هذه الشـــركات نفســـها تتنافس مع شركة «ألفELF» في السباق على استغلال ما يمكـــن أن يكـــون أغنى الآبار البترولية الأفريقية في خليج غينيا. يشكل التدخل الأمريكي من الساحل الأطلسي إلى الخليج الفارسي حوالي ثلث القارة الأفريقية ويقســـمها إلى جزئيين وما كان يسمى «بالحقل المربع» الفرنسي قد انتهى وحل مكانه نوعاً من تدويل الصراعات والرهانات الأفريقية وما هو إلا صيغة مريحة تغطي أمركة القارة.

لقـــد بـــدأت إعادة انتشار الاقتصادي – الاستراتيجي في منطقة البحيرات الكبرى التي تتمركز تقليداً بين قطبي الاستقرار لبوروندي وراوندا عام 1989، إن يـــووري موســـفني الـــرجل القـــوي في أوغندا قد عرف كيف يطرح نفسه كضـــامن للمصالح الأمريكية ضد الأصولية الإسلامية بالشكل الذي ظهرت فيه في السودان. فأوغندا المستخدمة كقاعدة خلفية لعناصر الجيش الوطني الراوندي التـــي قلبـــت نظام الرئيس الراوندي جوفنال هبياري مانا اكتسبت موقعاً تحسد علـــيه وذلـــك خـــلال العملية التي وضعت حداً لاستراتيجية التضامن المتنافسة خـــلال الثمانيـــنات بين فرنسا وبلجيكا والولايات المتحدة على زائير تحت نظام موبوتو. وبرز صندوق النقد الدولي والبنك الدولي كعوامل مساعدة قيمة للعودة القويـــة للأمريكيين إلى المنطقة، هذه العودة لا مفر منها لذا لم يفهم الفرنسيون

والبلجيكيون باكراً بأن الأنظمة الزائيرية والراوندية قد وصلت إلى نهاية السباق. إن انتصار قوات كابيلا واستيلاءه على كنشاسا دون مقاومة في 17 أيار 1997 كان متوقعاً من اللحظة التي أضحت بها الدبلوماسية الأمريكية سنداً له. ولم تخف جمهورية الكونغو الديمقراطية نيتها بمعارضة كل مساهمة فرنسية في أي إعادة تشكيل في المنطقة ورفض حتى أن تتدخل في شؤون دولة الكونغو الجارة. ليس من الصعب إذا تكهن الاستراتيجية التي تحكم مثل هذه المواقف من بدايتها للوصول إلى المصالح التي تراهن عليها.

التنازلات الأوروبية:

أمام التحدي بالرد على الهيمنة الأمريكية على العالم فيما عدا بعض العوائق (مركسور في أمريكا اللاتينية التي تحاول الحكومة الأمريكية التغلب عليه بواسطة عملية ميامي(46) والمنظمة الآسيوية ANSEA التي تحاول الولايات المتحدة بالرد عليه عن طريق منظمة المحيط الهادي الآسيوية للتعاون الاقتصاديAPEC (47))، أمام ذلك لاتزال أوروبا تتحسس طريقها. مؤخراً أظهرت خضوعها العجيب لمنظمة حلف الأطلسي الأداة القيمة بالنسبة للولايات المتحدة. لقد قدمت لها منظمة الدفاع فرصة لقطع الطريق أمام بناء أوروبي لم يكن أبداً وديعاً. لقد صرح الرئيس كلينتون باشراقته المعهودة بأن

---

(46) إحدى عشر مجموعة عمل دائمة تمثل 34 دولة أمريكية ما عدا كوبا تحاول إعداد مشروع لمنطقة واسعة للتبادل الحر القاري تمتد من ألاسكا إلى أرض النار. هذا المشروع الذي تسوسه واشنطن يهدف عملياً إلى تحيد ما أمكن تأثير مركوسور حول الاستعادة الجزئية للاستقلال الاقتصادي لشعوب أمريكا اللاتينية.

(47) هذه المنظمة قامت بمبادرة أستراليا الحليف المخلص للولايات المتحدة وكان ذلك عام 1989. الدول الأعضاء (بروني - ماليزيا - إندونيسيا - الفليبين - بوباسي - غينية الجديدة - كوريا الجنوبية - الصين - تايوان - هون كونغ - وطبعاً الولايات المتحدة) تهدف إلى ليبرالية التبادل بين آسيا ودول المحيط الهادي وذلك حتى عام 2010 حسب أنماط مختلفة. وتحت وطأة معاملة صندوق النقد الدولي تدافع الدول الآسيوية عن نفسها رغم كل شيء وبشكل جيد. وبعد الأزمة المالية الأخيرة قررت تايلاند وماليزيا والفليبين وإندونيسيا وسنغافورة بعد الكثير من المعاناة أن تؤسس صندوقاً إقليمياً قيمته 100 مليار دولار يتدخل في الأزمات المستجدة. بالطبع عارضت الولايات المتحدة ذلك وصرح الناطق شبه الرسمي الأمريكي ستنلي فيشر المدير المساعد لصندوق النقد بأنه «عندما تعمل هذه الدول بمثل هذا الصندوق فإنها لن تبذل جهداً لتنظيم أوضاعها المالية».

«توسيع الحلف الأطلسي سيكون بالنسبة لعصرنا ما كان مشروع مارشال قبل خمسين عاماً» بل حتى إنه ذهب الانضمام عليه إلى أبعد من ذلك، فالميثاق الذي تم توقيعه عملياً وكما أكد جان أنطوان جياسيلي نائب رئيس لجنة الموازنة في البرلمان الأوروبي «قد محى بالطا». وأحل مكانه بالفعل تقسيماً جديداً للعالم نستطيع أن نقول عنه هذه المرة أنه يصعب إزالته، إذاً حسب تعبير وزير الخارجية الفرنسي السابق جان فرانسوا بونسه J.F. Poncet «في واشنطن الكفاية الذاتية هي المطلوبة» فالسبب يبدو جلياً. لقد قرر الأمريكيون بالمناسبة كل شيء. إنهم اختاروا بأنفسهم الدول التي ترغب الولايات المتحدة أن تراهم في الحلف: بولونيا وهنغاريا والجمهورية التشيكية لأنها تمثل آفاقاً مغرية لسوق مهم للسلاح مقدمة فرصة مضاعفة مالية وسياسية. ويندرج تبديل السلاح غير الأمريكي بسلاح أمريكي في خط استراتيجي احتكاري تحدثنا عنه في مجال الدفاع: إذا أصبحت الولايات المتحدة هي الممول الوحيد للسلاح فسوف تحكم العالم بشكل نهائي. فهنغاريا تستطيع أن تكون القاعدة الخلفية لبعض المعدات الأمريكية في حال انسحاب محتمل من البوسنة حيث تتصرف الولايات المتحدة بكل انفعال. وقد مول مكدونالد دوغلاس قرص كمبيوتر ليزري دعائي يهدف لإقناع الشعب الهنغاري بالتصويت لصالح دخول بلدهم في الحلف الأطلسي. إن الشركة الأمريكية لصناعة الطائرات تساعدها شركة لوسنت للتكنولوجية الممول الأول للبنتاغون بمعدات المعلوماتية والعملاق الأمريكي للاتصالات وقد جهزت قاعدة تسزار Taszar وهي إحدى القواعد التي يستخدمها الحلف في هنغاريا وينوي مكدونالد دوغلاس أن يفوز بعقد تجديد معدات سلاح الطيران المجري بالطائرة المقاتلة هورنت ألف 18. علاوة على ذلك فإن التحالف الضمني زمن الحرب الباردة بين الولايات المتحدة وروسيا قد تم تجديده لأن التفاهم المباشر بين كلينتون ويلستن أبعد مرة آخرى الأوروبيين عن إدارة قضاياهم ناهيك عن إدارة قضايا العالم أجمع.

إذا كان باستطاعتنا أن نعتبر أن الشخصية الأوروبية للدفاع قد ماتت فإن الشخصية السياسية ليست بأحسن حال. إن مشروع توسيع الناتو تم اعتماده برمته من كلينتون وتطبيقه حسب إرادته ولكن طلبت فرنسا مع سبع دول آخرى بأنه آن الأوان لتعيين أوروبي على رأس قيادة الجنوب أجاب وزير الدفاع الأمريكي وليم كوهن بالرفض القاطع فانصاع الأوروبيون لذلك. بل إن البعض منهم راح يتهكم قائلاً:«أوروبا الأطلسية حتى الأورال قد وجدت الآن»

بـــالفعل ولكنها أوروبا أمريكية. ولقد حدد معالمها باسكال بونيفاس مدير معهد العلاقـــات الدولية والاستراتيجية في جامعة باريس 13 فقال:«تمت إعادة تحديد البـــنية السياسية والاستراتيجية لأوروبا بواسطة الأمريكيين وإعادة التحديد هذه ممهورة بختمهم دون سواهم. والحلف الأسطوري بين فرنسا وألمانيا الذي طالما أزعجهم لم يعد كذلك وحل مكانه كيان توحيدي عاصمته واشنطن. أما الناتو فقد تحول من أغراضه العسكرية ليصبح منظمة سياسية أي اصبحت مهمته أن ينفذ الأهداف الأمريكية لخدمة المصالح الأمريكية ولم يؤخذ بعين الاعتبار أي حاجة أوروبيـــة. نحن اليوم إذا أمام أوروبا مدمجة كان قد رفضها ديغول بالسابق أما مهندسة أوروبا هذه فهي الولايات المتحدة والهدف الأخير للإدارة الأمريكية هو الوصـــول إلى أوروبا لا تختلف حدودها السياسة أبداً عن حدود الحلف الطلسي وسوف تتوصل لذلك.

هـــذا مـــا نـــراه يحصل منذ عام وهو شاهد على التنحي الأوروبي بشكل حقيقي فإزاء الولايات المتحدة التي تبلغ نفقاتها العسكرية مجموع ما تنفقه فرنسا والمانيـــا واليابـــان وروسيا والصين تحاول اليوم أن تزيد نفقاتها، وعلاوة على ذلك لقد حصلت على تقدم تكنولوجي في مجال التسليح لن يستطيع أحد تعويضه عـــلى المـــدى المتوسط والذي كما يشير الكونجرس قد أنجز بكل سرية منتهكاً اتفاقيـــة الحظـــر الـــتي ســـبق أن وقعتها حول تطوير الأسلحة النووية الحديثة (صـــاروخ ترايدنت 88 W الذي يتم تحديثه من أجل الوصول إلى ترايدنت 2) فـــي غيـــاب أي تواجـــد أوروبـــي. نريد أن نذكر هنا بأن القضية اليوغسلافية ســـاعدت عـــلى اكتشاف ذلك. فتدخل الناتو في البوسنة أتاح لواشنطن امتحان الأمـــم المتحدة التي باتت تعترف بالحلف الأطلسي كونه ذراعها المسلحة وبأن الحـــلف قد أصبح جاهزاً لخدمة المصالح الأمريكية عسكرياً في كل مكان ترى الولايات المتحدة أن ذلك بات ضرورياً.

فـــي النســـق نفســـه أزيحت بقفا اليد المحاولة الفرنسية بتشكيل نظام ذاتي لـــلدفاع الأوروبـــي داخل الحفل. في 3 و4 حزيران 1996 تم توقيع اتفاق في بـــرلين تـــم بموجـــبه قيام مجموعات من القوات المتعددة الجنسيات تحت قيادة أوروبية ولكن لا يمكنها اتخاذ قرار نهائي دون موافقة الولايات المتحدة. في 9 كـــانون الأول من نفس العام أكد في نورنبرغ الرئيس شيراك والمستشار كول دون مواربـــة بـــأن الحلف الأطلسي لا يتبدل وبأن إطاره الأمريكي الصافي لا اعـــتراض عـــليه. وأخيـــراً ورداً عـــلى الطلب الفرنسي بإعطاء قيادة المنطقة

الجنوبية لأوروبي كان الجواب لنقوله مرة أخرى رفضاً قاطعاً يفسره تردد باقي دول القارة العجوز. إذا نظرنا إلى خارطة انتشار الناتو في أوروبا وأضفينا إليه انتشار مرتقب لقواته في بولونيا وهنغاريا وجمهورية تشيكا ندرك أن الاستحكام الأمـريكي لا يمكـن تجـاوزه. هناك ثلاث قواعد للولايات المتحدة في إسبانيا وخمـس في بريطانيا العظمى وسبع في ألمانيا واثنتان في البنلوكس وخمس في إيطاليـا وست في اليونان وتركيا وسيكون من السهل عليها زيادتها عند الحاجة بقواعـد فـي أوروبـا الشرقية لتمتين حلقات الشبكة التي تلف أوروبا في وجه روسـيا. ومع الإعلان عن طلبات ترشيح دول البلطيق للدخول إلى الناتو تكون الأرض الأوروبية قد اعتبرت عسكرياً تحت السيطرة الأمريكية الكاملة.

عـلى أثـر ذلك لم تعد غطرسة واشنطن تعرف أية حدود. وتجسد الاتجاه الأحـادي الجانب بجملة أوامر سيكون مملاً تعدادها والكلام عن محتواها إلا أن جـان فرانسوا بونسه يذكر أدواتها الأساسية: «تعين الأمين العام للأمم المتحدة واسـتبعاد أوروبـا مـن المفاوضات الاسرائيلية الفسلطينية والإيعاز إلى حلفاء أمريكا للانضمام إلى الحظر ضد كوريا وإيران واستراتيجية الابعاد التي تقودها بوينغ.

بدعـم من واشنطن ضد صناعة «الطائرات الأوروبية» ومن المناسب هنا إضـافة التفسـير المـزاجي الـذي تستخدمه أمريكا في تفسير بنود المعاهدات الـتجارية والصناعية والتدخل أيضاً في قضايا العالم الثالث، عدة قضايا حدثت أو فـي طور الحدوث تبرهن على ذلك: بالنسبة للولايات المتحدة تأخذ القوانين الأمـريكية الأولويـة عـلى كل القوانين الأخرى. فهي تعتبر أن هذه القوانين ببسـاطة غيـر موجـودة. في نهاية أيلول 1997 ورداً على اتفاق الذي وقعته شركة توتال مع إيران يسمح للشركة الفرنسية استثمار بئر دولي كبير على بعد مسافة من الشاطئ الإيراني قامت الولايات المتحدة بالتلويح بقانون اماتو و أمر خجـول موجـه إلى توتال للتخلي عن مشروعها وإلا عرضت نفسها للعقوبات الاقتصادية. وهو قرار أمريكي بحت إذن يطبق دولياً، فإذا تنازلت فرنسا ولجنة بروكسـل سـيكون ذلـك سـابقة حاسـمة بـنظر الكون كله في طريق تبعية

أوروبـــا(48)، أمــــام هذا وكالعادة أسمعت أوروبا هرطقتها، وقد انمحى الاتحاد السـوفيتي من الخارطة إلى غير رجعة وكان يشكل للأمريكيين الحجة المناسبة فـــي كل مرة يرتفع صوت لإرادة الاستقلال للأمم الأوروبية. فمن أزمة برلين إلى ســباق التسلح النووي كان الرؤساء الأمريكيون يلوحون بالعملاق الشيوعي مــثل رأس زهــر الـــبحر الــذي فمه مفتوح وشعره من الثعابين. وبذلك كانوا يتوصلون عن طريق إثارة الرعب إلى ما يريدون: زيادة الاعتمادات العسكرية – إقامـــة قواعـــد للصواريخ على الأراضي الأوروبية – خضوع الحكومات – تصفية الميول الاستقلالية.

كـــان يمكـــن أن نصدّق الولايات المتحدة المرتبكة اليوم بأن زمن توازن الرعب قد ولى، إلا أن الجنرال الأمريكي كولن بول برهن في الأول من أيلول 1993 أنـــه لا يوجـــد شيء من هذا فقال: «إن الإمبراطورية السوفيتية قد حل مكانها شيء من نوع آخر مختلف – العراق وكوريا وشياطين آخرون ومخاطر ذات طـــبيعة إقليمية».الأمريكيون مستعدون إذاً لاستنباط مخاوف أخرى لاقناع الأمـــم وخاصة الأوروبية منها بتقبّل هيمنتهم العسكرية والسياسية للأبد، بالنسبة لـــلعراق لقد انتهى الأمر، لقد اشترك الأوروبيون بعملية الغزو لصالح الولايات المـــتحدة الـــتي ضـــمنت ســـيطرتها على آبار البترول وأُصبحت تقرر وحدها الأســـعار والكميات المسموح تصديرها وضمنت أيضاً سقوط الأوروبيين الذين فقـــدوا حظوتهـــم المعنوية بأعين الشعوب العربية، أما كوريا فسوف يتم الأمر قريباً(49).

لا تـــترك الولايات المتحدة – ونحن نعرف ذلك – أي شيء للصدفة وهي لم تنس أبداً مهمتها السماوية ووضعتها دائماً نصب عينيها، يتساءل أنطوني لاك مســـاعد الـــرئيس كلينتون لقضايا الأمن القومي فيقول في خطاب له في جامعة

---

(48) *كتب المدير السابق للسي.أي.إيه وهو وزير سابق يقول: «خلال الولاية الأولى لبيل كليتون فرضت الولايات المتحدة أو هددت بفرض عقوبات اقتصادية 60 مرة على 35 دولة وهي تشكل وحدها 42% من سكان العالم».*

(49) *لقـــد أعـــدت التقديرات: عشرة ألوية مشاة من الاحتياط و346 سفينة منها إحدى عشرة حاملة طائرات وواحدة احتياط و13 سرية طائرات وخمس احتياط وثلاث ألوية بحرية محمولة وواحد احتياط أي مـــا يقارب بشكل إجمالي مليون وأربعمائة ألف رجل دون أن نحسب الاحتياط، هذه المعلومات كشفتها (أليس أسبين) نفسه.*

جوهـــنـــز هوبكنـــز في 21 أيلول 1993:«لا تجبرنا مصالحنا ومثلنا فقط على الالتزام بل بالقيادة»، ويضيف «علينا أن نحرك الديمقراطية واقتصاد السوق في العالم لأن ذلك يحمي مصالحنا وأمننا ولأن الموضوع يتعلق بانعكاس للقيم التي هـــي فـــي وقـــت واحد أمريكية وعالمية». بالنسبة لوايتمان تضم أمريكا العالم وقيمهـــا هـــي قيـــم العـــالم وتاريخهـــا هو تاريخ العالم في الماضي والحاضر والمستقبل. أمريكا بالنسبة لأمريكي نهاية القرن العشرين هي الديمقراطية وهي الســـوق وهـــي مستقبل العالم قيمها هي قيم عالمية. ما هو الفرق إذاً بين هذين المفهومين وهاتين الطريقتين في التعبير؟!!.

الخلود الأمريكي:

أمـــريكا، العالم بالتأكيد ولكن قبل كل شيء خطر العالم، لأن الخمسين سنة الفاصلة بين نهاية الحرب العالمية الثانية إلى بداية الولاية الثانية لبيل كلينتون لم تكن خاسرة ولم تذهب ضياعاً وفي كل مكان في العالم سجلت الولايات المتحدة النقاط.

هـــنالك أولاً مـــتابعة إنجازات الرؤساء خلال القرن التاسع عشر ثم إنهاء الاستعمار وتطويره وفي هذه النقطة برز بشكل خاص تصميم الرئيسين ويلسون وروزفـــلت، فالشعوب ليا الحق بتقرير مصيرها فكان من الطبيعي أن تتوصل شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية إلى اختيار مصيرها بأنفسها.

يبدو واضحاً هنا خبث المقولة، إن مقولة إزالة الاستعمار بالنسبة للولايات المـــتحدة تعني دائماً الآخرين ولا تعنيها هي أبداً. وهكذا ومن عام 1945 حتى عـــام 1962 منحت فرنسا الاستقلال لكل أراضيها القديمة ما عدا جيبوتي ومن عـــام 1945 حتى عام 1957 كانت إنكلترا مرغمة على فعل الشيء ذاته وفي عـــام 1949 تحـــررت إندونيســـيا مـــن وصاية هولندا وتحررت المستعمرات الأفريقية من الانتداب الإسباني والبرتغالي والبلجيكي ونالت استقلالها. أليس من الصـــدفة إذاً أن تـــتحرك الولايات المتحدة في نفس الوقت ببيادقها في كل مكان مـــن آســـيا وأفريقيا وتعزز سيطرتها على أمريكا اللاتينية «دائرتها الثانية»؟!! أليـــس مـــن الصـــدفة أيضاً أن يحل الدولار مكان الفرنك والجنيه والبيزتا في المستعمرات الأوروبية القديمة المحررة وأن تتخذ سياسات اقتصادية وعسكرية مقتبســـة عن النموذج الأمريكي وأن تحل اللغة الإنكليزية مكان اللغات الأجنبية

الأخـرى؟ بالطـبع لـم تتحرر الهند كلياً من النفوذ البريطاني ولكن الشركات المـتعددة الجنسيات فيما وراء الأطلسي استفادت من ذلك كثيراً (بالرغم من بدء ظهـور ردة الفعـل لأنه حتى وإن أصبحت الولايات المتحدة الشريك التجاري الأول للهـند بمعدل قدره 9 مليارات دولار إلا أن الانفتاح قد أتجه إلى الاتحاد الأوروبي والصين وآسيا الجنوبية التي أصبحت الهند الشريك الأول لها، إضافة إلـى أنـه تم العمل باتفاق جنوب آسيا التجاري في كانون الثاني 1996)، أما برمانـيا فقـد غرقـت في الديكتاتورية وكانت الأنظمة منقسمة ما بين الشرق والغـرب، وفـيما يخـص إندونيسـيا فقد سقطت في حصالة واشنطن. ولكن الانتصار الأمثل بالنسبة للأمريكيين كان بالتأكيد انتشار الأيديولوجية الأمريكية في كل مكان.

الليبرالـية التـي ليسـت فقط عقيدة اقتصادية بل أيضاً رؤية حقيقية للعالم اسـتقبلها العديـد مـن أصـحاب الأمـلاك والمصلحين كنعمة وكعلاج لجميع الأمـراض(50)، وخاصـة لأولـئك الذين يحققون مصالحهم وينقذون المظاهر المعـنوية لأنهـا تمتلك قاعدة دينية وعلينا أن لا ننسى بأن توكفيل قد أشار إلى ذلـك فقـال:«عـند الأمريكييـن يجب اعتبار الدين بمثابة المؤسسة السياسية الأولى». ثم إن الجماهير التي لا تعرف الألاعيب السياسية والاقتصادية اقتنعت بوساطة الحملات الإعلامية بأنه ليس هناك أي نظرية أفضل من الليبرالية. بعد مـرحلة كارتـر الرئيس الأمريكي الوحيد الذي آمن بشكل حقيقي ببعض القيم وبشـفافية ضـرورية للسياسة الأمريكية بعده عاش فكر الحروب الصليبية أيام مجـده. الريغانيون على طريقة رامبو قدموا الدولارات والخبرات للكونتراس، إنهـا مدرسة الأمريكيين التي تعد مقاتلي الموت لديكتاتوريات أمريكا الجنوبية. لقـد أباد «جنود بوش للدفاع عن الحق» المدنيين العراقيين (بلغ الرقم 100 ألف قتـيل حسب المراقبين الموثوقين ويبدو أن الحقيقة تتجاوز هذا الرقم) وكل ذلك مـن أجـل أن تقـوم أمـريكا بـتحريك بـيادقها بحرية على رقعة الشطرنج الجيوسياسـية(51): لا بالتأكيد إن الولايات المتحدة لم تتبدل. فإذاً كما قال أندريه

---

(50) الأنانـية وغريـزة الاستيلاء والجشع والشعور اللاجتماعي والمضاد للتقاسم كل هذا أصبح أخيراً بالنسبة له منظريات مزينة بألقاب الضمير الواعي والنية الحسنة والاكتفاء الذاتي.

(51) سبب الحظر غير المبرر والمتوحش ضد العراق أكثر من مليون قتيل معظمهم من الأطفال بسبب نقص الأدوية وتجهيزات المستشفيات. الأمر ذاته حصل في كوبا حيث هناك أيضاً أطفال يموتون بسبب نقص الأدوية وحيث لا يوجد نظام صحي لولا مساعدة الجمعيات كالجمعية الطبية الكوبية في سويسرا.

كاسـبي عـن الثمانيـنات « بأن أمريكا ريغان كانت تريد تكييف العالم حسب مبادئها ومصالحها» فإن أمريكا كلينتون لم تتخل عن هذه المبادئ الأبدية. يقول مـارتن والكر إن قمة هلسنكي الأخيرة بين الرئيس الأمريكي كلينتون والرئيس الروسي يلتسن أظهرت استمرارية تاريخية عجيبة، إن الإدارة الأمريكية مقتنعة بأنها ملتزمة بمؤتمر يالطا وقيام الحلف الأطلسي عام 1949 الذي افتتح الحرب الباردة، ومن جهته كان آلان كوتا قطعي في حكمه إذ قال إنه يوجد اليوم نظام دولـي و«تقوم الولايات المتحدة في هذا النظام بدور لا يقتصر فقط على البطل الأساسـي، بـل تقوم أيضاً بدور وكيل الأعمال». لقد أزيح المنافس السوفيتي و«الاتحـاد الأوروبي لم يعد ذا فائدة بالنسبة لها بل على العكس فإن كان مباحاً لها أن يكون لديها نوع من التفهم لتلاحمه أي لقوته الاقتصادية، ولكن الولايات المـتحدة لا تتحمل أن يُصبح هذا الاتحاد قوة عظمى جديدة يتقاسم معها السلطة على العالم» ومنذ ذلك الحين بدأت القوة الاقتصادية لأوروبا تشكل لهم نوعاً من الظل، الشيء الذي لم تعد الولايات المتحدة تتقبله.

حيال التوقعات الكونية التي تزعج الولايات المتحدة أصبح موقف الحكومة الأمـريكية يومـاً بعد يوم مزعجاً وغير مقبول. إنه غير مقبول بسبب تصرفها بالنسـبة للخطر البيئي. فإن تسخين الكرة الأرضية بسبب الاحتراق (مازوت – بترول – غاز) يمكنه أن يؤدي بدءاً من عام 2100 إلى ارتفاع حرارة الأرض بـنحو ثـلاث درجـات وسترتفع المحيطات حوالي 85سم وستؤدي إلى إتلاف جـذري لأنمـاط العيش وإلى غرق جزر المحيط الهادي إلا أن الأمريكيين لا يـبالون ويرفضون توقيع بعض الاتفاقيات المقيدة مهما كان نوعها رغم كونهم أكـبر من يلوث الكرة الأرضية. إنه غير مقبول أيضاً أن تتخذ مثل هذا الموقف في مجال بيع الأسلحة وخاصة الألغام المستعملة ضد الأفراد وتشترك الولايات المتحدة مع الصين في هذا المجال إضافة إلى بعض الدول غير الديمقراطية وقد رفضت أن توقع على اتفاق أوتاوا –2.

هل أمريكا استبدادية؟

حسب التعريف الأكثر بساطة تعتبر الاستبدادية قوة مجمّعة أي بمعنى أنها تهدف إلى امتلاك مجمل أجزاء الكيان الذي تحاصره.

مـنذ البداية كما رأينا أنها حتى قبل أن تصبح ولايات متحدة كانت أمريكا

تطمــح إلى عولمة نمط أنظمتها، ولم يفتش مفكروها الأوائل من أساتذة وكتاب وقساوســة ورجــال دولــة عــن لحظة لاخفاء هدفهم النهائي ألا وهو: فرض نموذجهم للمجتمع على العالم أجمع.

قــبل كــل شيء ومن أجل تقديم المثال عرضت للآخرين لدرجة التفاخر الصورة الرائعة لأمة جديدة مختارة من الله لهدف واحد هو توزيع رسالة وحيدة لمستقبل تراه مشرقاً لكل الشعوب. إلا أنه وفي وقت مبكر جداً زالت إرادة إثارة الرغــبات أمــام اليقين بخضوع الآخرين بالإكراه لأنه بدا أمام هذه المقاومة أو تــلك أمراً لا مفر منه. لقد اعتقدت أمريكا وأرادت لنفسها أن تكون كياناً كلياً لا شــبيه له. ولذلــك رأت نفســها أعلى من كل المناطق التي يعيش فيها الأفراد والأمم، المناطق التي تعتبر أن من واجبها ضمها، فهي العالم بأسره لأن الإرادة السماوية أرادت ذلك ولأنها تجسد نموذج العالم الأتي حسب المخططات الإلهية، فالقدر حملها مهمة الإملاء على الأمم والشعوب لقانون واحد ما هو إلا قانونها.

إن كــان بعض هذه الشعوب وهذه الأمم خلال التاريخ اعتقدت أيضاً بأنها مكــلفة بمهمــة حضارية وهذا لا نقاش فيه ولكن ما يميز أمريكا التي أصبحت فيمــا بعــد الولايات المتحدة هو التأكيد الشرعي بالثقة بالذات وبشخصية غير مألوفــة أخــذت عندها شكلاً مرضياً. وإن كان من الطبيعي كما يحدث في أي جهاز حي بأن تعبر أي أمة دون مراوغة عن إرادتها بالسيطرة أما فيما يخص أمــريكا فهــي تشعر بهذه الإرادة لها جذور إلهية. لقد ظهرت ثقتها بنفسها منذ الــبداية بشــكل تأكيد مضخم لاستعلاء مطلق وفي الوقت نفسه بشكل شخصية قومية مصابة بمرض العظمة.

وكــلما حاولــنا الغــوص أكــثر في التجربة والتعمق بمفهوم الاستبدادية سنكتشــف بأن أمريكا التي بدأت قوة بسيطة محيطة دون معالم واضحة وذات حــدود مــبهمة، اكتســبت تدريجياً بعداً كثير التعقيد. وأود أن استعير من كلود بــولان تعــريفه للظاهرة، لقد وصف الاستبدادية كظاهرة تفرض «أيديولوجية وشــرطة تــلجأ إلى الــرعب واحتكاراً لوسائل الاتصالات الإعلامية واحتكاراً لــلقوى المسلحة واقتصاداً متمركزاً»، أي عنصر من هذه العناصر نراه مكوناً أساسياً للولايات المتحدة في بنيتها التكوينية كدولة وفي موقفها وهدفها السياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي تجاه باقي دول العالم.

الأيديولوجية أولاً:

تكونــت أمريكا شيئاً فشيئاً إنطلاقاً من نواة أيديولوجية ذات محورين. أولاً كانت القناعة بأنها مكلفة برسالة، وثانياً كانت متأكدة بأنها لكي تستطيع أن تنجز هــذه الغايــة انجازاً جيداً لديها السماح التام باستخدام كل الوسائل. لذلك تميزت السياســة الأمريكية منذ ولادتها بتصميم على العمل وبتمسك بالهدف وبالحفاظ الدائــم عــلى العنصر الأيديولوجي المولد للفعل. وتوصلت هذه السياسة لذروة قوتهــا بالتنفيذ مع مطلع القرن الثامن عشر وأصبحت بوضع أفضل منذ القرن التاسع عشر.

نشر سلطة وحيدة بعد ذلك :

عرضــت أمريكا للخارج صورة سلطة ذات رأس واحد يمثلها رجل: إنه رئيــس الولايــات المــتحدة. هــذا الأخير موجود في مجموعات مصالح مالية وشــركات عسكرية – صناعية ولوبيات وأجهزة بوليسية غامضة (أف.بي.أي وســي.أي.أيــه) ومافيــا، فــتارة عليه أن يبذل جهده ليحافظ على توازن هذه المجموعــات وتارة بفضل هيبته وشخصيته وإرادته عليه أن ينجز عدة أمور. وإذا ذهــب بعيــداً خاصــة عــلى صــعيد السياســة الداخــلية فعليه أن يدفع ثمن ذلك غالياً. هذا لا يمنع بأن مختلف الرؤساء كانوا لا يتوقفون عن أداء دور حاســم على صعيد باقي العالم. ومهما كانت أعباء السياسة الداخلية لم يغب عن أعيــنهم هــدف ديــناميكية إســتراتيجيتها الخارجيــة ألا وهي استخدام الأمم لإخضاعها وتحقيق مثل هذا الهدف يمر عبر إشراف الأكثرية.

من هنا أتى دور الاحتكارات:

عــلى الــرغم من أن الولايات المتحدة لا تتولّى في الوقت الحالي احتكاراً مطلقاً في كل المجالات، فهي دون أي جدل تجهد لتحقيق ذلك وتسعى إليه ومثل هذا الموقف يتطلب دون شك تواطؤات مختلفة خارج حدودها. وبوساطة اللعب بذكاء بالتخويف وبالجذب وبسياسة الأمر الواقع وبالابتزاز وبحبال المودة وبكل الوسائل الأخرى توصل الأمريكيون تدريجياً إلى بلورة المشهد الجيواستراتيجي حول أقطاب ذات ميل كبير للاحتكار الأحادي ولاحتكار الأقلية لسوق العرض.

وفي المجالات التي يعول عليها كان الأمريكيون يملون قانونهم على مجمل الأمم.

الاحتكارات العسكرية والسياسية:

على الصعيد العسكري والسياسي أيضاً تملك اليوم الولايات المتحدة بسلطة مهيمنة للتدخل ولنشر القوات وللقيادة بفضل منظمة حلف الأطلسي التي استطاعت ليس فقط المحافظة عليها رغم غياب العدو الذي أنشئت المنظمة من أجله ولكنها عملت على اتساعها.

وهكذا تمتلك الأداة لتفرض بالقوة متطلبات سياستها التوسعية كيف ومتى ما أرادت وهي تقتسم بذكاء المسؤولية ودفع تكاليف العمليات مع حلفائها الغربيين. كان يكفيهم تهيئة الأرض كما فعلت بالعراق عام 1991(52). علاوة على ذلك لم تخف الإدارة الأمريكية أبداً هدفها الحصول على احتكار التسلح. إذا توصلت إلى ذلك سيكون لكل الأسلحة والمعدات وقطع الغيار والتكنولوجي العسكرية مورد واحد فقط مما يؤدي لحرمان الأمم من سيادتها في مجال الدفاع، أي دفعها إلى الولاء حسب الواقع. وما حصلت عليه مؤخراً سويسرا من مكتسبات عسكرية وكذلك الأمر في فيلندا وفي المكسيك وفي تايوان لا يدعو أبداً للتفاؤل في هذا الموضوع.

الاحتكارات الاقتصادية:

على الصعيد الاقتصادي وإن كان الاحتكار هو نسبي حسب حصص مجموعات المصالح المحلية الأخرى في العالم إلا أنه قائم تماماً منذ زمن. فمن وجهة النظر الأيديولوجية الاقتصادية لقد أدى اعتماد الليبرالية للتبادل الحر للمدرسة الكلاسيكية من قبل معظم الحكومات تقريباً بعد تنقيحه وملاءمته وتشديده بواسطة منظريه ومستخدميه الحاليين، إلى تفكير وحيد يشل أي نشاط إرادي.

(52) *أخذت الحملة المعادة في أحد مكاتب الاتصال الأمريكية على عاتقها تهيئة الرأي العام العالمي فخلق هذا الفصل الواضح بين السيئين (صدام وشعبه) والطيبين (الولايات المتحدة والتحالف الذي قادته إلى المعركة).*

إن الانتصـــار الـــذي حصل في «بروتون ووذر» عند المجابهة التي تمت بين مفهومين أساسيين للرأسمالية، مفهوم وايت ومفهوم كيتـــز سمح للأمريكيين مـــع التوقيع على اتفاقات عام 1944 بسط نظامهم على العالم أجمع. لقد أصبح باســتطاعة هـــذا الـــنظام أن يعتمد على مؤسسات دولية (صندوق النقد الدولي والبـــنك الدولي ومنظمة التبادل الاقتصادي) وعلى نظام اتفاقات شاملة (المنظمة الدوليـــة للـــتجارة) للسهر على السير في الطريق الصحيح ويعيد المنشقين إلى الصـــراط المســتقيم ويقصـــم ظهـــر العصـــاة، إضافة لذلك تم فرض الدولار والمحافظـــة عليه رغم كل العقبات كعملة للمحاسبة والدفع على الصعيد الدولي ممـــا أعـــطى للأمريكيين الإمكانية لتمويل عجزهم بوساطة الآخرين وللتلاعب برفع وتخفيض العملة الخضراء حسب مصلحتهم الآنية، وللتصرف على هواهم بنـــبع كتـــلة نقدية لا ينضب ومتجدد حسب الرغبة. وإن أضفنا لذلك أمراً مهماً وهـــو أن المؤسسات الأساسية المتعددة الجنسية في العالم هي مؤسسات أمريكية وبأنها هي وفروعها تشكل أداة قوية للالتفاف على التشريعات الوطنية ولاحتقار الحـــدود وللـــتلاعب مع الأوضاع ومع الفرص مع العوائق الاجتماعية الخاصة علمـــنا حيـــنها كيـــف أن وول ستريت Wall Street وواشنطن يقودان الجزء الأكبر من اللعبة الاقتصادية والتجارية والمالية.

قـــد يكـــون صحيحاً أنه يظهر في الأفق علامات مشجعة بشكل خاص في آســـيا، ففـــي أيار 1997 خلال ندوة طوكيو حول استراتيجية النمو التي نظمها صـــندوق الـــنقد الدولـــي ومعهد السياسات للميزانيات وللنقد في وزارة المالية اليابانية، أيّد الموظفون الكبار والجامعيون الآسيويون المشاركون وبشكل خاص مـــن اليابان وماليزيا بأن «استراتيجيات النمو المرتكزة على السوق ليست الحل الأفضـــل لكـــثير من اقتصاديات الدول النامية». وتساءلوا حول ماهية «تطبيق سياســـات صـــناعية داخلية كتلك التي حدثت في آسيا» هذا التأثير التكتيكي أو الانـــتهازي أو الواقعـــي بدا وكأن صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة الـــتجارة يـــتخذون خطوات تشكك بالمعيار الليبرالي المتطرف الكلاسيكي. وقد أوضـــح آخـــر تقرير للبنك الدولي أن حالة النجاحات تتناقض مع نظرية الدولة الدنيـــا واعـــترفت منظمة التبادل التجاري على مضض بأن بعض الإجراءات الإدارية تتناسب أحياناً مع المفهوم السليم للنمو الاقتصادي.

الاحتكار الدبلوماسي:

علـــى الصـــعيد الدبلوماسي والأصعدة السياسة والعسكرية التي تنتج عنه تتمـــتع الولايـــات المتحدة باحتكار آخر تحسد عليه عن طريق وبواسطة منظمة الأمـــم المتحدة، وأن تستخدم هذا «البناء» الروزفيلتي على هواها هذا ممّا لاشك فيه. وما علينا إلا أن نراقب الوقاحة التي تتعامل بها دائماً مع الأمين العام ومع قـــرارات مجلـــس الأمن. فمنذ عدة سنوات هي تمتنع عن دفع مستحقاتها وهذا الـــنقص اتّخـــذ أبعـــاداً خطـــيرة ومـــا هي إلا إحدى المؤشرات ومنها الفوقية الاســـتبدادية التـــي عاملـــت بها بطرس بطرس غالي رغم المعارضة الفرنسية فخلعـــته مـــن منصبه وأتت ببديل عنه. إن موافقة الأمم المتحدة التي لا تشكل للأمريكييـــن إلا شكلية بسيطة تهدف إلى تمرير عملياتهم العسكرية والمحافظة علـــى الـــنظام بمظهره البراق الشرعي، هذه الموافقة تبدو مريحة وخاصة حين تـــتعزز بعقـــد عـــدة قمم ومؤتمرات وإنجاز مخططات واتفاقات تشكل إخراجاً مناســـباً من أجل حل يكون لصالح الولايات المتحدة الستراتيجي عبر مفاوضات يـــبعد عـــنها بالعـــادة أي مفـــاوض أو شاهد مزعج(53). وحيث أن القرارات الأساســـية والحقيقية مثلما حصل مثلاً في دايتون فيما يتعلق بيوغسلافيا السابقة هـــذا الـــبلد الـــذي دمـــره الأمريكيون بواسطة صندوق النقد الدولي بالتآمر مع الألمان.

الاحتكار الثقافي:

الصـــعيد الأخير وهو ليس الأقل دلالة هو الصعيد الثقافي فليس هناك أي غد مشرق أمام أمريكا المستبدة إن لم تتم عملية إخضاع العقول. هذه العملية قد بـــدأت فعـــلاً بفضـــل العمل الدؤوب بالنخر وبالإفساد وبإلغاء العادات الثقافية المميـــزة للشعوب. إن سيطرة مشروب على الواقع ويخرج اسمه آلياً من أفواه الأكـــثرية (كوكـــاكولا) وانتشـــار نـــوع خاص من المطاعم التقليدية المحلية، والشـــعور المريح بالحلاقة مع جيليت وبقص أعشاب الحديقة مع غابي Gaby والســـفر مع جنرال موتورز وتهوية الأمعاء بأقراص كيلوغز Kellogg's كل

(53) مثلاً فرنسا حين أبعدت عن التسوية في الشرق الأوسط بعد حملة العراق.

هـــذا يساهم شيئاً فشيئاً بالثقافة الكاملة ويهيئ الطريقة إلى أمركة التقاليد. وكما تهـدف الولايــات المـــتحدة إلى احتكار بيع الأسلحة كذلك تعمل للحصول على احـــتكار بـــيع الأطعمة. إذاً بتنا ندرك بشكل أفضل الخطر الكامن على الصعيد الـــتجاري والثقافي من خلال الهجوم الحالي للمؤن المعالجة جينياً. وبحصولهم بواســـطة منظمة التجارة العالمية التي تخدم شركاتهم المتعددة الجنسية على هذا الانـــتهاك لحـــق العـــيش ألا وهو الحق المطلق للبذور وجد الأمريكيون أنفسهم بالنسبة لبعض أصناف الأطعمة أنهم قادرون بمفردهم تغذية الكون.

تطال الهجمة الأمريكية كل مناطق الثقافة ولذلك فقد تم شراء سلسلة الكتب البريطانـــية بوكس أتك في 28 كانون الأول 1997 بوساطة العملاق الأمريكي بوردرز بانتظار منافسه في الولايات المتحدة برنرز ونوبل لينقض بدوره على بريطانـــيا العظمـــى ثم على أوروبا. إن الحصول على بوكس أتك يمثل خطراً كبـــيراً فسيكون لبوردرز قدرة التحكم باثنين وعشرين مركزاً للبيع يوجد إحدى وعشرين منها في لندن وضواحيها وواحداً في أديمبرغ وهي تنوي نشرها في جمـــيع أنحاء المملكة المتحدة. إن عدم استقرار السوق هو الذي سمح بخلق مثل هـــذا الوضـــع الـــذي يضاف للأوضاع الأخرى والذي من نتائجه فتح الأسواق الثقافـــية أمام المنتجات الأمريكية والشركات الأمريكية المتخصصة وخاصة في مجـــال المكتبات الكبرى. لقد باتت المكتبات التقليدية مهددة ولم تعد تحقق أكثر من 24% من نشاطها بوجه المحلات العملاقة التي حققت زيادة في سوقها من 4% إلى 6% خلال عامين في بريطانيا العظمى.

ومـــن بيـــن المـــناطق الثقافية الأساسية هناك الذوق، لقد دفعت الحملات المـــنجزة فـــي مجال الحواس السلطات الفرنسية إلى إطلاق عمليات للتعليم في مجال الغذاء يتضمن تعليماً لحاسة الشم والتذوق في المدارس الابتدائية. وكشف إحصـــاء أخـــير لدى تحضير أطباق بواسطة طباخين مهرة اعتمدوا في طبخهم على منتجات طبيعية عالية الجودة بأن التلاميذ وبأغلبية مخيفة صرحوا بأنهم لم يحـــبوا ما تناولوا من طعام وبأنهم سيكونون سعداء أكثر لو أنهم أكلوا همبرغر مع الفريت.

التفوق الفكري:

لـــم تكتف أمريكا بغزوها لعالم التقاليد (العادات الغذائية واللباس ..إلخ) بل

حققـــت لنفســـها تقدمـــاً حاسماً على طريق الاحتكار الفكري. فقد تبدلت جذرياً التصـــرفات في مجال البحث العلمي والإجراءات في المخابر والمواقف الذهنية المـــتعلقة بالمعـــرفة وذلـــك منذ بروز العالم العلمي الأمريكي. فمن جهة وكما يذكـــرنا فيليب انجلهرد فإن فرضية غابور – القائلة «بأن كل شيء ممكن سيتم تحقـــيقه يوماً ما»- قد تحكمت أي تعامل مع الظواهر العلمية حتى جعلت ممكناً حـــتى الأكـــثر خيالاً والأكثر تخريباً(54). ثم أن الأولوية الاقتصادية قد تحكمت بكـــل هذه الأيديولوجية فربطت أمريكا أي اقتراب من دراسة العلاقات الإنسانية علمـــياً بمتطلبات سوق المبيعات. ولكي لا تشعر باقي الدول أنه قد تم تجاوزها فقد وجدت نفسها مجبرة لتتخذ نفس الاتجاه. فكل مسألة لا تهدف إلى اعتبارات الربح والسيطرة على العالم بالنسبة للولايات المتحدة هي مسائل لاغية. وهذا لم يصـــب العلـــوم فقـــط فالجامعة كلها اليوم غارقة برؤية الأشياء على «الطريقة الأمريكية». لقد بات من الطبيعي الذهاب إلى جامعة أمريكية وإلا واجهت خطر فقـــدان قيمـــتك العلمية. فالهالة التي وضعها الأمريكيون على المجلات العلمية الأساســـية فـــي كـــل أقسام الجامعات كما أن تدخلهم في مشاريع أو في مراكز البحـــث المحـــترمة مثل مراكز البحث العلمي في جنيف أو فرض هيمنة اللغة الإنكليزية – الأمريكية كل ذلك يعزز شيئاً فشيئاً سلطانهم المطلق الذي يمكن أن لا يكـــون كلياً على الأمد القصير لولا أنهم استطاعوا أيضاً السيطرة على عالم الاتصالات.

التهديد بالوصاية في عالم الاتصالات:

يّغلـــق وينهي احتكار الاتصالات سلسلة الاحتكارات التي بدأت بالاحتكار الثقافـــي المـــؤدي عـــبر الاحتكار الاقتصادي إلى السياسي. إن الضربة القوية لمخطط مارشال الذي فتح به الأمريكيون السوق الأوروبية في معظم المجالات قـــد هدمت الحاجز الثقافي الذي منع تدفق الصور في السينما ثم في التلفزيون. وفـــي أقـــل مـــن خمسين عاماً تحققت الخسارات الكبرى التي بلاشك يصعب إصـــلاحها. لقـــد نقلت الأفلام الهوليودية خلال عشرات السنوات صورة أمريكا

---

(54) نقصد هنا الاستنساخ، فإن بدت الولايات المتحدة بأنها متحفظة بإطلاق البحوث في هذا المجال (نحن لا نجهـــل الخبـــث الـــذي تعطـــيه لمخاوفها) فإن آسيا قد حصلت على هذا الحق بشرائه من إحدى المختبرات الأمريكية فحظر الرئيس كلينتون على المخبر متابعة تجاربه.

المطمئنة والـلطيفة والقوية والتي يصعب التغلب عليها والواضحة. هذا العالم الخيالي الذي نشأ في نهاية الألفية تم تضخيمه عبر شبكات المعلوماتية والإعلامية. إن الاحتكار في عالم الشبكات – الانترنيت(55). هو مدعو للقيام بوظيفة أساسية في عملية الهيمنة بواسطة الاتصالات كما هو الحال في السينما والتلفزيون والمعدات ومكاتب الاتصالات والإعلام وهو الهدف الأخير للمناورات الأمريكية. وعند إنجاز حبك بيت العنكبوت هذا (سيخلق قولبة البث الفضائي رجلاً جديداً له عادات وحاجات جديدة أمريكية) تكون اللعبة قد تمت. ألم نر كيف في جميع أنحاء العالم نمدح الهدوء الذي يميز جولات وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبريت ورحلاتها في العالم التي أكدت «أن أحد الأهداف الأساسية في عالمنا هو الاطمئنان بأن المصالح الاقتصادية للولايات المتحدة يمكنها الانتشار على الصعيد العالمي» فأملت قانونها على رؤساء الدول مرددة مواعظها ومانحة أو مانعة الإجازات والتعويضات؟!!.

حول المهارة الأمريكي:

علينا أن نعترف للولايات المتحدة الأمريكية من بين مزاياها أنها تملك إرادة متابعة مشروعها القائم على أسس أيديولوجية وسياسية. إنه إيمان مميز ورثت مبادئه من أجدادها، فيه شجاعة في الفعل وعناد في مواجهة مخاطر التاريخ وتجاوز الحواجز ومواجهة العداوة والأحقاد مما أتاح لهذه الأمة رغم

---

(55) لقد استقبلت مؤخراً الحكومة السويسرية وكذلك المسؤولون في التربية والصناعة والمهن بالترحاب بيل كيتز الذي أتى لإطلاق الانترنيت. من الواضح أن الحكومة السويسرية ستكون من أوائل الدول في العالم الذي قامت بنشر الشبكة في المدارس دون الانتباه لتأثيرها على الأجيال. وكتب أحد الصحفيين الأذكياء يقول «لقد سمح وضع بيل كيتز كملياردير أن يفتح الكثير من الأبواب وأن يصافح كثيراً من الأيادي ومنها كاسبر فيليجه المستشار الفيدرالي». وهذا أكيد بأن الملياردير يستطيع فتح المزيد من الأبواب في سويسرا أكثر من المثقف ومن الفنان. يجب علينا أن لا نستهين بخطر الانترنيت وقد نبه لذلك فنسان سميث فقال «إن الشبكة وقعت الآن بشكل كامل بيد التجار. لقد أصبح الانترنيت اليوم الوليد العبقري والواعد لليبرالية الصاخبة والتكنولوجيا ولم يعد بقدرة أحد السيطرة عليه. في هذه اللحظة يتهيأ آخر الحالمين للانطلاق. ففي سنوات وجيزة أصبح الانترنيت تجارة وليس شيئاً آخر». ولا يخفي الأمريكيون نواياهم. يقول فنسان سميث «على الانترنيت أن يخدم أولاً التجارة ويصبح منطقة للتبادل الحر وعلى الولايات المتحدة أن لا تدخل عليه أي قانون وتدعه خارج الضريبة المالية».

كــل شيء أن تصل أو تكاد تصل إلى إنجاز رسالتها التي أمنت بها بمصداقية على أنها مكلفة بها حسب الإرادة الإلهية. لقد أنجزت فعلاً حرية التجارة وإلغاء (لدى الآخرين) الحواجز التجارية والثقافية والسياسية ورفض الأحلاف المرغمة علــيها. ولــم يعد النفوذ الأوروبي إلا ظلاً لما كان عليه قبل أقل من قرن وحل مكانـــه في كل مكان النفوذ الأمريكي وعصبة الرئيس ويلسون للأمم التي قامت غـــداة الحرب العالمية الأولى ولم يتمكن الأمريكيون منها تحولت بعد الصراع الثانـــي إلى منظمة الأمم المتحدة التي يقودها الأمريكيون فعلياً. والمخاوف التي رفضـــوها دائمـــاً بســـبب الواجـــب القومي فرضوها على الآخرين: عسكرية وسياســـية بواسطة الحلف الأطلسي واقتصادية بواسطة بريتون وودز ومنظمة التجارة العالمية...إلخ.

أبهـــر نجاحاتهم دون مناقشة هو الأيديولوجي، ألم يقوموا بإقناع كل الكون بأنـــه لا يوجـــد إلا فكر واحد صحيح ولا توجد إلا رؤية واحدة للعالم ومفهوم سياســـي واقتصـــادي واحد؟. إن الرأسمالية الليبرالية للتبادل الحر التي اقتبسها الأمريكـــيون مـــن المفكريـــن البريطانييـــن واستخدموها كأداة إخضاع لقوتهم ولمصـــالحهم أكـــدت حســـب الـــتعريف نفسه لصندوق النقد الدولي «الترابط الاقتصـــادي المتنامي لمجمل دول العالم الذي سببه زيادة حجم وتنوع الصفقات عـــبر الحدود للأملاك وللخدمات إضافة للتدفق الدولي لرؤوس الأموال وترافق فـــي نفـــس الوقت مع الانتشار المتسارع والعالم للتكنولوجيا». لقد حددت هذه العولمـــة التي هي انتصار الأمركة على الكون حسب ما يقول مارتن وولف في الفايننشـــل تايمـــز « نجـــاح الانتشار الدولي لليبرالية الاقتصادية التي بدأت في أوروبـــا الغربية قبل نصف قرن مع مخطط مارشال». لقد تأكدت عملية اندماج المجتمعات والأفراد والنظم وألغت في نفس الوقت أي أمل بدوام أساليب الحياة وطرق التفكير وأي محاولة بخلق أي شيء مخالف لنموذج الاندماج الوحيد. إن اســـتبدال كل عقائد العالم التي غالباً ما تنافست فيما بينها بالعقيدة الليبرالية وإن إلغاء الثقافات والنظم السياسية لصالح الثقافة الأمريكية والنظام الأمريكي يشكل التحدي الأقوى الذي لم تعهده الكرة الأرضية أبداً.

العالم ضد أمريكا:

إزاء هذا التحدي للعالم ولأوروبا بهيمنة الاستبدادية الأمريكية، كيف سيكون الرد(56)؟!!.

أولاً وبالضرورة عن طريق استعادة الوعي، أراد هذا الكتاب أن يساهم في ولادة وتفتح هذا الوعي. لا يمكن مقارعة من يريد أن يفرض قانونه إلا إذا أحسسنا فكرياً وجسدياً بسلطان من يهيمن علينا. إن المفهوم العميق للديمقراطية يكمن في إرادة فهم العالم وهي العمل معاً داخل المجتمع القومي من أجل الخير العام. وللوصول لذلك علينا أن نمر عبر التفكير بحالة المجتمع وهذا التفكير لا يمكن إثارته إلا بالتربية .لقد بات من الضروري عند هذا الواقع أن نضع حداً ليس فقط لبعض المواقف السلبية أمام افتتان الشباب بالنموذج الأمريكي (الذي لا يدرك كل مضارة) بل أيضاً علينا أن نفسر لهم صراحة هذا النموذج (فضائله التي لا يمكن الجدل فيها ولكن أيضاً عيوبه وخيباته المخيفة ونكساتها الصارخة(57)).

سوف تسمح السياسة التربوية السليمة أن نفهم ما يجب أن تكون أوروبا القائمة على قواعد أكثر ملائمة: ثقافية واجتماعية وسياسية. يمكنها أن تكون رأسمالية بلا شك ولكن بأهداف ليس بالضرورة أن تكون فقط البحث عن الإثراء لأقلية بواسطة جهد الأكثرية التي يحسدها المهملون والمحرومون. إن المعاهدات والاتفاقيات والمؤسسات الداعمة للعولمة الليبرالية (بريتون وودز – الحلف الأطلسي – صندوق النقد الدولي – البنك الدولي – منظمة التجارة العالمية) يجب إعادة دراستها وإعادة ترتيبها وإصلاحها. إنه من غير المحتمل أن يبقى الدولار العملة المقياس للعالم وهو عملة إحدى الأمم. لماذا لا نعود لفكرة البنكور التي اقترحها كينز؟ ثم على أوروبا أن تصبح قبل كل شيء قوة سياسية حقيقية متحدة وملتحمة – وإلا كما حدث في الممالك اليونانية القديمة

---

(56) سنعالج بالتفصيل مسألة الحلول الممكنة في كتاب يصدر قريباً.

(57) البلد الذي يبلغ عدد مساجينه الحد الأعلى في العالم بالرقم وبالنسبة المئوية، وحيث يوجد 35 مليون عائلة تعيش تحت عتبة البؤس، وحيث أن الأغنياء لهم الحق بالتربية الصحيحة وحيث المحرومون لا يملكون الحد الأدنى من الراتب ولا العناية الطبية ولا التقاعد المشرف، وحيث من الأفضل عندما تتنزه أن لا تبتعد عن الشوارع الرئيسية خوفاً من الاغتيال من أجل الحصول على دولار واحد، هذا البلد لا يمكنه الإدعاء بطرح نفسه كنموذج وحيد للعالم.

فسوف تسقط تحت نير كتلة سياسية أعلى – وهذا لا يمكن حدوثه دون التقاء جميع الإرادات المستندة إلى جذورها المكونة من مقومات الحضارة التي تجمع بلادنا العريقة.

إعادة اكتساب واسترداد التربية:

نحن نعيش نهاية قرن قاتم، قرن كما ذكر مؤخراً جان دورمسون أحرقنا خلاله الكتب، والمتوحشون يقفون على حدودنا بل هم داخلها أحياناً وهناك كتاب وفنانون مهددون بالموت ويموتون كل يوم. مازالت كلمات ألن منك الخشنة ولكنها مشؤومة لها صداها عندما قال:«إن المئة ألف أمي الذين يصنعون الأسواق إن لم نحترم عدداً من المعايير الدقيقة كمعايير الكنسية يستطيعون أن يقلبوا اقتصاد أي بلد ما رأساً على عقب»، ولكي نمنع الأميين أن يكونوا مصدر إزعاج علينا أن نعمل على إزالتهم وذلك بأن نجعل من التعليم سلاحاً لخدمة الناس والحضارات التعددية.

إن المدرسة هي مفتاح كل تغير مستقبلي وكل استعادة للوعي، وهي أيضاً يجب أن تتبدل. إن النظام المدرسي يجب أن يهدف إلى تكوين أفراد واعيين ومثقفين وفطنين، فالعقول المبنية بشكل سليم تستطيع أن تمتلك رؤيا واضحة للتاريخ وللعلوم وللآداب وللفلسفة وللفنون. ومع المعرفة المعمقة للغات القديمة والحديثة وإتقان اللغة الأم بشكل كامل كتابة وقراءة يستطيع طالب اليوم أن يصبح مواطن الغد الناقد والمتسامح والمتمسك بعناد بمواطنيه وبانتمائه الثقافي. سوف يفهم بأن الأولوية يجب أن تعطى للسياسة، وعلى الاقتصاد أن يعود لموقعه المرتبط بالسياسة أي المرتبط بإرادة المواطن.

لقد أدركت تكتلات المصالح الكبرى والاقتصاديات العريضة والغامضة أهمية تحويل مسار المدرسة باتجاه إلغاء الثقافات وعملت على تكثيف المعرفة المحض نفعية. لقد فهمت منذ زمن كما قال فيليب انجلهرد أن الجواب الوحيد على القلب المؤذي لحقائق الأولويات (إخضاع السياسة للاقتصاد بدلاً من العكس، الشيء الذي يؤدي إلى بعثرة الاجتماعي والصناعي والسياسي والثقافي تحت الاندفاع الانتحاري للمالي مسبباً فك الارتباط العام للبنية الاجتماعية) هذا القلب يعتمد إذاً على تفضيل قيام ما يمكن أن نسميه «المجتمع ذو المسؤولية المعممة» المرتبط «بإعادة البناء السياسي» الشيء الذي يرفضه ماكموند

(مكدونـــالد لــلمعدة وماكنـــتوش للدماغ) وهذا ما يتكلم عنه بمهارة غي سومان بشيء من الإقرار بالذنب بعد أن كان قد كتب الكثير من البلاهات حول حسنات كل ما هو ليبرالي. إلا أن عملية تحمل المسؤولية هذه يجب أن تمر بالثقافة. لقد بـــات من الضروري لكل مواطن أن يستعيد امتلاكه لناصية الثقافة – والمدرسة هـــي افضـــل الوســـائل لذلك – من أجل تكوين الجمهور الناقد الذي يدعو إليه أنجـــلهرد مـــع أطيـــب أمنياته ومن أجل حفز «القدرة الرافضة» التي تستطيع «إطـــلاق عمـــلية التغيير والمجيء بجمهور من المواطنين أكثر أهمية وهم لن يتحمـــلوا بعـــد ذلـــك الممارســـات الاجتماعية والسياسة المهيمنة وحتى لو لم يصـــرحوا بذلك». وكأنها صدفة حيث نرى أن عمليات الاغتيال ضد المدرسة تتأكد أكثر فأكثر كونها الوسيلة لامتلاك المواطنية.

ومن الأمثلة الكثيرة نذكر الإجراءات الأخيرة المتخذة في سويسرا لمشروع إصلاح البكالوريا (أو النضوج الفيدرالي) إن هذه الإجراءات تشكل برهاناً على إرادة الإلغاء المتبعة في الأوساط السياسية التي بالطبع تقود البلد. قبل كل شيء يـــبدو من المستحيل الحصول على أسماء أعضاء اللجنة المكلفة على المستوى الفيدرالـــي بـــإعداد الإصـــلاح. فكل شيء في سويسرا مستتر وسري. ثم هناك المنافســـة بيـــن فروع الثقافة (اللغة اللاتينية واللغة اليونانية والفلسفة) والفروع المســـماة بـــ «المفيدة» أو بـــ«الواقعية» كاللغة الإنكليزية (التي هي أكثر وأكثر لغـــة أمـــريكية) والاقتصـــاد أو أيضاً الاختفاء الصريح والتراجع لنسبة ملائمة لفـــروع الـــثقافة وهـــذا يهدف لا أكثر ولا أقل إلى شطب كل المناهج من أجل إطـــلاق المـــناهج التقـــنية فقط. فمن الصحيح أنه عندما نقوم بعمليات الحساب والقيـــاس والحـــل لـــلمعادلات الرياضية ليس من الضروري أن نقرأ أو نغذي الذاكرة ولا نواجه خطر التفكير أي خطر إعادة النظر بالمجتمع حيث نعيش. إن شـــعار «فـــرق تســـد» يشكل إحدى القواعد السياسية الأكثر تطبيقاً. إذ تجري المناقشـــات مـــرة أو مرتين خلال العام داخل الدوائر المدرسية في المقاطعات (التربية من اختصاص المقاطعات) حسب الفروع إذ إن الفروع المتعارضة فيما بيـــنها. أحد أهم نتائج هذه العملية هي إعاقة أي رؤيا للإصلاح والهدف الآخر هـــو تركيـــز المناقشـــات حسب الفروع على الربح والخسارة بمعيار ساعات الـــتدريس. فعـــندما نحمـــل المدرسين على أن يتخاصموا فيما بينهم نوجه بذلك الطاقـــات نحـــو قضية مغلوطة لنبعدها عن القضية الحقيقية. كل ذلك من أجل الهـــدف الـــنهائي وهو إبطال دور الثقافة والذاكرة، إن القوى المظلمة التي هي

وراء مشـــروع الإصـــلاح – أربـــاب العمل السويسريين (أحد أحسن من يمثل التاتشـــرية في العالم) واللوبيات المالية والصناعية والبنوك...إلخ – تشهد على تصـــميمها لتخـــليد النظام الليبرالي للتبادل الحر الدولي الذي يخدمهم و«يطوع» الأجيـــال المســـتخدمة كأدوات للعالم الاقتصادي النفعي وللمردودية ولامتيازات الثروة.

اللغة والهوية:

إن المواطـــن الواعي والناشط هو مواطن قادر على التعبير وهو قبل كل شـــيء يحب لغته. وكما كتب موريس دريون بأنه لا شيء ممكن أن ينفع الدولة فـــي النضـــال مـــن أجـــل اللغة القومية «إذا استمرت اللغة داخل الأمة نفسها بالـــتراجع وبالتـــلف بالتفتت».وهكذا فإن «العطب قد أصاب جسد من يجب أن يكون في وسط المعركة من صحافة وتلفاز ودعاية وإدارة وحتى التعليم، فالكل أصـــابه مـــرض اللامبالاة وبات كسيحاً. لدينا الكثير من هبطت قواهم اللغوية والكثير من الناس الذين يلتفون قليلاً أو كثيراً بالرايات الأجنبية من أجل مصالح وهمية». قبل كل شيء علينا إفهام الشبيبة واليافعين بأن «كل واحد منا مسؤول بطريقـــته وقبل كل شيء هو مسؤول أمام نفسه. إن اللغة هي التعبير عن النفس والطبع. فمن لا يحترم لغته فهو لا يحترم نفسه أي أنه لن يصبح بالتالي محترماً مـــن الآخـــرين. نحـــن المسؤولون بشكل جماعي تجاه سبعة وأربعين بلداً بل خمســـين بـــلداً فـــي القـــريب العاجل، متحدين بشكل مؤسساتي لأن لديهم قاسم مشـــترك وهو اللغة الفرنسية وهم يمثلون اكثر من ربع الأمم المتحدة ومستقبلهم مرتبط بمستقبلنا». لأنه علينا أن لا نخدع أنفسنا «المسألة هي قضية استراتيجية بل جيواستراتيجية». يجب أن تحدث ردة الفعل في كل مكان بدءاً من كل واحد مـــنا. «لـــنرفض أن نشـــتري المنـــتجات التي تستخدم لغة دعائية تشوه اللغة الفرنسية، لنرفض أن نستمع إلى البرامج التي تقلل من كرامتها، لنعترض على كـــل نشـــرة غير مفهومة، لنطرد من حياتنا كل كلام غير مفهوم في أي مكان نواجهـــه لـــنرمي بالخزي والعار كل أولئك الذين يوسخون ويذلون ويشوهون أغلى ما نملك من تراثنا».

مشروع خاتمة:

في كتابه المدهش «تاريخ الأمريكيين» وفي فصله الأخير يساهم دانيال بورستين من موقف المدافع بدعم الحجة التي نحاول في كتابنا هذا تقديمها، وعندما حاول عرض الأسباب الأساسية التي توجه ضد الولايات المتحدة وخاصة في أوروبا قدم ترسانة من العناصر هدفها نفي هذه الأسباب التي تنطلي على من ليس مأخوذاً بالنظريات الأمريكية. على كل حال لقد جلب الماء إلى الطاحون ليدعم كتابنا المتواضع.

لقد أكد لأولئك الذين يتهمون أمريكا بالإمبريالية إن هذا ليس هو الواقع ولكنه اعترف أنه في القرن التاسع عشر «كانت الولايات المتحدة قوة إمبريالية عندما وتحت شعار القدر المعروف استولت على الأرض الواسعة من جنوب غرب المكسيك أو عندما شعرت لفترة وجيزة بنزعة استعمارية». ونفس الشيء «في القرن العشرين كانت تدخلاتها في أمريكا الوسطى في ذات السياق، فمن وجهة نظر الشكل ليس هناك اختلافات عميقة بين إرسال ويلسون للفرق الأمريكية إلى فراكروز عام 1914 واحتلال السوفييت لأفغانستان عام 1979: في الحالتين تهدف العملية الحكومات القائمة وكلتاهما: أمريكا والسوفييت قليلة الاحترام لحقوق الإنسان». وعلاوة على ذلك في كل مكان تملك الولايات المتحدة قواعد عسكرية ، راحت تشكل بها «شبكة من القواعد في العالم كله لتثقل بها كاهل الخيارات الحرة للشعوب، فهي تقدم السلاح لقادة الدول المكروهين من مواطنيهم وتساعد حركات معادية للثوار، فالأنظمة الديكتاتورية والفاسية كشاه إيران وسيموزا في نيكاراغوا وترجيلو في جمهورية الدومينكان وبارك في كوريا لم تستطع أن تبقى في مكانها طويلاً لولا فضل المساعدة العسكرية الأمريكية بالعتاد وبالمال وبالمستشارين» وقد اعترف أن «الولايات المتحدة هي التاجر الأول للمدافع في الكرة الأرضية» وأضاف أنه «من أجل إبعاد قلب النظام الشيوعي المرادف للبؤس والديكتاتورية والدمار دون عودة الحريات». وسقطت الشيوعية ومازالت الولايات المتحدة أيضاً «التاجر الأول للمدافع في الكرة الأرضية» وهذه المرة ليس لضرب الديكتاتوريات ولكن من أجل إقامة ديكتاتوريتها.

أما فيما يتعلق بالدعم للطغاة فبورستين لا ينكر ذلك. لقد قال «حتى السبعينات كانت السي.أي التي أسست في عام 1947 الأداة لهذا النشاطات

السرية»عملياً لا نستطيع إحصاء تدخلاتها: في إيران حيث ساهمت بإعادة الشاه للعرش عام 1953، وفي البرازيل حيث دعمت الانقلاب العسكري عام 1964، وفي كمبوديا حيث ساعدت على قلب الحكومة المحايدة للأمير سيها نوك، وفي كوبا حيث دبرت الغزو الذي أخفق في خليج الخنازير عام 1961 كما عملت على اغتيال فيدل كاسترو، وفي غواتيمالا عام 1945 حيث أرعبت الإصلاحات الاجتماعية المتذبذبة للرئيس ارينز مصالح يونايتد فروت (اتحاد الفاكهة).

وإن كان ينكر الاتهام «بالهيمنة الاقتصادية والملية للرأسمالية الأمريكية» إلا أن بورستين لا يستطيع إلا أن يعترف بوجود الشركات المتعددة الجنسيات مع فروعها في العالم أجمع وبسيطرة الدولار وهما يشكلان معاً «أدوات هذه السيطرة». وإذا كان هناك عملياً «انقسام دولي على صعيد العمل مما يضمن للولايات المتحدة النشاطات الأكثر نبلاً والواعدة مستقبلاً» وإذا «كان الدولار يتمتع بمزايا استثنائية» التي بفضل «النظام المسمى بالجامايكي الذي يعود إلى عام 1976 يبدو أنه عزز هذا الانتصار الدولار» مما سمح لهم «الاستدانة بدون حدود بهدف الإعلاء الدائم لأهدافها الداخلية»، وإذا كان صحيحاً بأن «الولايات المتحدة لم تنجح بالهروب من إنذارات سياسة التهاون وهي المسؤولة الأساسية عن تداع ما لم نعد نجرؤ على تسميته نظام النقاد العالمي»، كيف إذاً نستطيع إنكار «الهيمنة الاقتصادية والمالية للرأسمالية الأمريكية؟».

وأخيراً ولدى الإجابة على اتهام آخر وهو الاتهام بأمركة الكون يعترف بورستين بأنه «عملياً فيما يرسله لنا الأمريكيون يوجد الكثير من السوقية والكثير من الأدوات المريبة إن كان ذلك يتعلق بالهمبرغر الذي لا طعم له والذي يرافقه البصل والكاتشب، أو بالأفلام التلفزيونية التافهة أو بالشيوخ الروحيين الفاشلين لكاليفورنيا أو بالصخب الصارخ بشكل موسيقى، أو باستهلاك المخدرات المختلفة». إذا كان كل هذا موجوداً بمقدورنا بعد أن ننكر بأن أمركة الكون قائمة على قدم وساق. وفي كل مكان تنتشر أنماط الاستهلاك والنماذج والمخططات الأيديولوجية التي أعدتها الولايات المتحدة وهذا يحدث حتى في الدول الاشتراكية، وتتمتع الولايات المتحدة بطاقة دعائية لا مثيل لها. والاختلافات الثقافية التي شكلت ثروة البشرية هي في طريقها للاندثار تسحقها مطابع الشكل الواحد. واستفادة الثقافة الأمريكية من تفوقها المادي فراحت بذكاء تفسد الأرض. فحيث حلت فككت البنى الاجتماعية التقليدية وأفقرت العادات والفلكلور المحلي. إن الامتثالية تجتاح بمكر الكون، امتثالية ذات صناعة

أمريكية Made in America تهدف إلى تحويل كل أفراد البشرية إلى «أقزام أمـــريكيين ضـــحلين». ألا يحق لنا أن نرى في ذلك أن «الأمريكيين قد صنعوا سلاحاً حاذقاً لتسخير العالم لمصالحهم ولنمط تفكيرهم ؟ » إن طرح السؤال هو إجابة عليه ويبدو لنا هنا أن دانيال بورستين كان لنا عوناً قيماً.

كتابـــنا هذا كان قاس على الأمريكيين، فأمام ضخامة الخطر علينا أن نرد برفض واضح، إذ إنه لا يمكن أن نوقظ الناس وننبههم لأن يدركوا هذه الأمور بـــالهمس فـــي آذانهم. لقد حاول هذا الكتاب أن يشرح ويوضح آلية ما ألا وهي غزو الثقافات المختلفة للعالم بواسطة الأيديولوجية الأمريكية (اقتصادية وسياسية وثقافيـــة) الـــتي تعمل في كل مكان لإلغاء الثقافات الأخرى. ولم يحاول الكتاب مـــتابعة الأحداث فهو أمر لا يمكن تحقيقه باعتبار أن التطور يتم بشكل يومي. لقـــد فضحنا الآلية والمسؤولية مازالت قائمة بشكل كلي. فعلى القارئ أن يتابع تأثيرات هذه الآلية يوماً بيوم، الآن نحن أطلقنا بقوة رسالتنا فعلينا أن نمد لشعب الولايات المتحدة يد الصداقة ولكنها يد لا تلوى.

هـــنالك صوت ينادينا اليوم من العالم الآخر، إنه صوت الفيلسوف الراحل جـــان مـــاري بـــنوا. فمـــنذ أكثر من ثلاثين عاماً حذرنا من أن نغفل ونرضى بوضعنا بحيث نصبح «مستهلكين متخمين ومنتجين مستغلين ومجاملين في وقت واحد»، لقد أوصانا بالمقاومة وألا تنخدع بواقع العالم.

هذه الحقيقة في مطلع العام 2000 تبدو نوعاً من «القدرية الأطلسية»، لقد كـــتب بـــنوا يقول أنها «قدرية تتناغم مع التبعية ونحن نرى اليوم تعزيزاً لهذا الخضـــوع بالتسليم بأنه يتناسب مع الأمر الواقع باعتباره يتلاءم مع الطموحات العميقة لفكر سان سيمون الذي لم ينته بعد ببساطته الاشتراكية المغلوطة وبالحلم أنـــنا لـــم نعـــد نـــتعامل مع البشر وعلينا أن نهتم من الآن وصاعداً فقط بإدارة الأمور».

عليـــنا أن نـــبعد هـــذه القدرية الأطلسية وأن ندعو الولايات المتحدة نفسها لإعـــادة تعـــريف المصطلحات وأن نعلمها احترام الآخرين، وإن لم تستجب لنا علينـــا بالـــرد عـــلى ســـبيل المثال باستخدام سلاح نملكه جميعاً وهو المقاطعة المنهجية والتامة للمنتجات المصنوعة في أمريكا. ويتابع الفيلسوف فيقول «بأي حـــق نعتبر أنفسنا أنه محكوم علينا أن نتقاسم أيديولوجية الطريقة الأمريكية في المعيشـــة وكأنهـــا قـــدر لا مفر منه وباسم أي مرسوم قدري نرى فيها مستقبل مجتمعنا؟».ويدعونا إلى الإنصات لكلود ليفي ستروس الذي يدعو بكل فرح لهذا

التنوع الذي يشكل عظمة البشر عندما يريدون تجاوز الذات والسمو. وهو يؤكد أن علينا «ألا ننسى أبداً بأنه لا توجد فئة من البشرية تمتلك صيغاً يمكن تطبيقها على المجموع وأن البشرية عندما تصبح في بوتقة واحدة بنمط واحد للعيش هي بشـــرية لا يمكن تصورها لأنها ستصبح هياكل عظمية». لنساعد الأمريكيين إذاً ولنساعد أنفسنا في الوقت ذاته في رفض تحجر العالم.

انتهى

■ ■

ملحق

التدخلات الأمريكية الرئيسية في العالم:

1819	ضم فلوريدا.
1846	بداية الحرب العدائية ضد المكسيك وضم الأراضي التي تشكل حالياً كاليفورنيا ونيومكسيكو (مكسيك الجديدة) وأريزونا ونيفادا وأوتاوا.
1854	تحت تهديد مدافعه أجبر الكومدور بري اليابانيين بفتح مرافئهم أمام التجارة الأمريكية.
1898	غزو الفليبين.
	غزو كوبا.
	ضم هاواي.
	ضم بورتوريكو.
	ضم جزيرة غوام.
1900	اشتراك أمريكا بحرب البوكسرز في الصين.
1903	التدخل في بنما لدعم الطغمة المؤيدة لأمريكا التي استولت على السلطة.
1906	التدخل في كوبا.
1909	التدخل في نيكاراغوا
1912	إرسال المارينز إلى المكسيك.
1914	التدخل في المكسيك.
1915	التدخل في هاييتي التي أصبحت محمية أمريكية.
1917	المشاركة في حرب أوروبا.
	نزول القوات في كوبا لتعين رئيساً يعمل لصالحها.
1924	احتلال سان دومينيك.
1925	عودة الجيوش الأمريكية بعد شهرين من رحيلها.
1934	احتلال هاييتي.
1941	حرب المحيط الهادي التي انتهت بإلقاء القنابل الذرية على هيروشيما وناكازاكي.
	الاشتراك في حرب أفريقيا الشمالية وأوروبا.

1947	*إنشاء جهاز السي.أي.أي الذي كان هدفه إسقاط الحكومات خلال عشرات السنين مستخدماً الجريمة والتخريب ...إلخ.*
1950	*الحرب الكورية.*
1954	*تدخل الخيش، مدعوماً من السي.أي.أي. في غواتيمالا.*
1958	*إرسال المارينـــز في لبنان.*
1961	*المحاولة الفاشلة لغزو كوبا (خليج الخنازير).*
	إرسال المستشارين العسكريين إلى فيتنام الجنوبية كمقدمة للحرب التي دامت حتى عام 1971 (معاهدة باريس).
1962	*التدخل في جامايكا حيث استقرت شركات ليل وتيت وبونتد نروت.*
1965	*التدخل في جمهورية الدومنيكان.*
1970	*التدخل في كمبوديا.*
1982	*نزول قوات المارينـــز في لبنان.*
1983	*التدخل في جزيرة غرنادا والاحتلال العنيف للجزيرة.*

Bibliographie sommaire

- Bairoch Paul (1995), Mythes et paradoxes de l'histoire économique, La Découverte, Paris.
- Baudrillard Jean (1970), La Société de consommation, Folio «Essais», Paris.
- Béanger Jean, Vincent Bernard, Marienstras Élise, Heffer Jean, Portes Jacques, Nouailhat Henri, Fohlen Claude, Toinet Marie-France, Bertrand Claude-Jean, Mélandri Pierre (1997), Historie des États-Unis, sous la direction de Bernard Vincent, Flammarion «Champs», Paris.
- Bergeron Louis, Berstein Serge, et al. (1987), Dictionnaire d'histoire économique, de 1800 à nos jours, Hatier, Paris.
- Boncœur Jean, Thouement Hervé (1989), Histoire des idées économiques, Nathan, 2 vol., Paris.
- Brune François (1985), Le Bonheur conforme, Gallimard, Paris.
- Burdeau Georges (1979), Le Bonheur conforme. Gallimard, Paris.
- Chaliand Cérard, Rageau Jean-Pierre (1983). Atlas stratégique: géopolitique des rapports de forces dans le monde, Fayars, Paris.
- Chevénement Jean-Pierre (1992), Une certaine idée de la République m'amène à..., Albin Michel, Paris.
- Conolly Bernard (1995), The Rotten Heart of Europe. Faber, London.
- Cotta Alain (1996), La Troisiéme Révolution française, Jean-Claude Lattés, collection «Pluriel», Paris.
- Cotta Alain (1991), Le Capitalisme dans tous ses états, Fayars, Paris.
- De Benoist Jean-Marie (1976), Pavane pour une Europe défunte, Denoël/ Gonthier, Paris.
- De Gaulle Charles (1994), Mémoires de guerre, Omnibus/Plon, Paris.
- Destexhe Alain (1989), Amérique centrale: enjeux politiques, éditions «Complexe», Bruxells.

- Durosell Jean-Baptiste (1990), Histoire de l'Éurope, Librairie Académique Perrin, Paris.
- Eagleton Terry (1986), Literary theory: An introduction, Blackwell, Oxford.
- Engels Frieddrich (1975), La Situation de la classe laborieuse en Angleterre, Éditions sociales, Paris.
- Fabre Pascale et Danièle (1995), Histoire de l'Europe au XXe siècle, Éditions Complexe, Bruxelles.
- Grimal Henri (1982), Le Commonwealth, PUF, collection «Que sais-je?» Paris.
- Grjebine André (1982), La Nouvelle Économie internationale, PUF, Paris.
- Habsbourg Otto (de) (1994), Mémoirs d'Europe, Critérion, Paris.
- Heffer Jean (1997), Les États-Unis de 1945 à nos jours, Armand Colin, Paris. Hérodote, 85,2e trimestre 1997, «États-Unis, le racisme contre la nation».
- Jobert Michel (1987), Les Américains, Albin Michel, Paris.
- Julien Frédéric (1987),Les États-Unis contre l'Europe, Le Labyrinthe, Paris.
- Kaspi André (1989), Les Américains, Seuil «Histoire», 2 vol., Paris.
- Kempe Frederick (1990), L'Affaire Noriega, Presses de la Renaissance, Paris.
- Kolko Gabriel (1997), Anatomy of a peace, Routledge, London.
- Lacouture Jean (1986), De Gaulle, Seuil «Historie», 3 vol., Paris.
- Lamore Jean (1989), Cuba, PUF, collection «Que sais-je?» Paris.
- Lhérété Annie, et Jean-François (1994), Chronologie thématique des États-Unis, Nathan «Université», Paris.
- Manigat Leslie (1991), L'Amérique latine XXe siècle, 1889-1929, Seuil «Histoire», Paris.
- Marientras Élise (1992), Les Mythes fondateurs de la nation américaine, éditions «Complexe», Bruxelles.
- Maris Bernard (1990), Des Économistes au-dessus de tout soupçon, Albin Michel, Paris.
- Masson Philippe (1992), Précis d'histoire de la Seconde Guerre mondiale, Tallandier, Paris.
- Miliband Ralph (1982), L'État dans la société capitaliste, François Maspero, Paris.

- Milza Pierre (1983) , Les Relations internationales de 1871 à 1914, Armand Colin, Paris.
- Miquel Pierre (1983), La grande guerre, Fayard, Paris.
- Neirynck Jacques (1996), Le siége de Bruxelles, Desclée de Brouwer, Paris.
- Nouailhat Yves-Henri (1997), Les États-Unis et le monde au XXe siége, Armand Colin, Paris.
- Polin Claude (1982), Le Totalitarisme, PUF, collection «Que sais-je?» Paris.
- Ramos-Horta José (1997), La Saga du Timor-Oriental, Favre, Lausanne et Paris.
- Reader W.J. (1985), Life in Victorian England, Batsford, Londres.
- Riasanovsky Nicholas (1987), Histoire de la Russie, Robert Laffont, Paris.
- Sachwal Frédérique (1997), L'Europe et la mondialisation, Flammarion «Dominos», Paris.
- Sowell Thomas (1983), L'Amérique des ethnies, L'Âge d'Homme «Cheminements», Lausanne.
- Steiner George (1973), Le Château de Barbe-Bleue, Folio «Essais», Paris.
- Stone I. F. (1952), The Hidden History of Korean War, New York.
- Tocqueville Alexis de (1963), De la Démocratie en Amérique, 10/18, Paris.
- Trevelyan G.M. (1979), English Social History, Pelican. Harmondsworth.
- Vanderlinden Jacques (1985), La Crise congolaise, éditions «Complexe», Bruxelles.
- Vayssière Pierre (1991), Les Révolutions d'Amérique latine, Seuil «Histoire», Paris.
- Weber Eugen (1987), Une Histoire de l'Europe, Fayard, 2 vol., Paris.
- Ouvrages de référence générale:
- L'État du monde: Annuaire économique et géopolitique mondial (1997), La Découverte, Paris.
- L'État du monde: Annuaire économique et géopolitique mondial (1998), La Découverte, Paris.

■ ■ ■

لمحة عن الكاتب:

ميشيل بينيون Michel Bugnon-Mordant ولد عام 1947، درس الأدب واللسانيات الإنكليزية والفرنسية والفلسفة الصينية في جامعات نيوشاتل وفريبور وأكسفورد.

حصل على إجازة في الآداب وتابع دراسته في لندن واستنكز، ثم حضر أطروحة في الأداب الإنكليزية حول الشاعر كوليه ريدج Coleridge.

يحمل دكتوراه في الآداب وهو أستاذ في جامعة فريبور، ويعد حالياً دراسة معمقة حول كتابات كونفيشيوس وزونزي وسينيك.

لمحة عن المترجم:

حامد فرزات، ولد عام 1953، درس في لبنان وحصل على شهادة في الفلسفة (بكالوريا قسم ثاني)، انتسب إلى جامعة دمشق وحصل على إجازة في الآداب من قسم اللغة الفرنسية.

تابع دراسته بعد ذلك في جامعة السوربون الجديدة في باريس، حيث حصل على شهادة دراسات معمقة حول الكاتب إميل زولا Emile Zola، وحضّر أطروحة في علوم اللسانيات والصوتيات الفرنسية.

يحمل شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون وهو أستاذ مساعد في جامعة دمشق كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية.

ترجم إلى الفرنسية كتاب البعث ثورة متجددة 1991.

نشر عدة مقالات أدبية وسياسية في الصحف والمجلات.

■ ■

الفهرس

■ ■

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

أمريكا المستبدة: الولايات المتحدة وسياسةالسيطرة على العالم "العولمـــــة"/ Michel Bugnon -Mordont؛ تـــرجمة / حـــامد فـــرزات - دمشـــق: اتحـــاد الكتاب العرب، 2001 - 239 ص؛ 24سم.

1- 327.73 ب و غ أ　　　　2- العنوان

3- بوغنون- موردانت　　　　4- فرزات

ع- 2001/11/2285　　　　مكتبة الأسد


منتدى اقرأ الثقافي



المترجم: د. حامد فرزات

ولد عام ١٩٥٣، درس في لبنان وحصل على شهادة في الفلسفة (بكالوريا قسم ثاني)، انتسب إلى جامعة دمشق وحصل على إجازة في الآداب من قسم اللغة الفرنسية.

تابع دراسته بعد ذلك في جامعة السوربون الجديدة في باريس، حيث حصل على شهادة دراسات معمقة حول الكاتب إميل زولا Emile Zola، وحضّر أطروحةً في علوم اللسانيات والصوتيات الفرنسية. يحمل شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون وهو أستاذ مساعد في جامعة دمشق كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية.

- ترجم إلى الفرنسية كتاب البعث ثورة متجددة ١٩٩١.
- نشر عدة مقالات أدبية وسياسية في الصحف والمجلات.

الكاتب: ميشيل بينيون - موردن

Michel Bugnon-Mordant

ولد عام ١٩٤٧، درس الأدب واللسانيات الإنكليزية والفرنسية والفلسفة الصينية في جامعات نيوشاتل وفريبور وأكسفورد.

حصل على إجازة في الآداب وتابع دراسته في لندن واستنكز، ثم حضر أطروحةً في الأداب الإنكليزية حول الشاعر كوليه ريدج Coleridge.

يحمل دكتوراه في الآداب وهو أستاذ في جامعة فريبور، ويعد حالياً دراسة معمقة حول كتابات كونفيشيوس وزونزي وسينيك.

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق

ثمن النسخة 225 ل.س في القطر
300 ل.س في أقطار الوطن العربي